السَّيرُ على دربِ الحبيب

العلاّمة محمّد تقي مصباح اليزدي

دار المحجة البيضاء

السَّيرُ عَلَى دَرْبِ الحَبِيبِ

الطبعة الأولى

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

دار المحجة البيضاء
للطباعة والنشر والتوزيع

حارة حريك - شارع الشيخ راغب حرب - قرب نادي السلطان

ص.ب: ٥٤٧٩ / ١٤ - هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ - تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧

E-mail:almahajja@terra.net.lb
www.daralmahaja.com
info@daralmahaja.com

السَّيرُ على دَرْبِ الحبيب

العلّامة محمّد تقي مصباح اليزدي

دار المحجّة البيضاء

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

من دون شك انه لا تضيء مرآة روح الإنسان إلا من أنوار الاشعاعات الإلهية، وإن صدأ القلب لا يزول إلا بجواهر الكلام الرباني، وعطش الفطرة لا يرتوي إلا بالشراب الطهور المعنوي، والحب المفعم الشديد لا يهدأ إلا عند وصال الحبيب، نعم.

﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾.

وكان كل رسول من الرسل الإلهيين مشعلاً يضيء الدرب للبشرية لكي يسيروا على الخط المستقيم، ولكي يرفعوهم من الثرى إلى الثريا، ومن المُلك إلى الملكوت وذلك لأنهم وجدوا جوهر الحكمة والحقيقة والمعرفة في صَدَف الوحي، وأوجدوا في كتبهم السماوية أفضل وأسرع طريقة لعروج الإنسان الدنيوي الأرضي، ورأوا أن المعراج الحقيقي للإنسان لا يحصل عن طريق العبودية للأعتاب الإلهية بل عن طريق الإخلاص والصفاء الإنساني فشرعوا يدعون الناس إلى الحضور الرباني.

﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾.

بلا شك ولا ريب فإنَّ اللذة التي تحصل عن طريق الإيمان بالله سبحانه هي أفضل وأوفر من جميع اللذات الأخرى، انظر إلى أولياء الله تراهم لا يبدلون مقام

التوكل والرضا والزهد والتقوى، ونعمة ترك الدنيا بأي شيء آخر.

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾.

يعتبر هذا الكتاب تنقيحاً لسلسلة دروس الأخلاق للأستاذ الجليل والمعلم الكبير سماحة آية الله الحاج الشيخ مصباح اليزدي (دام ظله) التي ألقاها في الحوزة العلمية في قم المقدسة ويتضمن الموضوع الرئيسي لهذه الدروس متن حديث المعراج المعروف والذي شرحه ببيان جميل ولغة جذابة كأنما شرح مع الآيات القرآنية. هذا ويوجد متن هذا الحديث الشريف في كتب عديدة مثل كتاب إرشاد القلوب للديلمي وبحار الأنوار للمجلسي... الخ. وفي الواقع فإن هذا الحديث القدسي يشتمل على دورة كاملة من دروس العرفان والحكمة الإلهية التي لا مثيل لها في الأخلاق المعنوية، وكلنا أمل في أن تكون مطالعة هذا الكتاب مفيدة للقراء الكرام من ذوي الدقة والبصيرة.

ونرجو أن تكون عملية نشره وطبعه فيها مرضاة الله سبحانه ومقبولة عند ولي الله الأعظم صاحب الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف إن شاء الله تعالى.

قسم النشر في مؤسسة الإمام الخميني التعليمية والتحقيقية

الحوزة العلمية في قم المقدسة

الدرس الأول

مقام الرضا والتوكل

حقيقة التوكل ورأي القرآن في ذلك

التوكل في روايات المعصومين عليهم السلام

التوكل من لوازم الإيمان بالله

التوكل ولزوم العمل والسعي

نبي الله ابراهيم الخليل عليه السلام والتوكل على الله

مقام الرضا والتوكل

روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنَّ النبي صلى الله عليه وآله سأل ربه في ليلة المعراج فقال:

يا رب، أي الأعمال أفضل؟

فقال الله عز وجل: ليس شيءٌ عندي أفضل من التوكّل علي والرضا بما قسمت[1].

حديث المعراج، أحد الأحاديث القدسية للنبي صلى الله عليه وآله حيث يسأل في هذا الحديث ربه تعالى أسئلة والله سبحانه يجيبه؛ فيسأل بادىء ذي بدء، حضرة ربه: يا رب أي الأعمال أفضل؟ ويجيبه الله سبحانه وتعالى ويقول: لا يوجد هنالك شيء عندي أفضل من التوكل عليّ والرضا بما قسمت.

هنالك العديد من الروايات التي تتحدث عن أفضل الأعمال التي تؤخذ بعين الاعتبار هي أعمال الجوارح وأعضاء البدن وفيها مسألة عينية وعملية مثل أعمال ترتبط بها العين، الأذن، واليد، ولكن مسألة هذين الفقرتين من حديث المعراج توسعت لتشمل حتى المسألة القلبية وذلك لأن للنفس دوراً في الأمور القلبية حتى وإن كانت تلك الأعمال والإيحاءات قلبية تماماً، وتكون كائنة في أعماق القلب إلا أنها تعتبر بمثابة العمل.

---

(١) إرشاد القلوب للديلمي ج١ باب ٥٤ ص ١٩٩، وبحار الأنوار ج٧٧ ص ٣١.

حقيقة التوكل في رأي القرآن الكريم

التوكل من مادة «وكالة» وفي الثقافة الإسلامية بمعنى أن الإنسان يعتبر أنَّ الله سبحانه هو اعتماده وهو الذي يطمئن به ويوكل أموره إليه[1].

يوجد في القرآن آيات كثيرة حول التوكل، ونحن لأجل التوضيح وتبيان معنى وحقيقة التوكل نكتفي بذكر بضعة نماذج، أما مسألة التحقيق والتعمق في المسألة فنرجئها إلى وقت آخر.

يعتبر الله سبحانه مسألة التوكل من لوازم وضروريات الإيمان بالله حيث يقول سبحانه ﴿... وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[2].

وفي مورد آخر يقول:

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[3].

ويعتبر في آية أخرى أن التوكل والاعتماد على الله من الصفات البارزة للمؤمنين حيث يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[4].

ويبين في مكان آخر أن الاتكال على الله والاعتماد عليه أكثر شدة وحدّة حيث يقول سبحانه:

---

(١) جاء في الحديث: إن النبي ﷺ سأل جبرائيل عن معنى التوكل فقال: العلم بأن المخلوق لا يضر ولا ينفع ولا يعطي ولا يمنع واستعمال اليأس من الخلق، فإذا كان العبد كذلك لم يعمل لأحدٍ سوى الله ولم يرج ولم يخف سوى الله، ولم يطمع في أحدٍ سوى الله فهذا هو التوكل. بحار الأنوار ج٦٨ ص ١٣٨ حديث ٢٣.

(٢) سورة آل عمران، الآية ١٢٢.

(٣) سورة المائدة، الآية ٢٣.

(٤) سورة الأنفال، الآية ٢.

﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾[1].

حيث تشير جملة «رب المشرق والمغرب» إلى حاكمية الباري عز وجل على كل الكون، والمقصود من الآية هو أنّ الله سبحانه الذي يحكم بقدرته كل العالم والكون، ويعتبر الإله الوحيد الذي يستحق العبادة، فكيف للإنسان ألاّ يتوكل عليه وألاّ يعتبره معيناً له في حياته؟ فيقيناً لو نذكر الله دائماً ونعتمد عليه ونقوّي أرواحنا بذكره لتفتحت أنفسنا وعاشت الحيوية والنشاط المستمرين ولأزهرت في قلوبنا الأوراد والأزهار التي لا يعتريها الذبول والفناء، وتلاحظ عندها أنَّ الإنسان لا يبحث عن المقام والمنزلة ويترك الدنيا والآخرة كما قال حافظ:

فـي ضميـرنـا لا يـوجـد غيـر الحبيـب
اعطوا العالمين للعدو فأنا يكفيني الحبيب

وهو كذلك يقول:

لا يـوجـد فـي قلبـي سـواه
مـاذا أفعـل ولـم يعلمنـي استـاذي غيـره؟

وعادة ما يختار الإنسان في جل أعماله الدنيويه في الدنيا وكيلاً يوكل إليه الكثير من أعماله لكي يجني فائدة أكثر، كذلك ينبغي أن يتوكل العبد على الله ويعتمد عليه لكي يؤمّن له كل ما يحتاج، وما يحب من دون خوف ووجل وقلق، وبعبارة أخرى: من أراد أن تقضىٰ حوائجه فأمامه ثلاثة خيارات:

أ ـ أن يعتمد على نفسه.

ب ـ أن يعتمد على الآخرين ويحتاج إليهم.

ج ـ أن يعتمد على الله ويترك الآخرين.

---

(١) سورة المزمل، الآية ٩.

ومن بين أسوأ الخيارات المطروحة هو ذلك الخيار الذي يعتمد فيه الإنسان على الآخرين ويتكل عليهم ويطمئن إليهم. ولا يعتبر مذموماً ومحرّماً من الناحية الدينية فقط بل هو خيار غير مرغوب وغير مطلوب وغير معقول من نظر ورأي علم النفس لأنه يضحي سبباً في إلقاء التوكل على الناس، وإذا استمر هذا الخيار شيئاً فشيئاً يسلب منه إحساس الغنى المقدس والاستقلالية.

شرح الخيارات الثلاثة:

ويطلق على الخيار الأول وفقاً لعلم النفس، الاعتماد على النفس والذي يمكن مطالعته من ناحيتين:

١ ـ البعد الإيجابي. ٢ ـ البعد السلبي.

البعد الإيجابي:

بمعنى أن يكون الإنسان متوكلاً على نفسه من جميع الأمور (في كل شيء)، وفي هذه الحالة فحتى لو كان هذا الأمر محبذاً ويوصى به من ناحية علم النفس إلا أنه يعتبر أمراً غير صحيح وغير مقبول لأنه كلما ازدادت معرفة الإنسان بنفسه وبربه فإنه يتنبه إلى أنه أكثر ضعفاً ووهناً مما كان يعتقد، وبعبارة أخرى فإنه سيعرف ضعفه بصورةٍ أكثر وأشد.

من البديهي أن كل القوى والطاقات التي يمتلكها الإنسان هي من الله ووردته من ناحيته المقدسة، إذن كيف يعتمد الإنسان على قواه ونفسه المتزلزلة الفانية وهو يعتقد ويؤمن إيماناً حقيقياً أن وجوده وما يملك مُتعلّق بالله وهو لم يكن المالك الحقيقي؟

ينشأ عملياً التوكل والاعتماد على الله من المعرفة الربوبية والإلهية إذا عرف الإنسان بأن الله هو المالك وهو صاحب الاختيار وأن الكون كله بيده وأنه لم يَر أي ضرورة، بأن يذهب ويتجه بالطلب إلى سواه أو يحتاج إلى غيره.

البعد السلبي:

أما البعد السلبي «للاعتماد على النفس» وعدم الاعتماد على الآخرين والذي يعتبر من ناحية علم النفس وكذلك من الناحية التوحيدية أمراً مقبولاً، وفاعلها ممدوح ومقبول. وقد اهتم القرآن الكريم وكذلك روايات أهل البيت عليهم السلام بهذا الأمر كثيراً، واعتبراه أمراً جميلاً بشرط أن يكون التعلق القلبي والاعتماد على غير الله موجداً لليأس والخيبة. وتشير في حقيقة الأمر تلك الآيات إلى نوع من «التوحيد في التوكل». ونكتفي في هذه المقطوعة بذكر بضعة نماذج من هذا المنطلق فإذا كان لدى الإنسان من يعتمد عليه ويثق به مثل الباري عز وجل والذي هو حي أبدي ولا يفنىٰ بتاتاً فهو ليس بحاجة إلى أن يعتمد على الآخرين لأنه سبحانه يقول:

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾[1].

وفي مكان آخر يقول:

﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾[2].

ومع وجود الله سبحانه فعندما يلجأ الإنسان إلى سواه بأي دليل كان فهذا يعني أنَّ عنايته سبحانه لا تكفيه. لذلك يقول الباري عز وجل:

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾[3].

﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[4].

فإذا ما حلت بالإنسان خسارة فهو الوحيد الذي يدفعها، وخيراته وحدها هي التي تصيب الإنسان.

---

(١) سورة الفرقان، الآية ٥٨.
(٢) سورة النمل، الآية ٧٩.
(٣) سورة الزمر، الآية ٣٦.
(٤) سورة الأنعام، الآية ١٤.

﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[1].

وعلى كل حال فإن من اتكل على الله واعتمد عليه واعتبره الوكيل المطمئن به كفاه.

يقول تعالى:

﴿ . . . وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾[2].

﴿ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾[3].

---

(١) سورة الأنعام، الآية ١٧.

(٢) سورة الطلاق، الآية ٣.

(٣) سورة الزمر، الآية ٣٨.

التوكل في روايات المعصومين عليهم السلام

فيقول الإمام الباقر عليه السلام :

«من توكل على الله لا يُغلب ومن اعتصم بالله لا يُهزم»[1].

عندما يطلب الإنسان شيئاً يجب أن يكون تعلُّق قلبه واعتماده على الله لأن الأسباب العادية التي في أيدينا ليس لها أي تأثير إلا بالمقدار الذي يقرره الله ويقدّره، كما يظن أنها غير مستقلة في التأثير. وحقيقة الأمر، التأثير بيد الله سبحانه.

نقل عن الصادق عليه السلام :

«إذا أراد أحدكم أن لا يسأل ربه إلا أعطاه فلييأس من الناس كلِّهم ولا يكن إلا من عند الله عز وجل»[2].

كذلك جاء في كتاب «عدة الداعي» عن الصادق عليه السلام عن آبائه عن النبي صلى الله عليه وآله قال:

«أوحى الله إلى بعض أنبيائه في بعض وحيه: وعزتي وجلالي لاقطعَنَّ أمل كل آمل، آمل غيري باليأس ولأكسونه ثوب المذلّة في الناس ولابعدنه من فرجي وفضلي، أيأمل عبدي في الشدائد غيري، والشدائد بيدي؟ ويرجو سوائي وأنا الغني الجواد، بيدي مفاتيح الأبواب وهي مغلقةٌ وبابي مفتوح لمن دعاني؟»[3].

نعقب البحث التالي بحديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام : يقول حسين بن

---

(١) مستدرك الوسائل ج٢ ص ٢٨٨.

(٢) مصباح الشريعة ص ١٣٤.

(٣) تفسير الميزان، ذيل الآية ١٨٦ سورة البقرة.

علوان: كنت جالساً في مجلس آخذ العلم فيه وقد انتهت لدي نقود أجرة الطريق، قال أحد أصدقائي: تتأمل مَنْ لحل هذه المشكلة؟

قلت: أتأمّل فلاناً، قال: اقسم بالله لا تنقضي حاجتك وما تصل لمرادك ولا يتحقق أملك. فهذا بين كلامه بقسم بالله وصار سبب تعجب حسين بن علوان لذا قال له وما علّمك رحمك الله؟ فأجابه قائلاً: سمعت الإمام الصادق عليه السلام أنه قال قرأت في أحد الكتب أنَّ الله تعالى قال:

«وعزتي وجلالي وعظمتي واستلائي على العرش لاقطَّعَنَّ أمل كل آمل آمل غيري باليأس، ولأكسونه ثوب المذلة في الناس ولأبعدنه من فرحي وفضلي، ويستمر سبحانه حتى يقول:

الشدائد والبلايا أنا أوجدها لعبدي وأرفعها بيدي فقط، فكيف يطلب حلّها من غيري ويعلّق قلبه إلى سواي؟ في حين هؤلاء ليس لهم دور في إيجادها، وقطعاً لا يملكون القدرة على رفعها: أيأمل غيري في الشدائد والشدائد بيدي؟ ويرجو غيري ويقرع بالفكر باب غيري؟ وبيدي مفاتيح الأبواب وهي مغلقة وبابي مفتوح لمن دعاني؟ فمن ذا الذي أمّلني لنوائبه فقطّعتُه دونها؟ ومن ذا الذي رجاني لعظيمةٍ فقطّعتُ رجاءَه مني؟.

جعلت آمال عبادي عندي محفوظةً فلم يرضوا بحفظي وملأتُ سماواتي ممّن لا يملُّ من تسبيحي وأمرتُهُم أن لا يغلقوا الأبواب بيني وبين عبادي، فلم يثقوا بقولي، ألم يعلم [أنَّ] من طرقته نائبة أنه لا يملك كشفها أحد غيري إلا من بعد إذني»؟

يقول سبحانه في قرآنه المجيد: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ...﴾[1].

---

(١) سورة يونس، الآية ١٠٧.

«فما لي أراه لاهياً عني؟ أعطيتهُ بجودي ما لم يسألني ثم انتزعتهُ فلم يسألني ردّه وسأل غيري، أفيراني أبدأ بالعطاء قبل المسألة ثم أُسألُ فلا أجيب سائلي؟ أبخيلٌ أنا فيبخّلني عبدي؟ أوليس الجود والكرم لي؟ اوليس العفو والرحمةُ بيدي؟ اوليس أنا محلّ الآمال؟ فمن يقطعها دوني؟

أفلا يخشىٰ المؤمّلون أن يؤمّلوا غيري؟ فلو أن أهل سماواتي وأهل أرضي أمّلوا جميعاً ثم اعطيتُ كلّ واحدٍ منهم ما أمّل الجميع ما انتقص من ملكي مثل عضو ذرة، وكيف ينقص ملكٌ أنا قيّمُهُ؟

ويقول الله سبحانه: إذا أعطيت الناس كل ما يسألوا لشخصٍ واحد لا ينقص من ملكي ذرة، وطبيعي كل هـذه العـطايا ليست صعبـة عليه وكل ذلك يوجدهُ بإشارة واحدة.

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1].

فيا بؤساً للقانطين من رحمتي ويا بؤساً لمن عصاني ولم يراقبني»[2].

فالله الذي عنده هكذا ملك وهكذا عظمة، كيف يتجرأ العباد على مخالفته؟ وتعتبر الرواية واحدة من الروايات التي توبّخ الاعتماد على الغير والاتكال عليهم وهذه الصفة تخالف خصيصة روح التوحيد. من ناحية أخرى تعتبر مسألة «الاعتماد على النفس» صفة جيدة وممدوحة وفي علم النفس تعتبر صفة إيجابية، وأعطيت لها أهمية فائقة، وقد كتب فيها كتب كثيرة وشجعوا الآخرين في أن يوجدوا هذه الصفة عندهم، وفي المقابل أخذوا يعون أضرار الاعتماد على الآخرين حتى لو كان الاتكال على النفس من الناحية العقلية ممدوحاً وحسناً، إلا أنه من ناحية التوحيد مذموم، لأن كل ما نملك يعتبر عارية والمالك الأصلي هو الله سبحانه.

---

(١) سورة يس، الآية ٨٢.

(٢) أصول الكافي، ج٢ ص ٦ (باب التفويض إلى الله والتوكل عليه).

إذا أودع شخص ما عندنا شيئاً بعنوان أمانة، كيف نعتمد عليه في حين أننا لا نعلم إن كان صاحب الأمانة سيبقى واضعاً أمانته عندنا، أم لا؟

إذن يجب أن يكون الاعتماد على الله فقط.

﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾[1].

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾[2].

هل الله سبحانه لا يكفي عبده حتى يذهب إلى الآخرين؟ إذن فلو اعتقدنا بالله وعرفنا الله بعنوان الرب والمالك وصاحب الاختيار، والذي يُعتبر كل شيء في الحياة والكون بيد قدرته؛ عندها لا يصح أن نذهب إلى الآخرين.

هذا وينقل أحد أساتذتنا قصةً بهذا المضمون:

جلس طفل أحد جيراننا عند باب بيته فجاءه فقير وقال له: اذهب واجلب لي من أمك مقداراً من الخبز فأجابه اذهب وخذ الخبز من أمك (كأنما الطفل يعلم بأن كل من كان عنده أم، فهي التي تلبي حوائجه، ويجب أن يطلب منها ما يريد).

فالأستاذ يقول: إذا كانت معرفتنا بالله بمقدار معرفة ذاك الطفل بأمه، أي عندما يحتاج الأنسان إلى أي شيء، فيجب أن يذهب إلى أمه ويأخذ منها ذلك الشيء وأن الأم هي التي تلبّي احتياجات الإنسان كلها حتى لا نذهب ونطلب من الآخرين أي شيء، وعندما كان الله أرحم من الآخرين وأقواهم فلماذا نذهب إلى الآخرين؟

---

(١) سورة الطلاق، الآية ٣.

(٢) سورة الزمر، الآية ٣٦.

التوكل من لوازم الإيمان بالله

في بداية تعاليم كثير من الأنبياء ـ تطرح هذه المسألة بأن آمنوا بالله وعليه توكلوا، وعلاقة الإيمان بالله هي التوكل عليه، إذا كان الأنسان يعتقد بالله ويؤمن بأن الكون كله بيد قدرته وحكومته، وهو الرب الوحيد الذي يستحق العبادة لا يجيز لنفسه إطلاقاً أن يذهب إلى سواه ويطلب من غيره، بل عليه وعلى الدوام أن يكون معتمداً عليه ويطلب منه: فإذا كان حريصاً عليه أن يطلب الشفاء منه، وإذا كانت عنده مشكلة أو حاجة فعليه أن يطلب حاجته ويأمل في رفعها منه فقط.

هذا ويعتبر القرآن الكريم في عدّة موارد مسألة التوكل على الله من صفات المؤمنين فيقول:

﴿. . . وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[1].

المؤمنون وبسبب التوكل والاعتماد على الله فإنهم سائرون في تقوية الارتباط بينهم وبينه حتى يصلوا إلى الكمال النهائي؛ لأن حصول الكمال الروحي والمعنوي لا يحصل إلا عن طريق الحب والعشق الإلهي والتوكل عليه سبحانه.

القطرة الصغيرة بسبب الاعتماد على الله والعشق والحب له تصل عن طريق الشمس إلى الكمال الأزلي وتكون هذه القطرة الحقيرة باتصالها بالبحر اللامتناهي كالبحر ولا فرق بينها وبينه.

يقول الحافظ الشيرازي:

---

(١) سورة آل عمران، الآية ١٢٢.

أنت لست أقل من الذرة لا تكن حقيراً بل تحرك (وحب)
لكي تصل بحركتك إلى خلوة الشمس
أنا كالذرة حتى لو كنت صغيراً ولكن باتصالي بالحبيب
لأني كنت أحبه وصلت إليه

التوكل ولزوم العمل والجدية والنشاط

معنى التوكل ليس أن يجلس الإنسان بالمسجد ويعتكف فيه ويبقى يعبد الله ليل نهار، ويترك العمل بأمل أن يرزقه الله، فمن دون شك فإن مثل هؤلاء ينحرفون عن الطريق وما عرفوا المفهوم الحقيقي للتوكل كما جاءت الرواية التي تقول:

رأى رسول الله ﷺ قوماً لا يزرعون قال من أنتم؟ قالوا: نحن المتوكِّلون قال: لا بل المتوكِّلون.

أساساً من أضحىٰ عنده معرفة بالله يعلم بأن بمقتضى الحكمة الإلهية أن الأمور تتحقق بواسطة الأسباب، ففي بعض الأوقات تكون الأسباب مادية وطبيعية وبعض الأحيان تكون معنوية، ولعلها تكون غير عادية وخارقة للعادة. على أي حال تقتضي الحكمة الإلهية في أن كل أمر لا يتحقق إلا بواسطة أسبابه[١].

لذا فإن العلم والمعرفة بالله وحكمته يوجبان المعرفة بقانون حكمته وهو نظام العلل والأسباب وأخيراً يعتبر التكامل الإنساني متعلقاً بهذا القانون والنظام، وبواسطته يكون البشر في امتحان وإلا فالإنسان لا يتكامل، لأن التكامل الإنساني يتعلق بالعمل بواجبات الإطاعة وهو يطرح بالروابط الإنسانية وهذه الروابط تندرج تحت نظام العلل والأسباب، وإذا اختار الإنسان الانزواء وانشغل بالعبادة فقط وترك ممارسة حياته العادية والسعي والعمل فقد عمل على خلاف الحكمة الإلهية، وفي هذه الصورة عليه أن لا يتوقع الرزق من جانب الباري عز وجل تعالى شأنه.

---

(١) أبى الله أن لا تجري الأمور إلا بأسبابها (المترجم).

يقول مولوي:

إذا توكلت في العمل توكل

ازرع ثم على الجبار توكل

إذن تقتضي الحكمة الإلهية بأن على الإنسان في مسير حصوله على احتياجاته أن يستفيد من الأسباب إذا كان حصول الرزق من الله، بقول كلمة: يا الله والرزق يحصل بعد ذلك وعندها لا تشاهد شخصاً يسعىٰ وراء الرزق، وإن البشر بهذه الصورة لا يمتحنون، وهذه المشاكل هي التي تضع الناس موضع اختبار حيث ينجح البعض ويفشل البعض الآخر. إذا كان في كل مرحلة، يعين واجب لكل شخص ففي تلك الصورة يجب أن يسعىٰ وراء الأسباب والعلل، فإذا ما جاع عليه أن يعمل وفي أثناء العمل تطرح أمور مثل قوانين العمل بين العامل وأرباب العمل، التصرف بأموال الآخرين، الظلم، الظالم والمظلوم، المحروم والمستضعف والجبار والمستكبر.

إذا كان كل واحد يصلّي ركعتين وبعد الصلاة توضع أمامه أغذية من الجنّة، لا يبقى مجال للامتحان، وكل الناس يصبحون صالحين، في ذلك الحين لا يُعرف المطيعون من العصاة، ولا يعرف من هو مستعد أن يتحمل الصعاب في طاعة الله ومن يستغل أتعاب الآخرين.

طبعاً في بعض الأحيان تقتضي الحكمة أن تكون وراء (نظام الأسباب والعلل) أن يقع أمر خارق للعادة كما وقع للسيدة مريم عليها السلام.

﴿... كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾(١).

وقع هذا الأمر على أساس الحكمة الإلهية وأيضاً لأجل أن يبين الله لطفه لأوليائه، ولكي يتعظ الآخرون ويمتحن من شمله اللطف هل يُقَدِّر هذه النعمة أم

---

(١) سورة آل عمران، الآية ٣٧.

لا؟ فإذا ما استثنينا الأمور النادرة والقليلة في أكثر الموارد عندها تقتضي الحكمة الإلهية أن تجري الأمور على أساس الأسباب العادية والطبيعية، فإذا قال شخص أنا أريد الاستثناءات ولا أريد أن أصل إلى هدفي عن طريق الأسباب الطبيعية والعادية فإن إرادة هذا الشخص تعتبر مخالفة لإرادة الله، وإنّ إرادته تسير على خلاف إرادة الله، فإذا كان إنساناً صالحاً يجب أن يكون عمله وعبادته مرضية لله، إذا كان الله قد اختار هذا النظام فكيف يسأل الله أن يعمل له على خلاف هذا النظام؟ كأنما يتصور علمه أكثر من علم الله إذا أراد الله أن يرزقك عن طريق فلان، وأنت تقول لا ليس عن طريق آخر، بل ارزقني من لدنك؟ حيث يعتبر هذا تكاسلاً ليس إلاّ، وطلباً يخالف الحكمة الإلهية. إذاً يقال: يجب الاستفادة من الأسباب من أجل الوصول إلى الهدف فهذا لا يعني أن رزقك يؤمّن ويصل الأرض بواسطة الخباز، بل كل هذا من الله وتدبيره بيده، والرزق أيضاً بيده ولكن يجب عليك أن تسعىٰ وراء الأسباب لكي تتحقق هذه الأهداف الإلهية في نظام العالم. وتلك الأهداف هي من أجل التكامل الإنساني للبشر، إذن لا يغفل المتوكل عن السعي والعمل ولكن الفرق بينهما حيث لا يعتبر مثل هؤلاء من أجل التوكل، ولكن الفرق بينهما يتمثل في المسألة القلبية لهما:

المتوكل يسعى والدافع له إطاعةُ أمر الله، والاعتماد عليه والاتكال عليه.

أما الإنسان غير الموحد وغير المتوكل فيرى رزقه في سعيه أو في يد الآخرين الذين يمنحونه حقوقاً ما. أما المتوكل فلا يأمل إلا الله وحتى إذا انقطعت عنه كل السبل فهذا لا يقلل من أمله قيد أنمُلة.

إن مضمون بعض الروايات هكذا: بأن المؤمن أكثر إيماناً بما عند الله، لأنه يشعر بأن ماله ربما يضيع أو يسرق ولكن الموجود في خزانة الله باق.

النبي ابراهيم الخليل عليه السلام واعتماده على الله

لم يغفل أحد من عباد الله الصالحين عن الاعتماد على الله والتوكل عليه لحظة واحدة ويمكن أن يكون يقيناً أفضل أسوة لكل عباد الله هو النبي ابراهيم خليل الله عليه السلام فعندما أراد المشركون حرقَهُ والقضاء عليه تجده قد اعتمد على الله فقط وطلب منه وحده أن ينجّيه من النار كما قال القرآن الكريم ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾[1].

يقول المرحوم الطبرسي في تفسيره إن الناس أخذوا يجمعون الحطب فإذا تمرض شخص يقول لأهله: لا تقصروا في جمع الحطب، وكانوا يوصون بمقدار من مالهم في أن يصرف في شراء الحطب لحرق ابراهيم الخليل عليه السلام وحتى بعض النساء اللواتي كن يعملن في الغزل فقد كن يبتعن الحطب من أجرة ذلك لحرق ابراهيم إرضاء لآلهتهن، وأخيراً تجمع حطب كثير، واشتعلت النار وأصبح لا يمكن الاقتراب من تلك النار التي جمع لها ذلك الكم الهائل من الحطب فاضطروا أن يستخدموا المنجنيق لرمي النبي ابراهيم عليه السلام وأصعدوه ورموه فوقها.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: لما أجلس ابراهيم بالمنجنيق، وأرادوا أن يرموا به في النار أتاه جبرائيل فقال: السلام عليك يا ابراهيم ورحمة الله وبركاته ألك حاجة؟

فأجابه ابراهيم: أما إليك فلا[2].

---

(١) سورة الأنبياء، الآية ٦٨.

(٢) مجمع البيان ج٤ ص ٥٥.

فقال جبرائيل: فاسأل ربك.

فقال: حسبي من سؤالي علمهُ بحالي[1].

وعندما رموه في النار قال: «يا الله يا واحد يا أحد يا صمد يا من لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد[2].

﴿ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾.

إذن من اختار الله ليكون اعتماده فإن الله ينجيه من الشدائد والمصائب على الرغم من عدم تصديق الأعداء ويهبه الرفاهية والراحة.

---

(١) مجمع البيان ج١٤ ص ٣٣٦.

(٢) مجمع البيان ج٤ ص ٥٦.

الدرس الثاني

منزلة التوكل والرضا بالقضاء الإلهي

المصلحة الإلهية للإنسان

منزلة التوكل والرضا بالقضاء الإلهي

«ليس شيءٌ عندي أفضل من التوكل عليّ والرضا بما قسمت».

تحدثنا في الدرس الأول حول أهمية التوكل بصورة مفصلة، وسنتناول في هذا الدرس فقرةً ثانيةً عن حديث المعراج. لله سبحانه وتعالى تقديرات لعباده تكون في بعض الإحيان موافقة لرضاهم، حيث يفرحون بها وتكون في بعض الإحيان منافية لرضاهم حيث يريد الله من العباد أن يرضوا بما قدّر وقضىٰ لهم وأن يسلّموا لذلك ويقدموا رضاه على رضاهم ويتعلق بعض من هذه التقديرات بالأمور التشريعية وبعضها بالأمور التكوينية.

ففيما يتعلق بالأمور التشريعية يكون كل الناس موظفين وملزمين بإيتاء الواجبات وترك المحرمات وهذا هو الرضا بالتقديرات التشريعية الإلهية.

طبعاً تكون مسألة الإيتاء بالواجبات «والعمل وفقاً بالأوامر الإلهية» وترك المحرمات هي أدنى درجات التقوى، وبمعنى تقديم الرضا الإلهي «على رضا النفس»، ولكن نرى البعض لديهم حتى في هذه المسألة إكراهاً وعدم رغبة في ذلك، إلا أنَّ أولياء الله وبسبب الإطاعة والعبودية لله قد بلغوا مقامات مراتب أضحوا بموجبها يتلذّذون في العبادات وترك المحرمات.

أما فيما يتعلق بالأمور التكوينية فعليهم أن يرضوا بما قدّر الله لهم سواء أكانت تلك الواقعة محزنة أم مفرحة، وكما جاء في الرواية التي تشير إلى هذا المعنى:

«ليس شيءٌ عندي أفضل من التوكل عليّ والرضا بما قسمت».

لا شك أنه لا يقع كل شيء بأيدينا، فهذا الكلام الذي نتصوره يقع تحت

إرادتنا وفي اختيارنا، وذلك لأن الكلام يستلزم أن يكون لدينا لسان، فم، رئة، حنجرة، أوتار صوتية، هواء و. . . الخ. ولا تقع كل هذه تحت اختيارنا لأنه لو عرضت عليها عارضة واختلت لم يعد باستطاعة الإنسان التحدث، إذن فحتى في أيسر الأمور الاختيارية مثل التكلم يقع تحت اختيار الإنسـان بحيث إنه يتحدث متى شاء ويلزم الصمت متى شاء، ومن هنا تكون هذه بحاجة إلى أسباب وشرائط خارجة عن إرادتنا (حتى أن بعض الناس شرعوا بالكلام ولم يستطيعوا إتمامه أو ماتوا في أثنائه أو منعهم مانع)، فكيف بالأمور التي لا تكون غير إرادية تماماً بالنسبة إلينا مثل الزلازل والأمراض فهذه لا يكون للإنسان فيها اختيار وإرادة في وقوعها فهي كلها من المقدرات الإلهية. صحيح أن هنالك عوامل طبيعية أو بشرية لها دور هام في وقوع الواقعة لكن لا يعني هذا بأن الله تعالى مغلوب على أمره، ووقع خلافاً لإرادته بحيث يكون للعوامل الطبيعية فقط سبب في حدوث ووقوع الواقعة، لا يقع شيء في ملك الله خلافاً لإرادته، حتى لو وقع في هذا النظام أمور غير مرضية. ابتدع الله هذا النظام واعتبره نظاماً مضبوطاً، ويُعبِّر أهل الفلسفة عنه بالنظام الأحسن، إذ تعتبر إرادة الله مؤثرة في العالم ولم يجعل الله الأسباب والعوامل حرّة في عملها وتأثيراتها، بل يقع في هذه التأثرات حكمة، وأهمها مسألة الامتحان حيث يمتحن الناس بالحوادث المؤلمة، لكي يتضح أي عمل يصدر منهم. ويرتبط بعض من هذه الامتحانات بالمرحلة الأولى من الإيمان حتى يتضح ما إذا كان الإنسان في مقابل الحوادث الصعبة يتبع الأحكام الإلهية أو يخالفها بالعصيان. إنَّ هذه المرتبة الأولى للامتحان والتي ترتبط وتشمل أكثر العبادة، وهنالك امتحان خاص بالأولياء فيما إذا كانوا يشكون من الله عندما تصيبهم الحوادث والمصائب الصعبة، أم يتحملونها ولا يتكلمون عنها، وهذا هو مقام الصبر، والأهم منه هو مقام الرضا، ويعني بأن أهل الدنيا يتحملون الآلام والمصائب والمصاعب؛ وذلك لأنها واردة من قبل الله تعالى؛ ولذلك فهم يرضون بها، وتعتبر هذه أعلى مرتبة للإيمان؛ وذلك عندما يتقبل الإنسان

التقديرات الإلهية بكل رحابة صدر ويرضىٰ بها، ويؤمن بأنها باب من أبواب الحكمة.

ومن البديهي أنه كلما كان إيمان الشخص ومعرفته أكبر يكون رضاؤه بالقضاء والقدر الإلهي أكبر.

إذن إن من أهم مراتب الإيمان هي أن يكون الإنسان راضياً بالتقديرات الإلهية حتى لو لم تكن مفرحة فيصبر عليها ويتحملها، لذلك فإن الله سبحانه يقول: أحب الأعمال إليّ التوكل علي وبعدها الرضا بما قدّرت، وهذا بمعنى أنّ الرضا أفضل من التوكل: فإن التوكل يعني أن يطلب الإنسان المساعدة من الله ويعتمد عليه، وهذه هي الاستعانة بالله.

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾.

أما المقام الثاني فهو أن نرضى ونفرح بفعل الله لا أن نسعى ونتمنى أن يقع شيء آخر.

كما قلنا وكل ما أوردناه لا يعني بأن نترك السعي بل يعدُّ السعي أحد عوامل التقدير الإلهي، والقصد منه أن نرضى بما وقع بلا فرق، سواء أكان سعينا له دور في وقوعه أو هنالك عوامل أخرى كانت السبب في وقوعه ويحصل هذا المعنى عندما يكون الإنسان عالماً بأن كل حادثة تقع فوراءها حكمةٌ وفلسفة.

المصلحة الإلهية للإنسان

جاء في الحديث القدسي، الله يخاطب النبي موسى عليه السلام قائلاً:

(يا موسى ما خلقت خلقاً أحب إليّ من عبدي المؤمن، وإني إنما ابتليته لما هو خيرٌ له واعاقبه لما هو خيرٌ له، وأنا أعلم بما يصلح عبدي).

بطبيعة الحال إذا أحببنا شخصاً لا نرضى أن تصيبه المشاكل والأحزان فإذا ما ابتلىٰ الله عبده بالمصائب والمشاكل فلا تعتبر أنها قد نزلت من جهة العداوة، بل لأن خير العبد وصلاحه يقع في هذه المصائب والمشاكل فإذا ما منعت الأم التي مرض ابنها من بعض الأكلات أو أشربته دواءً مراً فلا يعتبر هذا الأمر القصد من ورائه العداوة بل إن عملها يعتبر نابعاً من الحب الذي تكنه له، والله سبحانه كذلك.

يقول الشاعر:

الأم تقــول يــا نــور عينــيّ إذا غضبـتُ ورأيـت أنـت عصبيتـي
فهـذا الغضـب أفضـل مـن الحنـان غضبــي وشــدتــي لأنــي أم

«فليصبر على بلائي وليشكر نعمائي وليرضى بقضائي أكتبه في الصديقين عندي...».

وأخيراً يقول: «إذا عمل برضائي وأطاع أمري...»(١).

يقول الإمام الخميني رضوان الله تعالى عليه في عدة موارد ومرات: يجب علينا أن نعمل بواجبنا وتكليفنا، وما سيقع فلسنا مسؤولين عنه، لأن العالَم له مدبّر ويجب أن نرضى بالتدبير الإلهي وقضائه.

---

(١) بحار الأنوار ج٧١ ص ١٣٩.

وفي رواية أخرى يسأل النبي موسى ربه ويقول: «اي رب أي خلقك أحب إليك؟ قال من إذا أخذتُ حبيبه سالمني...».

فعندما يفقد البعض حبيباً يشتكون من الله ولا يرضون بهذا الأمر، لأنهم لا يودون مفارقة حبيبهم فهؤلاء ليسوا أحباء الله.

ويقول النبي يوسف عليه السلام:

«فأيُّ خلقك أنت عبد ساخط؟ قال: من يستخيرني بالأمر فإذا قضيت له سخط قضائي»[1].

فعندما نعتمد على الله ونتوكل عليه ونطلب منه أن يعمل ما بصالحنا فإذا ما حصلت مشكلة أو مرض فلا نحزن ونعاتب، لأن في ذلك الخير والصلاح لنا. إذن فالإنسان الموحّد يتوكل على الله ويطلب منه مساعدته ويصبر في الشدائد والمصائب ويعتقد بأن تدبير الأمور بيد الله سبحانه.

يقول الله عز وجل: «من لم يرضَ بقضائي ولم يشكر لنعمائي ولم يصبر على بلائي فليتخذ رباً سوائي»[2].

قال النبي صلى الله عليه وآله:

«قال الله عز وجل: إنّ من عبادي المؤمنين عباداً لا يصلح لهم أمر دينهم إلا بالغنىٰ والسعة والصحة في البدن فأبلوهم بالغنىٰ والسعة وصحة البدن فيصلح عليهم أمر دينهم...».

فالامتحان ليس محفوفاً دائماً بالمكاره والصعوبات بل يكون محفوفاً بالنعم أحياناً والتي تكون وسيلةً للامتحان، والله سبحانه يهيّيء تلك النعم لعباده لينظر هل يؤدُّون ما عليهم من واجبات أم لا؟

---

(١) بحار الأنوار ج٨٢ ص ٩٠.
(٢) بحار الأنوار ج٥ ص ٩٥.

«وإنَّ من عبادي المؤمنين لعباداً لا يصلح لهم أمر دينهم إلا بالفاقة والمسكنة والسقم في أبدانهم فأبلوهم بالفاقة والمسكنة والسقم فيصلح عليهم أمر دينهم وأنا أعلم بما يصلح عليه أمر دين عبادي المؤمنين».

كل ذلك فيما إذا كان الإنسـان مؤمناً ويفوض أمره إلى الله، وعند ذلك يكفيه الله ويعطيه ما هو خير له، فإذا كان الخـير بالغنىٰ أغنـاه، وإذا كان صلاحه في الفقر والفاقة والمشاكل ابتلاه. وفي هذه الحالة مهما بذل الإنسان من جهدٍ وسعيٍ فلا يحصل على شيء ويصبح يوماً بعد آخر أفقر، لأن طلب صلاحه وخيره من الله وخيره وصلاحه يكمن في الفقر والفاقة، وفي الحقيقة إن الله سبحانه قد استجاب دعاءه.

أؤكّد أن على الإنسان أن لا يبقى مكتوف الأيدي ولا يسعى ويطلب من الله التوفيق لما فيه الخير والصلاح له، لذلك فإن العمل بالواجب شيء وتفويض الأمر لله شيء آخر، والمقصود من كلامنا هو أن الإنسان يجب أن يرضى بقدر الله وقضائه بالرغم من أنه يجب على كل شخص أن يسعىٰ لكي يتمكن من تسيير أمور حياته وعائلته، ويسعىٰ أيضاً لأن يحافظ على بدنه دائماً لكي لا يمرض. يهتم البعض ويراعي التعاليم التي تؤدي إلى سلامة البدن، ومع ذلك فإنه يبتلى بأمراض عديدة، والبعض لا يهتم بتلك التعاليم ويبقىٰ سالماً لأن الله سبحانه وضع لهؤلاء أسباباً أخرى خارجة عن إرادة الآخرين.

إذن فليس كل ما أردناه وسعينا من أجله يحصل لنا، فلعل هنالك أموراً تقع على خلاف ميولنا وإرادتنا ولكن يجب أن لا نحزن ونخاطب الله ونعاتبه على ذلك ونتيجة لهذه الحالة فإن الإنسان لا يحزن على أي أمر يقع في الحياة، وعليه أن يبقى دائماً راضياً ومسروراً ويعمل بواجبه ويعبد الله ويرضى بكل ما يقع.

أما الذين لم يبلغوا مقام الرضا تراهم يصابون بالكآبة والعصبية أمام المشاكل والصعوبات التي تصيبهم والتي هي من الله سبحانه. وجاء في تكملة الرواية:

«وإنَّ من عبادي المؤمنين لمن يجتهد في عبادتي فيقوم من رقاده ولذيذ وساده فيتهجَّد لي الليالي فيُتعبُ نفسه في عبادتي فأضربُهُ بالنعاس الليلة والليلتين نظراً مني له وإبقاءً عليه فينام حتى يصبح فيقوم وهو ماقت لنفسه زارٍ عليها، ولو أخلّي بينه وبين ما يريد من عبادتي لدخله العُجُب من ذلك...».

ومن أجل أن لا يأخذنا العجب والغرور ونفهم بأنه ليس كل الأمور واقعة بأيدينا وتحت اختيارنا، فحتى التوفيق للعبادة هو من جانب الله سبحانه وتعالىٰ حيث يبتلينا بعض الأحيان بالنعاس لكي لا نغتر بأداء ركعتين من الصلاة حينما نصليهما.

«فيصيِّره العجب إلى الفتنة بأعماله فيأتيه من ذلك ما فيه هلاكُهُ لعجبهِ بأعماله ورضاه عن نفسه حتى يظن أنه قد فاق العابدين وجاز في عبادته حد التقصير فيتباعد من عند ذلك وهو يظن أنه يتقرّب إليَّ فلا يتكل العاملون على أعمالهم التي يعملونها لثواب فإنهم لو اجتهدوا وأتعبوا أنفسهم وأفنوا أعمارهم في عبادتي كانوا مقصرين غير بالغين في عبادتهم كُنهَ عبادتي فيما يطلبون عندي من كرامتي لهم والنعيم في جناتي ورفيع درجاتي العلىٰ في جواري ولكن فبرحمتي فليثقوا وبفضلي فليفرحوا وإلى حسن الظن بي فليطمئنوا فإن رحمتي عند ذلك تداركهم ومني يبلغهم رضواني، ومغفرتي تلبسهم عفوي فإني أنا الله الرحمن الرحيم وبذلك تسميت»(١).

والخلاصة فإنه يجب على الإنسان أن يكون له أملٌ بالله، وأن يعتمد في سيره التكاملي على الله ولطفه وعنايته، وفي نفس الوقت عليه أن يعمل بواجبه ولا يترك السعي، وأن لا يعتمد على أعماله، لأن أعمالنا لا تساوي الأجر والنعم الإلهية التي أسبغها الله علينا، وإذا ما أردنا أن نحسب أعمالنا فسوف نعرف بأننا

---

(١) بحار الأنوار ج٧٢ ص ٣٢٧.

ومع هذه الأعمال لا نستحق شيئاً وإنما شملتنا الرحمة واللطف الإلهي، فإذا ما عبدنا الله، فهو شكر النعمة وعندما نقول شيئاً بألستنا فاللسان وقدرة التكلم هي من عنايته سبحانه، إذن فما عندنا هو منّة من الله، وإذا عملنا أفضل الأعمال، وفي أحسن الفرص فعند الحساب نخرج مديونين.

في الواقع يجب ألا نتوقّع الأجر أو الوصول إلى المقامات العالية للأنبياء والأولياء، لأنهم وصلوا إلى تلك المقامات العالية باليقين والاعتماد على الله وحسن الظن به.

الدرس الثالث

الحب الإلهي وكيفية الوصول إليه

طريق الوصول إلى الحب الإلهي

الحب الإلهي وكيفية الوصول إليه

«يا محمد وجبت محبتي للمتحابين فيّ ووجبت محبتي للمتقاطعين فيّ[1] ووجبت محبتي للمتواصلين فيّ ووجبت محبتي للمتوكلين عليّ، وليس لمحبتي عَلَمٌ ولا نهاية وكلما رفعت لهم عَلَماً وضعت لهم علماً...».

يخاطب الله سبحانه رسوله ويقول: محبتي تجب على أربع شرائح من الناس، (هذا الوجوب ليس وجوباً تكليفياً يُثبت وبشكل قطعي الحب الإلهي).

القسم الأول: هم الذين يحبون البعض من أجلي.

القسم الثاني: هم الذين قطعوا من أجلي علاقتهم بأعدائي، وبعبارة أخرى فإذا ما حدث ارتباط بينهم وبين أعداء الله وذلك عن طريق هوى النفس، ومخالفة الرب فهم من أجل العشق الإلهي قد تركوا الاتصال بهؤلاء وقطعوا علاقتهم بهم.

القسم الثالث: هم الذين من أجلي صار بينهم علاقة وصداقة، (وإذا كان بينهم أحياناً كدورة نسوا ذلك، وحاولوا توثيق العلاقة وتأصيل الصداقة فيما بينهم).

القسم الرابع: هم الذين توكلوا عليّ.

إنه من الواضح أن الله سبحانه يحرض الناس ليقوموا بأعمال تسعدهم وتقربهم إليه. وبالطبع يندفع لهذه الأعمال من كانت عنده محبة لله سبحانه لا الغافل واللامبالي والمستخف. إن الإنسان الذي حصل عنده الحب الإلهي واقعاً، ومحبة الله، فهما يعتبران عنده أثمن وأغلى من الشخص الضال في الصحراء، الفاقد للزاد والراحلة والمشرف على الموت، والمحتاج الذي هو أحوج ما يكون إلى من يقدّم له الرغيف والماء وينقذه من الحيرة والضلالة، لأن الشخص

(١) في نسخة إرشاد القلوب للديلمي (باب ٥٤) «المتعاطفين».

المشرف على الموت والفاقد للحياة الدنيا الفانية، والذي يحدوه الأمل في أن يعيش أياماً معدودةً أكثر يريد أن يعرف الطريقة حتى يعيش فيها أياماً أطول في هذه الحياة، فإن هذا لا يقاس أصلاً بقيمة وأهمية المحبة الإلهية لعبده والتي تعتبر مفيدة للإنسان ومثمرة ومؤثرة وخالدة. من الواضح جداً بأن الإنسان يسعىٰ في هذه الدنيا لأن يكون محبوباً للآخرين. والحال هنا مختلفة طبعاً فإن أصحاب الهمم العالية يسعون جادين في أن يدخلوا في قلوب الناس ويجذبوا محبتهم وانتباههم، ولكن لا يكتفي أهل الآخرة بهذا النوع من المحبة، حيث تجدهم ساعين في جذب وكسب أي شخص بمحبتهم له أكثر من محبة كل الكون، تلك المحبة هي القيمة والاستحقاق والتي من أجلها ومن أجل الحصول عليها تراهم يضحون بكل شيء حتى بكل الدنيا، إلاّ أنه ومع الأسف فإن الذين يعرفون قيمة المحبة الإلهية قليلون، ومعرفة أهمية محبة الله تعتبر في حد ذاتها درجة من معرفة ذاته المقدسة، وعند معرفتنا لأقل من هذا الحد فلا نكون قد ارتكبنا الجهل المركّب. فالآن وإلى هذا الحد نكون قد أدركنا هذا المعنى حيث يجب أن نهتم ونسعىٰ للحصول على هذا الأمر القيم والعظيم، ونستخدم في هذا الطريق كل إمكاناتنا لكي توجد عندنا المحبة الإلهية بمعناها الواقعي.

وقد ورد في هذا الحديث: «وجبت محبتي للمتحابين فيّ» ومن هذا المنطلق فإن محبة البعض للبعض في الواقع هي بمثابة الحب في الله لأن الموالاة لأولياء الله هي نوع من إظهار المودة والمحبة لله، ومن الطبيعي أنه إذا ما تعلّقت المحبة بشخص أو بشيء سرت إلى متعلقاته، أي إذا ما تعلّق الإنسان بالله فإنه قد تعلق بالمقرّبين والمحبين وتعتبر هذه من الآثار التكوينية للمحبة لأنه لا يمكن أن يحب شخص شخصاً آخر ولا يهتم بآثاره ومتعلقاته. لهذا فإذا كانت لشخص ما محبة لله فإنه كلما كان التقرب إلى الله أكثر أحبه أكثر، ولهذا فإن مثل هؤلاء ابتداءً هم الذين يحبون النبي وأهل بيته أكثر، ثم يحبون الشيعة المقرّبين إلى الأئمة أكثر، والذين ساروا على دربهم وعملوا بأوامرهم.

طريق الوصول إلى المحبة الإلهية

إذا أحب الآخرون أي شخص على أساس الإيمان بالله، وأحب آخر من أجل عبوديته لله وبسبب التقوى والورع فعلى مثل هذا أن يتأمل الخير في نفسه، لأن محبة العباد وأحباء الله وسيلة توصل الإنسان إلى طريق الله وتمنعه عن ارتكاب الأمور التي تبعده عن الله وأوليائه. أضف إلى ذلك فإنه بعمله هذا يكون قد حصل على محبة الله وحصل على مراده وأمنيته، لأن أمنية كل محب هي أن يحصل على محبة محبوبه، لذا فإنك تجد الله سبحانه في قرآنه المجيد يتحدث عن تحصيل محبة الله أو كيفية صيرورة الإنسان محبوباً لله حيث يقول: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾[١] فمن كان جاداً في تحصيل محبة الله، فطريقه هو التمسك بطريق النبي ﷺ، حيث يجب أن يسير بسيرته حتى يكون كما هو حبيب الله، والله يحبه عن طريق السير في طريقه، ولكي نحصّل من ذاك الشعاع والنور الإلهي الذي أعطاه للنبي بواسطته لكي يصل إلينا نزر قليل منه، ويشع علينا كذلك، إذن فواحدة من أهم السبل لجلب محبة الله هي ارتباطنا الوثيق بالنبي ﷺ، لأنه هو الحبيب المطلق لله، ولا نبالغ إذا قلنا بأن كل المحبة الإلهية هي ظل لمحبة هذا المحبوب وذلك لأن كل الموجودات الإمكانية مجموعة في هذا الموجود الكامل، وطبيعي أن يكون مثل هذا الموجود أصلاً، ويكون بادىء ذي بدء مورد محبة الله وتوجهه سبحانه، ويجب أن يكون السعي لمحبة الآخرين على أساس ارتباطهم بالله سبحانه وتعالى. ويجب أن تكون معرفة الأشخاص الذين لديهم ارتباط قوي بالله وبرسوله وعن طريق الارتباط بهم لكي تتحقق المحبة الإلهية. ومن ناحية أخرى، يجب أن نخرج من قلوبنا المحبة والعلاقات الدنيوية التي تكون ملاكاتها وجاذبيتها قائمة على أساس هذه الحياة فقط، لأنه لو كانت محبتنا

---

(١) سورة آل عمران، الآية ٢٩.

للبعض على أساس الأمور الدنيوية ولذاتها فإن قلوبنا تمتلىء من سنخ المحبة الدنيوية ولم يبق مكان للمحبة الإلهية.

يبحث الإنسان وبشكل طبيعي عن الكمال ويحبه، ولكن إذا انتبه واتجه إلى شيء أكمل فإنه يتركه شيئاً فشيئاً، ويخرج حب كل اولئك من قلبه. ومن أجل أن تكون المحبة الإلهية كائنةً في قلب الإنسان وتخرج المحبة الدنيوية من قلبه يجب عليه معرفة أن الكمال هو الله ويعلم أنه متبع ومبدأ كل الكمالات والكمالات اللامتناهية وكل جمال موجد للمحبة والعلاقة والكمال اللامتناهي موجود فيه.

من هنا فإن معرفتنا ابتداءً تحصل من الأمور المادية، ومنذ بداية خلقنا وشروع حياتنا وفي مسيرة ذلك نتعلق بالأمور المادية. قد اهتم الناس المعصومون من البداية بالأمور المعنوية وإن معرفتهم تعتبر خالية من اللون الدنيوي، إلا أنهم يعتبرون أناساً استثنائيين، إن نوع توجهنا الأولي هو الأمور المادية واللذائذ الدنيوية، ومن أجل ترك هذه الروحية والاتجاه إلى الأمور المعنوية والقيم الإلهية علينا أن نتوسل ونتمسك بأمور التقوىٰ ونقوّي ارتباطنا بالله سبحانه وتعالى.

إذن يجب أن تكون صداقتنا ومحبتنا للآخرين على أساس العشق والمحبة لله، وأن لا تكون المنافع الدنيوية شاغلنا ونغفل عن الهدف الأساس. من هنا يجب أن نقوي علاقتنا بأولياء الله، حتى نحصل على المبحة الإلهية لأن هناك ارتباطاً بين محبة الله ومحبة أوليائه، وإذا ما قويت أيّ منهما فإنها تؤثر على الأخرى، ولا يمكن الفصل بينهما أبداً، ويوجد بينهما دائماً ارتباط وثيق، لذلك يكون بينهما تأثير متقابل. يعني إذا ما ازدادت محبة الله تزداد المحبة لأولياء الله، وأيضاً إذا ما ازدادت محبة الإنسان بأولياء الله فقد ازدادت محبة الله.

ومن أجل تقريب المسألة إلى الذهن نأتي بهذا المثال:

إن محبة الله مثل الشجرة وجذورها، ومحبة أولياء الله مثل أغصان تلك الشجرة. فإذا قطعت الأغصان من الشجرة فإن تلك الشجرة تفقد التنفس وتجف

تدريجياً ومن ناحية أخرى إذا قطعت الجذور يصيب الأغصان اليبس، أما إذا استمدت الأغصان والأوراق الفائدة من الحرارة والنور والهواء فإنها تقوىٰ، وبالنتيجة فإن الشجرة تقوى، وأما الجذور إذا ما استفادت بدورها من المواد الغذائية الكائنة في الأرض فإنها تقوى وكذلك الأغصان والأوراق، وتوجد مثل هذه الرابطة المتقابلة بين المحبة لله ومحبة أوليائه أيضاً.

تفسر محبة أولياء الله أغصان وأوراق محبة الله إذا قوينا هذه المحبة تقوى محبتنا بالله (لأننا نتصل مع أولياء الله بحواسنا: نشاهدهم ونسمع أصواتهم وهم منا ومثلنا ونستطيع أن نفكر بهم أكثر لو ندخل معهم عن طريق المحبة، وعندها يكون الوصول إلى محبة الله أمراً يسيراً.

تفيد التجربة بأنه عندما تذكر فضائل وكمالات النبي الأكرم ﷺ والأئمة الأطهار عليهم السلام وعندما تذكر معجزاتهم ومقاماتهم الإلهية يتحرك حبهم عندنا بسرعة إلى أن نصل إلى ذكر صفات وكمال الباري عز وجل، حتى يصل الأمر بنا أن يقول البعض منا: محبة الله لا معنى لها والبعض من السذّج صدّقوا ذلك بأن المحبة لا تتعلّق بالله، لأنهم رأوا بأن ذكر صفات وكمالات الله لم يخلق عندهم الشوق، ولكن الحقيقة غير ذلك وتكمن في أن محبة أولياء الله تخلق الشوق عندنا بصورةٍ أسرع وأنهم منا، وأناس مثلنا وتقريباً في أفق فهمنا وإدراكنا، على الرغم من أن المقامات والمراتب العالية لأولياء الله لا يمكن قياسها مع الأناس العاديين.
إذن الطريق الأفضل والأسهل لحب الله يكون في محبة أولياء الله ومرافقتهم، وكلما ازدادت علاقتنا ومحبتنا بهم ازدادت محبتنا لله أكثر وذلك لأنهم أولياء الله، ونحبهم من أجل المقام والثروة والأمور الدنيوية. وقد وردت في أصول الكافي رواية عن السجاد عليه السلام قال: «إذا جمع الله عز وجل الأولين والآخرين قام منادٍ فنادى يُسمع الناس فيقول: أين المتحابون في الله قال: فيقوم عُنُقٌ من الناس فيقال لهم اذهبوا إلى الجنة بغير حساب قال: فتلقاهم الملائكة فيقولون إلى أين؟

فيقولون: إلى الجنة بغير حساب قال: فيقولون فأيُّ صنف أنتم من الناس؟ فيقولون: نحن المتحابون في الله قال: فيقولون وأيُّ شيء كانت أعمالكم؟ قالوا: كنا نحبُّ في الله ونبغض في الله قال: فيقولون نِعم أجر العاملين.

وليس لمحبتي علم ولا نهاية. وكلما وضعت لهم علماً رفعت لهم علماً»[1].

وسر هذا التعبير هو أنه: كانت الطرق في الماضي مليئة بالحوادث وخطرة لأنها تمر في أعماق الصحارى القفراء الواسعة لذلك كانوا يضعون علامات للعبور. وإذا ما هبت الريح تحركت الرمال وغطت الطرق فإنهم يهتدون عن طريق هذه العلامات إلى الطريق الأصلي، ويستمرون في سيرهم؛ لذلك فإنهم كلما مروا على علامة كانوا يحتاجون إلى علامة أخرى وذلك من أجل استمرار السير، وبدون هذه العلامات لا يمكن استمرار الحركة والنجاة من الحوادث المحتملة؛ لذلك فإن الله سبحانه وتعالى يقول: أنا معهم إلى آخر الطريق، ولم أحرمهم من هدايتي: كلما اجتازوا علامة وضعت لهم علامة أخرى لكي يستفيدوا من هدايتي وإرشادي ولا ينحرفوا عن السير.

---

(١) أصول الكافي (مع الترجمة) ج٣ (باب الحب في الله والبغض في الله) ص ١٩١.

الدرس الرابع

خصوصيات أولياء الله

نشاط وفرحة المؤمنين

رابطة ذكر الله والمحبة الإلهية

طريق تحصيل الزهد والورع

خصوصيات أولياء الله

«أولئك الذين نظروا إلى المخلوقين بنظري إليهم ولم يرفعوا الحوائج إلى الخلق. بطونهم خفيفة من أكل الحرام نعيمهم في الدنيا ذكري ومحبتي ورضائي عنهم.

يا أحمد، إن أحببتَ أن تكون أورع الناس فازهد في الدنيا وارغب في الآخرة. فقال: يا إلهي، كيف أزهد في الدنيا؟ فقال: خذ من الدنيا[1] من الطعام والشراب واللباس ولا تدخر لغد، ودُم على ذكري فقال: يا رب، كيف أدوم على ذكرك؟ فقال: بالخلْوة عن الناس وبغضِكَ الحلو والحامض وفراغ بطنِك وبيتِك من الدنيا.

يا أحمد، احذر أن تكون مثل الصَّبي إذا نظَرَ إلى الأخضر والأصفر حبَّهُ، وإذا أعطي شيئاً من الحلُو والحامض اغترَّ به. . .».

تعتبر محبة الإنسان بالآخرين من محبته لربه ولولا محبة الإنسان لربه وعشقه لا يستطيع أن يعتبر محبة الآخرين لله تتعلق في الأصل بربه حيث يحب في ظلالها كل من له ارتباط بالله، وعندما يرى أنه محب لله يحبهُ على أساس محبة الله إذاً ينظر مثل هكذا شخص إلى الناس كما ينظر الله إليهم، يعني كل ما كان عزيزاً عند الله يكون عزيزاً في نظره، وليس كذلك بأن الله يحب شخصاً على ملاك ومعيار، وهذا يحبهم على معيار آخر بل انه تصوّر واحد ومعيار واحد.

«. . . ولم يرفعوا الحوائج إلى الخلق. . .».

(١) بحار الأنوار ج٧٧ ص ٢١.

من الطبيعي بأن حياة الإنسان تعتبر مليئة بشتى الاحتياجات وكلما كانت ظرفية وجوده أكثر يكون احتياجه أكثر ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾(١) والله سبحانه هو الوجود الوحيد الذي بإمكانه رفع كل احتياجات البشر؛ لذا فإن أولياء الله دائماً ما يرفعون احتياجاتهم إلى الساحة المقدسة، وتقضى حوائجهم وذلك الاستمرار من قدرته اللامتناهية، وهو أملهم الوحيد لأن قلوبهم أصلاً لا تتعلق بغيره (ولا يعتمدون على غيره إطلاقاً).

إن واحدةً من فلسفة الدعاء ومسألة التأكيد عليه هي أن تقوى علاقة الإنسان بربه ويطلب منه احتياجه فقط، وكلما كانت العلاقة القلبية، الروحية والمعنوية أقوى، قلَّ الرابط في رفع الاحتياجات وحلّ المشاكل مع الآخرين حتى يصل الأمر إلى عدم طلبه شيئاً من غير الله، ونجد هذا المعنى مرسوماً في قصة ابراهيم الخليل عليه السلام وذلك عندما أرادوا أن يرموه في النار وجاءه جبرائيل سائلاً ألك حاجة؟ أجابه: «أما إليك فلا» وبعنوان مثالي وتقريبي للذهن، وإذا اعتمد عليك شخص في مشاكله وأمور حياته بحيث انه كلما حدثت عنده مشكلة راجعك أنت فقط، ولم يلجأ لأحد سواك. ونشأ بينك وبينه ارتباط وثيق، حتى تصل العلاقة إلى المحرمية والصميمية، فإذا راجعك في مشكلة، فإنك تحاول قدر الإمكان مساعدته وحل مشكلته، وتعتبر هذه الرابطة الإنسانية أضعف من رابطة الإنسان بالله والتي لا يمكن قياسها بالروابط الإنسانية، ولكن يمكن أن يوضح لنا هذا المثال شيئاً من المحبة الصميمية الإلهية مع الإنسان الذي اختار المرجع والملجأ له «. . . بطونهم خفيفة من أكل الحرام [من الحلال]. . »(٢).

صفة أخرى من صفات وخصائص أولياء الله الذين لم يتعلقوا بالدنيا ولذاتها الفانية، ولا يسرفون حتى في الحلال وإنما لرفع الاحتياج فقط، ولم

---

(١) سورة فاطر، الآية ١٥.

(٢) في بحار الأنوار ج٧٧ ص ٢٢ جاءت «من أكل الحلال ذكري ومحبتي ورضائي عنهم. . .».

يستفيدوا من لذات الدنيـا ونعيمها. فهم يستفيدون من النعم بمقدار ما يمكنهم من إيتاء الواجبات العبادية وخدمة الناس، لا لأجل اللذات، وطبعاً إذا أكل الإنسان أكثر من احتياجه فإن قوته توهن ويبتلى بالضعف والكسل والثقل.

نشاط وفرحة المؤمنين

إذا لم يستفد هؤلاء من نعم الدنيا المحللة كثيراً، إذن أين تكمن سلوتهم وفرحتهم؟

ألف ـ ذكر الله:

من الطبيعي أنه من كان محباً لله فإنه يذكره ويتلذذ بذكره ما دام الوصال لم يصل وهو بعيد عنه فإن كل فرحته وسروره تكف بانشغاله بذكره، كما تقرأ في دعاء السحر للسجاد عليه السلام: «بذكرك عاش قلبي»[1].

يعني كل حياتي وقلبي في ذكراك لولا ذكرك لمات قلبي لأنه ليس عنده فرحة وأمل غيرك.

نعم فالمؤمن حيّ القلب، ولكن فرحته وحياة قلبه متعلقة بذكر الله، لا بلذات الدنيا الفانية.

إذاً ورد في هذا الحديث كلمة «في الدنيا» لأنه في عالم الآخرة لا حاجة له إلى ذكره لأنه هناك عالم الحضور واللقاء، يصل الإنسان إلى لقائه وهذه الدنيا هي عالم الفرقة والانفصال وحتى يحصل لقاؤه فإن قلب المؤمن مشغول بذكره ويحصّل اللذة والفرحة من شعاع ذكره.

---

(١) بحار الأنوار ج٩٨ ص ٨٩ الرواية الثانية.

رابطة ذكر الله مع المحبة الإلهية

إن محبة الله تنشأ من ذكره، إذن كلما كانت المحبة لله أكثر انشغل الإنسان بذكره أكثر. ويمكن أن نجرب هذه الرابطة في الأمور العادية والدنيوية، فكل إنسان يذكر الله بمقدار ما يحبه وتجعله العلاقة الشديدة يذكره أكثر. ومن ناحية أخرى، إذا ما نساه فإن العلاقة تقل وبالتدريج تخرج من القلب، وعلى العكس فكلما كان يذكره تزداد محبته لذلك فإن الذين تكمن سعادتهم وفرحتهم في هذه الدنيا بذكر الله، كلما كان ذكرهم وتوجههم بالله أكثر عمقاً تكون محبتهم لله تعالى أكثر.

ب ـ محبة الله:

﴿. . . وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[1].

الفرحة الثانية لأولياء الله هي المحبة الإلهية، فإذا ما أحسّوا يوماً بأن قلوبهم قد خلت من محبة الله فإنهم يختارون الموت على خلو القلب من محبة الله، وتكمن طراوة ونضارة قلوبهم بقضاء الحياة بمحبة الله لذلك تجدهم يسعون عن طريق أعمالهم وسيرتهم إلى جذب محبة ورضا الله ورفع الموانع المتوقعة في هذا الطريق.

ج ـ رضا الله سبحانه:

إن أكبر لذة للمحب هي أن يعرف بأن محبوبه راضٍ عنه. وكذلك هي المحبة العادية للبشر. عندما يحب الإنسان شخصاً فإنه يفرح في أن يشاهد رضا محبوبه، نعم من الخصائص البارزة لأولياء الله الخلَّص هو أنهم دائماً ما يطلبون

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٦٥.

رضاه سبحانه، ومتى ما أحسوا بقلة محبة الله ورضاه تراهم يعيشون العذاب الروحي والحزن وضيق الصدر لا يمكنهم تحمل ذلك أبداً، لذلك يسعون جادين في تحصيل الرضا الإلهي وأنهم تقدموا بشكل ملحوظ في هذا الباب وتخلصوا من هذه الحالة المهلكة والمؤلمة.

طريق تحصيل الزهد والورع

«يا أحمد، إن أحببت أن تكون أورع الناس فازهد في الدنيا وارغب في الآخرة. . .».

الزهد بمعنى عدم الرغبة وهو، حالة قلبية لا عملية، وكما جاء في القرآن عن النبي يوسف عليه السلام:

﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾[1].

ليس الزهد أن لا يستفيد الإنسان من نعم الدنيا أي بمعنى أنه فقير ولا يسعى لكسب المال بل الزهد بمعنى ترك الميول والرغبة التي غالباً تجعل الإنسان متعلقاً بالدنيا بشكل ينسى من خلالها عالم الآخرة.

لذا فإن الله سبحانه يخاطب نبيّه ويقول: احترز من التمايل إلى الدنيا واهتم بالآخرة أكثر. فيمكن أن يمتلك شخص ثروة كبيرة ولكنه يصرفها في سبيل الله. النبي سليمان عليه السلام على الرغم من أنه كان يملك أكبر حكومة وسلطنة فإنه كان من أزهد الناس، ومع كل تلك الثروة التي كانت عنده فإنه كان يأكل خبز الشعير وكان قانعاً، واستخدم حكومته وثروته في مسير إحقاق حقوق الناس وترويج دين الله، ورفع راية التوحيد في كل أرجاء الأرض، ثم يسأل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ربه:

إلهي، كيف أحصّل الزهد؟ فيجيبه رب العزة ويقول: خذ من الدنيا حفناً من الطعام والشراب واللباس ولا تدخر لغد. وتعتبر هذه بأجمعها قضية قلبية وإدراكية يعني إذا كان الزهد مطلوباً وحسناً، ليس معناه أن يترك الإنسان النعم الإلهية ويحقّرها ويعرض عنها كلياً، بل المقصود هو أن لا يتعلق قلبه بها، وهكذا فعندما يقول لا تدّخر لغد، لا يقصد من ورائه أن الادّخار مذموم كليّاً، بل يقصد

---

(١) سورة يوسف، الآية ٢٠.

الادّخار الذي ينتهي إلى الاحتكار الذي هو مذموم، وذلك لأنه يخالف الزهد. فنجد أن الإنسان الزاهد يستفيد من النعم بمقدار الضرورة ويتكل على الله في المستقبل ويرضى برضاه. نعم إذا كان الادّخار لبعض الأجناس والسلع من المواد الغذائية وغيرها على أساس دافع صحيح، فإن ذلك لا ينافي الزهد وأنه مقبول عقلاً وشرعاً، إذن يعتبر الملاك في هذا الأمر هو النية والدافع للإنسان.

يروى بأن النبي سليمان (على نبيّنا وآله وعليه السلام) كان يدّخر لقوت سنته بدافع أنه لا يذهب كل يوم لتهيئة مقدار من الغذاء ويصرف وقته فمثلاً كان يدّخر دقيقاً لسنته ويضعه في البيت لكي يطبخ منه كل يوم بقدر الضرورة وبقدر ما يحتاج إليه. وهذا الادخار ليس بقصد الاحتكار لأن شرفه أعظم من ذلك بل لأجل الاقتصاد والتوفير في الوقت، ولكي يصل إلى أعماله المهمة فيهيّىء طعامه اللازم لمدة سنة، وهو عبارة عن كسرة من خبز الشعير اليابس كل يوم! يعتبر هذا العمل خالياً من العيوب، لأنه ليس خوفاً من حوادث المستقبل، لأنه إذا كان كذلك فإنه يعتبر نوعاً من سوء الظن بالله وهو يعارض التوكل والعبودية والزهد والورع. فبإمكان الله سبحانه الذي هيّأ لنا اليوم رزقنا أن يهيّىء رزقنا غداً، وعندئذٍ فإن الذي وضع غذاءنا في الدنيا في ثدي الأم، إذاً كيف يعجز عن تهيئة غذائنا ليوم غد، ولم يكن بعض العلماء والصلحاء يدّخرون طعاماً لغد وعندما يأكلون بمقدار احتياجهم فقد كانوا يوزعون البقية على جيرانهم الفقراء، وكان هذا تمريناً لكي لا يبتلوا بسوء الظن بالله. إن الذين حصلوا على المقامات العالية الإنسانية مثل مقام سليمان عليه السلام لا يحتاجون إلى هذه التمارين، ولكن يجب أن نسعى أن لا نسيء الظن بالله وذلك بسبب وساوس الشيطان ونسعى أن لا ندّخر في بيوتنا طعاماً أو على الأقل مقداراً منه ننفقه بين المحتاجين.

﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾(١).

---

(١) سورة آل عمران، الآية ٩٢.

إذا ما جمع الإنسان أشياء يحبها وأهدى أشياء لا قيمة لها فإنه لم يعمل شيئاً ولم يحصل على مقام المحسنين، فالمحسن هو الذي ينفق مما يحب فإذا ما اشترى أولياء الله شيئاً أو أهدى إليهم شخص ما هدية وأحبوها فنجدهم ينفقونها حتى لا يتعلقوا بها ويصير عندهم ميول للدنيا، وإذا ما استطعنا أن نخرج حب الدنيا ولذاتها من قلوبنا بشكل كلي، أو على الأقل نسعى لأن نقلل من تعلقنا بها بحيث يمكن أن نقلل من الاستفادة من لذات الدنيا طبعاً لا بمعنى أن نخرج عن حدّ الاعتدال ونترك ضروريات الحياة.

إن واحدة من وصايا النبي ﷺ، والتي قال فيها: «دم على ذكري» أنه ﷺ سأل: ماذا أفعل حتى أذكرك دائماً؟ قال الله في جوابه: «بالخلوة عن الناس». طبعاً عندما يسمع الإنسان صوتاً أو يشاهد منظراً يتوجه إليه ويجذبه، لذلك إذا كانت المشاهدات والاستماعات تجذبنا للدنيا وتبعدنا عن الله والآخرة يجب أن نسعى إلى الابتعاد عنها لأنه ليس وراءها أية نتيجة تذكر إلاّ الغفلة عن ذكر الله وبناءً على هذا يجب أن نبتعد عن أهل الدنيا الذين يكمن جل فكرهم وذكرهم في مدح الدنيا ولذاتها.

يجب على الإنسان أن يعاشر الذين عملهم وقولهم يذكرنا بالله سبحانه. جاء في الحديث: إن الحواريين سألوا عيسى ابن مريم عليه السلام من تعاشر؟ فأجاب عليه السلام:

(من يذكّركم الله رؤيته ويزيد في عملكم منطقهُ ويرغّبكم في الآخرة عمله)(1).

وكلما عاشر الإنسان مثل هؤلاء فإنه ينتفع بهم وتعبير «بالخلوة عن الناس» فيه معنى الابتعاد عن الناس الذين يسببون الغفلة عن الله.

---

(1) بحار الأنوار ج٧٧ ص ٢٠٣.

ويقول الله سبحانه في بقية أجوبته: «وبغضك الحلو والحامض وفراغ بطنك وبيتك من الدنيا» ثم يقول:

«يا أحمد، احذر أن تكون مثل الصَّبي إذا نظر إلى الأخضر والأصفر أحبّه وإذا أعطي شيئاً من الحلو والحامض اغترّ به».

الذين تجذبهم الألوان والأشياء عندما يمرون في الشوارع فإن هؤلاء يتمتعون بعلاقات صبيانية. إذاً فانتبه لئلا يُسخّروا قلبك ويأخذوا انتباهك.

فعلى الإنسان أن لا يفرح بالدنيا المغرية[1]، ويفرح عندما يكون عنده طعام في البيت، وغير موجود عند الآخرين، في بيته لوازم نادرة وقد فرش بيته بسجاد قيم فإن هذه تعتبر أفكاراً صبيانية وغير متفقة مع حب الله.

حب الله والتوجّه إليه أن نخلي البطن من الأكلات اللذيذة وأن نخلي البيت من الدنيا.

تعتبر حياة النبي الأكرم ﷺ أفضل أسوة، فعندما دخل النبي ﷺ بيت الزهراء سلام الله عليها وشاهد ستاراً ملوّناً معلقاً على باب غرفة فاطمة حزن وغضب، وخرج من البيت دون أن يتكلم مع فاطمة، وقد علمت فاطمة عليها السلام بحزن أبيها فرفعت الستار وذهبت إلى السوق وباعته ثم ذهبت إلى أبيها واعتذرت منه.

(١) الدنيا تمر وتغر وتضر (المترجم).

الدرس الخامس

خصال السالكين إلى الجنة وميراث الجوع والسكوت

الخصائص الأربع

الميراث القيم

تفسير الجوع الممدوح

الآثار الإيجابية للجوع والصمت

خصال السالكين إلى الجنة وميراث الجوع والسكوت

«يا أحمد، وعزتي وجلالي ما من عبدٍ ضمن لي بأربع خصال إلا أدخلته الجنة: يطوي لسانه فلا يفتحه إلا بما يعنيه، ويحفظ قلبه من الوسواس ويحفظ علمي ونظري إليه ويكون قرة عينيه الجوع. يا أحمد، لو ذقت حلاوة الجوع والصمت والخلوة وما ورثوا منها.

قال: يا رب وما ميراث الجوع؟ قال: الحكمة وحفظ القلب والتقرب إليّ والحزن الدائم وخفّة المؤونة بين الناس وقول الحق ولا يبالي عاش بيُسر أم بعسر.

يا أحمد، هل تدري بأي وقتٍ يتقرّب العبد إليّ؟ قال: إذا كان جائعاً أو ساجداً.

الخصائص الأربع

الله سبحانه يخاطب الرسول الأكرم ﷺ ويقول: يا أحمد وعزتي وجلالي ما من عبدٍ أوجد فيه أربع خصال إلا أدخلته الجنة والخصال الأربع هي عبارة عن:

١ ـ يطوي لسانه فلا يفتحهُ إلا بما يعنيه.

٢ ـ يحفظ قلبه من الوسواس.

٣ ـ يحفظ علمي ونظري إليه.

٤ ـ يكونُ قرة عينيه الجوع.

ثم يوجه الله خطابه إلى حبيبه قائلاً:

«يا أحمد، لو ذقت حلاوة الجوع والصمت والخلوة وما ورثوا منها، قال: يا رب وما ميراث الجوع؟

قال: الحكمة وحفظ القلب والتقرب إليّ والحزن الدائم وخفّة المؤونة بين الناس وقول الحق ولا يبالي عاش بيُسر أم بعسر.

يا أحمد، هل تدري بأي وقتٍ يتقرّب العبد إليّ؟ قال: لا يا رب. قال: إذا كان جائعاً أو ساجداً.

الميراث القيم

يا أحمد، يا ريت تدري كم الجوع والصمت جميلان وكم هو كبير أثرهما؟

يسأل النبي ﷺ ربّه قائلاً: يا رب ما هو ميراث وأثر الجوع والصمت؟ يجيبه الباري عز وجل إن آثار هذين الاثنين عبارة عن:

١ ـ الحكمة: يعني الجوع والصمت مقدمة لمعرفة الحكمة والحقائق.

٢ ـ حفظ القلب: يعني أن يكون قلب الإنسان دائماً وفي كل حال تحت اختياره.

٣ ـ التقرب إليَّ: يستطيع العبد بواسطة الجوع والصمت أن يتقرّب إليّ ويحصل القرب المعنوي.

٤ ـ الحزن الدائم: إن حالة الحزن هي من الحالات الممدوحة ؛سوف نتكلم حول مدح الحزن والتي هي من آثار الجوع والصمت.

٥ ـ وخفة المؤونة بين الناس.

٦ ـ قول الحق: يعني بسبب عدم وجود الطمع في مال الناس يستطيع الإنسان أن يقول الحق في كل مكان ولا يخاف ولا يهاب من شخص.

٧ ـ ولا يبالي عاش بيُسر أم بعُسرٍ؛ وذلك لأن الإنسان الذي هو قليل المؤونة وخفيف المؤونة لا يفكر إن كان غنياً أو فقيراً، ثم يقول يا أحمد، هل تدري بأي وقت يتقرب العبد إليّ؟ قال: لا يا رب، قال: إذا كان جائعاً أو ساجداً.

التوضيح والتفسير:

خلق الإنسان لكي يصل إلى الكمالات النهائية والمقامات الأبدية، وأن

سبيل الوصول إلى تلك المقامات هي رعاية هذه الأمور الأربعة التي ذكرت في حديث المعراج، ومن عمل بهذه الشروط الأربعة ضمن الله له دخول الجنة ويعتبر شرطان من هذه الشروط الأربعة تابعين للأعضاء والجوارح (مرتبطة باللسان والبطن) والشرطان الآخران مرتبطان بالأمور القلبية والباطنية. ويعتبر واحد منهما سلبياً بمعنى امتناع وترك القلب عن وساوس الشيطان والشرط الثاني إيجابي بمعنى أن يعرف بأنَّ الله حاضر وناظر إلى أعماله، وبطبيعة الحال فإن العمل بالشرطين الأخيرين ليس سهلاً، بل يحتاج إلى رياضة كبيرة وبصورة أساسية فيعتبر حفظ اللسان عن كثرة الكلام، وحفظ البطن عن كثرة الطعام أحد السبل لمحاربة الشيطان. حتى لو كانت مكائد الشيطان كثيرة ولم تحصر باللسان والبطن ولكن يعتبر هذان الاثنان من أقوى الوسائل والأدوات الشيطانية في اختلال الإنسان، لأنه إذا استطاع مراقبة البطن فإنه باستطاعته التمكن من السيطرة على الشهوة، وإذا استطاع شخص ما أن يحفظ لسانه أمكنه وسهل عليه حفظ العين والأذن. يعتبر امتلاء البطن أكبر عامل لسلب الوعي، الشعور، الإدراك وسلب حضور القلب من الإنسان فإذا امتلأت بطن الإنسان فإنه لا يستطيع أن يفكر ولا يتوفّق للمطالعة وحضور القلب في الصلاة، ولا يمكنه القيام بكثير من الأمور الأخرى، وهذه المسألة ثابتة ولذلك فمن المعروف أن:

«عبادة الشبعان كتملّق السكران».

من عبد وبطنه مملوءة مثل السكران[1] إذا أخذ يتملّق للآخرين، فليس عند الإنسان السكران شعور، لذلك ليس لتملقه اعتبار وقيمة، إذن فلا قيمة ولا اعتبار لخضوع وخشوع الإنسان الشبعان الممتلىء البطن.

---

(١) نقلت روايتان عن علي عليه السلام في هذا المعنى: «لا تجتمع الفطنة والبطنة» مستدرك الوسائل ج١٦ ص ٢٢١.
«لا تجتمع عزيمة ووليمة» نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١١ ص ١٤٣.

عند امتلاء البطن يسلب الوعي الذي هو من خصائص الإنسان، حيث يعتبر بوصفٍ أدق مثل الطائر الذي شدوا برجليه شيئاً ثقيلاً، وكلما كان هذا الشيء وزنه أكبر كان طيرانه أصعب، إذن فإن امتلاء البطن بمنزلة الشيء الثقيل الذي شدَّ في رجل الطائر فإن روح الإنسان تُشد وتمنعه من العروج والتحليق والطيران، وبعكسه تماماً تسبب له السقوط والدخول في الطبيعة وذهاب النورانية ولطافة الروح الإنسانية، وتمنع من ظهور الكمالات الروحية. طبعاً إن معرفة ارتباط الروح بالبدن ليست بالأمر السهل ويمكن طرحها في مباحث قصيرة، وعلى كل حال فإذا كان الإنسان شبعان فإنه يحس بروحه عاجزة عن الطيران والتحليق.

تفسير الجوع الممدوح

إن مدح الجوع في الروايات ليس بمعنى أن تحمّل الجوع حسن بل القصد هو الإشارة إلى معرفة موانع عروج الروح الإنسانية سواء في ناحية الحضور، أي التوجهات القلبية، أو من ناحية الحصول على التفكر والتفكير.

على كل حال ليس عليه أن يتحمل الجوع بشكل لا يستطيع معه أن يعمل، بل عليه أن لا يشبع بشكل لا يستطيع القيام بواجباته ونشاطاته. ووفقاً لتعبير العلاّمة الطباطبائي قدس سره (صاحب تفسير الميزان) فإن القصد من الجوع في هذه الروايات هو الإقلال من الطعام في مقابل التخمة (لا بقصد الجوع). إن تناول الأطعمة الطيبة لا يعتبر مضراً، بل هو واجب من أجل سلامة البدن ومفيدة إلاّ أن رعاية الاعتدال تعتبر أمراً ضرورياً أيضاً.

وقد ورد (بالنسبة للجوع وتحمل الجوع الكثير في كتب الأخلاق وبسببه حصل الأولياء على مقامات عالية ونكتفي رعاية للاختصار بهذا المقدار) إذا سأل نبي الإسلام عن آثار الجوع والصمت وسمع الجواب فإنه ليس بمعنى أنه لم يكن يعلم والعياذ بالله أو ما كان يعمل بذلك بل لأجل العبرة للآخرين، وأيضاً كان لأجل أن يأخذ هذه الدرر كهدية ومصوغات لأهل الأرض.

الآثار الايجابية للجوع والصمت

أ ـ تعتبر الحكمة هي الأثر الأول والتراث الثمين للجوع والصمت، ويعني وصول الإنسان إلى حقائق ووقائع صعبة الوصول وإدراكها بشكل ملحوظ، فبإمكان الإنسان بتجاربه المحدودة أن يدرك مقدار أهمية هذين الأمرين في تعليم الحقائق المؤثرة، كما هو الأمر في آخر شهر رمضان المبارك عندما يحس الإنسان أنّ روحه مستعدة للعروج، وأن كل وجوده أضحى مفعماً بالنشاط والحيوية واللذات المعنوية.

إذن يجب الاهتمام بالبدن لكي يكون في خدمة عروج الروح وتحليقها، لا أن يكون مانعاً من عروجها ومن الوصول والاهتمام بالمعنويات وعالم الملكوت.

يستطيع العقل الإنساني الذي يعد من قواه الروحية مع خفة البطن أن يعمل ويدرك الحقائق.

ب ـ يتمثل الأثر الثاني القيم للجوع والصمت بحفظ القلب من وساوس الشيطان حيث أدرك المؤمنون الصائمون عن طريق التجربة بأنهم أنجح في التركيز وحفظ القلب، أما الذين اعتادوا على كثرة الأكل يعلمون جيداً بأنه من الصعب عليهم حفظ قلوبهم والسيطرة على خيالاتهم الواهية وتركيزهم.

ج ـ يتمثل الأثر الثالث للجوع والصمت بالتقرب إلى الله، وهذا هو الكمال الواقعي والهدف الأكبر ورغبة المؤمنين والعباد.

ومن أجل الوصول إلى هذا الهدف المتعالي المهم يجب تنظيف القلب من الأهواء والرغبات النفسية ورشد قدرة التصميم في جهة تجسيم الهوية الإلهية والمعنوية للإنسان في هذا الباب، ولا شك أنّ للصوم دوراً مهماً وقيماً في تقوية الإرادة وسوقها إلى صوب وجهة الله سبحانه.

د ـ الأثر الرابع للجوع والصمت يتمثل بالحزن، فقد ورد في عدة روايات مدح وتمجيد للحزن والحزين، ولا يعني هذا الكلام بأن يكون الإنسان دائماً عبوساً وخشناً بل القصد منه هو الوصول إلى حالة ما في مقابل الغرور والنشاط والفرح الذي يكون بلا داعٍ وبلا حدود، والذي يعتبر من الصفات المنحطة الحيوانية. إن الشخص الملتزم للصمت والجائع ليس عنده بالأساس فرح كاذب ولهو وضحك وقهقهة، وتكون أعماله رزينة وموزونةً، بطبيعة الحال يمكن أن يقع الحزن ويحدث في الأمور المادية في التسابق على جمع الثروة، ولا يعتبر هذا الأمر ممدوحاً أبداً، بل الحزن الممدوح هو الذي يكون في مقابل الفرح الزائد عن الحد، والذي يكون بلا حدود والمؤدي إلى الغفلة والغرور، وإذا ما أصبح الإنذار وتخويف الناس واحداً من أهم واجبات الأنبياء[1]؛ فلهذا السبب يمكن أن يستفيد الإنسان من عمره بشكل حسن، ويسيطر على أعماله، ويستفيد من الإمكانات والمواهب الإلهية بالشكل المطلوب حيث يحزن المؤمن إذا ما صرف جزءاً من عمره في أمورٍ غير مفيدة، وحتى في المباحات، لأنه قد صرف رأس ماله ولم يحصل في تجارته على أي نفع يذكر، وهذا هو السبب الرئيسي الذي جعل بعض العظماء والعلماء يتركون كثيراً من المباحات، فعندما ينظر المؤمن إلى حياة هؤلاء العلماء ويقيس نفسه معهم ويرى عمره قد صُرف بالمباحات والأمور التافهة فإنه يحزن ويصمم على تلافي الماضي ويعرف قيمة عمره الباقي.

هـ ـ الأثر الآخر للجوع والسكوت هو قلة المؤونة وخفة المؤونة والذي يعني أنه كلما قل احتياج الإنسان إلى الآخرين عاش حراً إلاّ أن الذي يكون بطيناً ويسرف في الأكل فإنه دائماً ما يفكر بالأكل الطيب واللذيذ، ويحرم من الحرية، فمثله مثل الدابة التي جُل تفكيرها ينحصر بالأكل دائماً، وبتعبير المولى أمير

(١) ﴿إن أنت إلاّ نذير﴾ الآية (المترجم).

المؤمنين عليه السلام [1] وبالنتيجة فإنه سوف يواجه مشاكل عديدة من جملة حصوله على معايش من أجل تهيئة موائد متنوعة ولذيذة، وأحياناً الدخول في أعمال الحرام من أجل تأمين مصروفه واحتياجاته.

و ـ الأثر الآخر للجوع والصمت هو الدفاع عن الحق والحقيقة، فالذي يعيش عيشة متواضعة وعادية فإن لسانه حر وقادر على أن يدافع عن الحق في كل مكان على خلاف الشخص الكثير الأكل، فإنه ليس لديه القدرة الكافية للدفاع عن الحق، ودائماً ما يلاحظ ويراعي الآخرين لكي لا يتسببوا بضرر ما على منافعه، أما الشخص الخفيف المؤونة فإنه لا يهتم في أن يُحزن الآخرين من قول الحق، أو يسببوا له ضرراً على حياته وعيشته لأنه يعيش عيشة بسيطة، وتراه واقفاً في كل مناسبةٍ وقفة رجولية أمام كل الاعوجاجات وكل الظلامات، ومدافعاً عن الحق، هذا ويسعىٰ الإنسان الخفيف المؤونة إلى أن يعيش حسن الذكر، وأما الإنسان كثير الأكل فإنه يسعى إلى أن يعيش بفرحٍ دائماً وبينهما فرق شاسع.

ز ـ اتضح من المطالب السابقة وبشكل واضح الأثر المفيد والنافع للجوع والصمت، وهو أن المؤمن الورع أصلاً لا يفكر كيف يقضي حياته بصعوبة أو بسهولة؟ لأنه راضٍ بالقضاء والتقدير الإلهي، ويعيش في الدنيا بالقناعة والاقتصاد، ولا يكترث بجمع المال والثروة لكي لا يبتلى بالمشاكل والأمراض الروحية التي ابتلي بها أصحاب الدنيا، حيث يقول الباري عز وجل: يا أحمد هل تدري بأي وقت يتقرّب العبد إليَّ؟

فيجيبه النبي صلى الله عليه وآله: لا يا رب.

قال: إذا كان جائعاً أو ساجداً.

---

(1) همه علفه.

من دون شك ولا ريب من الأفضل أن يجتمع هذان الأمران لأن الجائع الساجد يكون لدى روحه استعداد شديد في أن تعرج إلى ربها، وتتقرب منه تعالى لأن تحمل ألم الجوع يجعله يحس بالضعف والحقارة والتواضع أمام ربه، ويكون بسبب السجود تركيزه وحضور قلبه أكثر.

الدرس السادس

وجوب الاهتمام بالصلاة وإدراك حضور الرب

حقيقة الصلاة وماهيتها

أهمية الصلاة

التفكر في الصلاة وعظمة الله

وجوب الاهتمام بالصلاة

وإدراك حضور الباري تعالى

«يا أحمد، عجبت من ثلاثة عبيد: عبد دخل في الصلاة وهو يعلم إلى من يرفَعُ يديه وأمام من هو وهو يغفو، وعجبت من عبدٍ له قوت يوم من الحشيش أو غيره وهو يهتم لغد، وعجبت من عبدٍ لا يدري أني راضٍ عنه أو ساخطٌ عليه وهو يضحك».

تشير هذه الفقرة في الحديث إلى مسألة مهمة تعتبر محل ابتلائنا جميعاً، أو على الأقل أكثرنا وهي أننا لا نعطي للصلاة حقها، ولو أنه كلما ازداد علم الإنسان ومعرفته يجب عليه أن يكون توجهه واهتمامه وإدراكه أكثر، فمن الواضح أنه كلنا يعلم بأن صلاتنا ليست الصلاة اللائقة والمناسبة للمقام الإلهي، وأنها ليست مثل صلاة أولياء الله، وكذلك نعلم بأن الآثار والنتائج المذكورة للصلاة في القرآن والروايات لا تشمل صلاتنا، ولكن أكثرنا لا يعلم بالتفصيل ميزان تقصيره وقصوره، لذا يجب علينا أن نسعى في التعرف على ميزان ومقدار الخلل والنقص في صلاتنا، فينبغي معرفة قبح وعيوب الصلاة التي تقام بدون رغبة وشوق وحضور قلب، وكذلك نفكر أنّه لو كانت صلاتنا صلاة كاملة ولائقة لاستفدنا من صلاتنا، واعتبرنا من مقيمي الصلاة، وحصلنا على النتائج العالية والمقامات السامية، والحال أننا نصلي بدون حضور القلب وساهون عنها ولا نهتم كم أصابنا من جرّاء ذلك من خسائر وأضرار، فمن اللائق والواجب بمكان أن ننظر إلى صلاة أولياء الله ونقيس صلاتنا بصلاتهم، حتى نعرف نقائص وعيوب صلاتنا لأنه بقياس

الضعيف مع القوي والناقص[1]، طبعاً بالنسبة إلى تعويض وتلافي النقائص وعدم الاهتمام فقد دوّن العلماء العظام كتباً كثيرة، من جملتها كتاب «أسرار الصلاة» للمرحوم الميرزا جواد التبريزي، وكذلك «أسرار الصلاة» للإمام الخميني رضوان الله عليه، ونحن نشير في هذه المناسبة إلى بعض ما كُتب حول الصلاة.

(١) مع الكامل يمكن لنا معرفة ميزان العيب والنقص.

حقيقة الصلاة وماهيتها

الصلاة بمعنى وقوف العبد أمام ربه ويظهر عبوديته ويمد إليه يد الحاجة والتضرع فعلىٰ الشخص الذي يقف في الصلاة أن يدرك حضور الرب ويعلم وقوفه أمام أي ملك يتّجه لذلك عليه أن يؤدي وظيفة العبودية بكل خضوع وخشوع.

فعندما نقف في الصلاة لا نهتم بها كثيراً ويتجه اهتمامنا إلى أمور أخرى ونذكر في بعض الأحيان في صلاتنا أموراً قديمة مرت علينا منذ سنين وعندما نهم بالتسليم آخر الصلاة نذكر أننا كنا في الصلاة!

كم هو قبيح أن نقف أمام الله ولا نهتم ونتنبه بأننا أمام من نحن واقفون؟ وماذا نقول وماذا نقرأ! ويعد الله سبحانه هذه الحالة بأنها من علامات المنافقين ويقول: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ...﴾[1].

فقد ورد في الرواية من يصلي وهو ساهٍ عنها ألاّ يخاف أن أمسخه حماراً؟

كل هذا المقدار من السهو والغفلة وعدم الاهتمام؟

إن هذا العيب الكبير إذا ما ابتلي به الإنسان فهو يستحق أن يُمسخ حماراً، لأنه لا يعتبر في واقع الأمر إنساناً. كيف يمكن للإنسان أن يقف أمام عظيم وكبير ولا يعتني به ولا يعير له اهتماماً؟ بل قلبه وتوجهه في مكان آخر، فكيف إذا وقف أمام رب العالمين الله الذي تعتبر جميع الكائنات وجميع النعم والخيرات منه، لا يستحق الاهتمام بنفس القدر الذي نكنه لإنسان عادي! فهل عندما يقف الإنسان ويتحدث مع شخص آخر يشيح بوجهه عنه؟ وإذا فعل ذلك ألا يقال عنه إنه مجنون؟

---

(١) سورة التوبة، الآية ٥٤.

طبعاً إن الله سبحانه وتعالى ليس بجسم حتى ندير وجوهنا إليه بل تكون المواجهة والارتباط مع الله بواسطة القلب لأنه لديه إحاطة بكل شيء ويمكن عن طريق القلب مواجهته فقط وإذا ما صرفنا القلب عنه ولم نهتم بالصلاة فكأنما أشحنا بوجوهنا عنه. هل يمكن لشخص يغفل عن الله الذي أعطاه من لطفه رخصة في أن يقف عنده ويتكلم معه ويبوح له بسره ويناجيه ويشرح له مشاكله بدلاً من أن يغتنم الفرصة ويشكره على هذه النعم الكبيرة؟

الشخصيات الكبيرة لا تسمح للناس بلقائها بسهولة، ولا يسمحون لكل شخص في أن يقابلهم، أما الله سبحانه فبسبب محبته غير المحدودة قد فتح باب داره للجميع وأجازهم زيارته، فيجب في هذه الحالة استغلال الفرصة والسعي له بكل وجودنا ويكون توجهنا إليه وحده.

فإذا كان الإنسان لا يعتقد بالله ولا يعتقد أنه في محضر الله سبحانه، من الطبيعي أنه لا يعتني به أما الشخص الذي يعتقد بالله ويعلم أنه واقف أمام الله فإذا كان الحال هكذا فإنه يعتبر عدم الاعتناء وعدم الاهتمام به عيب كبير وغير صحيح، لذا وردت الرواية مستعملةً كلمة «عجبتُ»(١).

حيث يقول الله سبحانه عجبت من عبدي الذي يقف أمامي وليس له نشاط واهتمام.

---

(١) حالات مثل التعجب، الخوف، الحزن وسائر الاحساسات تتعلق بالموجود المادي والله سبحانه منزّه من أن يتعجب أو يخاف أو يحزن وإذا تكلم بهذه التعابير فإنه أراد أن يتكلم بلساننا.

أهمية الصلاة

للصلاة أهمية كبيرة ولها تأثير شديد في سعادة الإنسان يسعىٰ الشيطان بكل ما أوتي من قوة في أن يبعدنا عن حقيقة الصلاة ويريد أن يحرمنا من إقامة الصلاة المقبولة، لذلك يلقي في أذهاننا خواطر أو ذكريات كثيرة حتى يصرف قلوبنا عن الصلاة.

بطبيعة الحال ليس للشيطان سلطة على أحد وإنما نحن الذين نسمح للشيطان أن ينفذ إلى عقولنا وقلوبنا ونأنس به ودائماً ما نسايره ومن الطبيعي أن نراه وقت الصلاة يشغلنا.

تعتبر الصلاة أفضل طريق للتكامل وللتقرب إلى الله والله من أجل عنايته بالإنسان ومن أجل تكامله فقد أوجبها وإلا فإنه ليس بحاجة إلى الصلاة وقد أوجبها في كل الظروف والأحوال وأن تقام في أوقاتها الخمس وحتى قال بعض الفقهاء:

يجب على الشخص الذي يغرق بالبحر أن يصلي في ذلك الحين ويتوجه إلى الله بقلبه حتى ولو يسقط عنه مسألة استقبال القبلة وبقية شرائطها وما هذا إلا بسبب الدور الأساسي للصلاة في تكامل الإنسان وسعادته لذا يقول النبي ﷺ:

«الصلاة خير موضوع»[1].

وكذلك قول الإمام الرضا عليه السلام:

«الصلاة قربان كل تقي»[2].

---

(١) جامع أحاديث الشيعة ج٤ ص٦.

(٢) الكافي ج٣ ص٢٦٥.

يسعىٰ الشيطان وبسبب عداوته القديمة لابن آدم إلى أن يحرمه من أفضل الأشياء وأهمها ويجدّ في إلهاء الإنسان عن عوامل الرشد والسعادة:

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[1].

فإذا أديت في بعض الأحيان ركعتان من الصلاة وحتى ركعتا نافلة بشكلٍ صحيح مع الرغبة والنشاط فإنها تضحي سبباً في كفارة ذنوب الإنسان لأنه لا يمكن أن يصلي الإنسان صلاةً بتوجهٍ ولذةٍ وجدٍ ولم يندم على أعماله القبيحة ولم يصمم على عدم الرجوع إلى الذنوب.

وورد في رواية للنبي ﷺ يقول: «إذا كان مقابل بيت شخص نهر ماء جارٍ وهو يغتسل فيه باليوم خمس مرات هل يبقى عليه قذارة؟ فمثل الصلاة كمثل نهر الماء الذي عندما يصلي الإنسان تغفر له كل ذنوبه[2].

فإذا ما عرفنا أهمية الصلاة واستفدنا منها لم يبق عندنا بعد ذلك ذنوب إلاّ أنه ومع الأسف الشديد لا نعرف قيمة الصلاة ولا نعيرها أيّة أهمية، لذلك فهي لم تفدنا شيئاً.

إذن تكمن النكتة الثانية في أن نفكر في أهمية الصلاة والآثار القيمة لها وذلك لكي نعرف كم خسرنا وحرمنا من الفوائد والبركات بصلاتنا الفاقدة للتوجه والرغبة وحضور القلب. عندما تُؤدى ركعتان من الصلاة فإنها توجب غفران كل ذنوب الإنسان.

هذا وتوصل الاستقامة في إقامة الصلاة المطلوبة والمرغوبة واللائقة بالقبول الإلهي الإنسان إلى أعلى الدرجات والمقامات (القرب الإلهي).

وإذا ما عرف ذلك فلم يبق لنا إلا الندامة والحسرة على تضييعنا وخسارتنا

---

(١) سورة ص، الآية ٨٢.

(٢) وسائل الشيعة ج٣ ص ٧.

للفوائد والمنافع الكثيرة التي ذهبت منا سدىً.

فعندما نفقد مائة درهم فإن فكرنا سيصاب بالتشوش وإذا ما فقدنا جوهرة ثمينة بسعر مائة ألف درهم نبقى مدة من الزمن نعيش الحزن والألم والحسرة ولا ننام الليل هذا في حين أننا لو فقدنا وخسرنا ركعتان من الصلاة والتي تعادل كل الدنيا ولذاتها لا نندم ولا نحزن أبداً؟

يا ليت، لو كنا نعلم أي فوائد يجني أولياء الله من الصلاة. يقول بعض العظماء ـ لعل هذا المضمون في بعض الروايات ـ فلو علم ملوك العـالم أي لذةٍ في الصلاة لتركوا سلطنتهم وأخذوا يصلون (ويظهر من لحن هذا الكلام أنهم قد وصلوا إلى درجةٍ من المعرفة).

كم نسعىٰ خلال الأربع وعشرين ساعة لكي نصل إلى لذاتنا، ويمكن تأمين هذه اللذات عن طريق الأكل واللبس ويمكن أن تكون عن طريق آخر. ونسعىٰ في بعض الأحيان سنين ونعمل على تهيئة المقدمات اللازمة لكي نصل إلى اللذة المنشودة حيث يقول ذلك العالم: تعتبر جميع لذات السلاطين لا شيء أمام اللذة التي يحصل عليها الإنسان المؤمن حيث إن اولئك فرحون بلذاتهم المادية وليس عندهم علم بلذة المناجات مع الله سبحانه وتعالى.

ومن أجل تعويض الأضرار السابقة وجني فائدة أكبر وعدم خسران بركات ومنافع مناجاة الله يجب علينا أن نستفيد من النكات والأوامر التي جاءت في الروايات وكلمات العلماء وأولياء الله والوصايا الأخلاقية لعلماء الأخلاق الذين جنوا الفائدة من الصلاة عن الطريق الأفضل وهو التجربة أو استفادوا من الروايات الواردة في ذلك.

(إن قيمة هذه الروايات لا تثمَّن ولأنها وصلت إلينا مجاناً فلم نعرف قدرها في حين أن قيمة كل روايةٍ وردت في الكتب الروائية أكبر من كل ثروات الدنيا ولذاتها).

التفكر في الصلاة وعظمة الله

من جملة الأعمال التي توجب الاهتمام وحضور القلب هي انشغال الإنسان بالتفكر قبل الصلاة بلحظات ويهتم ويفكر بالله، وأن يفرِّغ نفسه من كل شيء ما عدا الله. وأن يجلس في مصلاه دقائق للتركيز ويخلي قلبه من الأفكار الواهية ويسعى مع التركيز في أفكاره ونسيان المتعلقات الدنيوية إلى حضور القلب.

طبعاً عن طريق التفكر والندم على فقدان المنافع المعنوية للصلاة وتعويض وتلافي الأضرار والخسائر السابقة فإن هذا المهم والأحسن قد حصل.

يجب على الإنسان قبل البدء في الصلاة أن يراقب أفكاره حتى يتمكن من أن يلتفت بشكل جيد إلى صلاته ومحل الصلاة والسجدة، وأما إذا كان في مكان خالٍ ولم يكن هنالك شخص يلتفت إليه عليه أن يجلس مرتاحاً لكي لا يحدث أي ضغطٍ على بدنه وبعد تركيز الذهن، يتصور حضور الرب وأن يقتنع بأنه في محضر الله سبحانه وتعالى.

نحن ندعي بأننا في حضور الله وأن العالم في محضر الله إلاّ أن هذه لقلقة لسان ليس إلاّ وأن قلبنا غير مقتنع بهذا الأمر.

عندما نكون في غرفةٍ ما بعيدين عن أعين الناس، تصدر منا أعمالٌ خاصة وعندما نعرف أن شخصاً أو حتى طفلاً يرانا يتغير عملنا، وإذا اقتنع وآمن الإنسان أنه في حضور الله وعلم أنّ الله يراه فإنه سوف يمنع القلب من اللهو والتشتت، أو عندما يقول في الصلاة الله أكبر ومعتقداً بأن الله أكبر من كل شيء وعظمته لا يحدها شيء فإنه لا يغفل لحظة واحدة عن إدراك حضوره والالتفات إليه.

أولاً: إننا نعتبر عاجزين عن إدراك عظمة الله وإنما هذه الألفاظ نجريها على

ألسنتنا فقط ولا نستطيع أن نصف عظمة الله سبحانه، ماذا تعني كلمة الله أكبر؟ كم أن الله أكبر وأعظم من الإنسان والموجودات؟

يمكن لأذهاننا في الأصل أن تدرك الله، فحتى لو نظر الإنسان إلى الآثار الإلهية وسعىٰ وجد وطوى مراحل فإنه يمكنه إلى حد ما أن يدرك عظمة الله.

هذا ويفيد الإمام الصادق عليه السلام في رواية مفصلة بأن زينب بائعة العطور جاءت إلى بيت النبي وسألت عن عظمة الله سبحانه والنبي صلى الله عليه وآله أخذ في جوابها وهو يقيس عوالم السموات السبع والأفلاك وكذلك صغر كل واحدة نسبةً إلى الأخرى ومن جملة كلامه قال:

هذه الأرض وما فيها وما عليها بالنسبة إلى الجو الذي يحيط بها هو كالخاتم الساقط في الصحراء القاحلة الكبيرة وكذلك كوكبنا في مقابل السماء الثانية كمثل الخاتم الساقط في الصحراء[1].

وهذه النسبة قياساً إلى أي عالم من العوالم والأفلاك تعتبر دليلاً وهادياً للإنسان إلى عظمة الله حيث تعتبر الأرض مع كل سعتها وعظمتها صغيرة جداً ازاء الشمس وكذلك لا يمكن قياس الشمس مع بعض الكواكب التي تسبح جميعها في فضاءٍ ولا تصطدم بالبعض الآخر، ففي الواقع الذين عندهم معرفة واطلاع بالعلم الجديد يعلمون بأن المسافة بين تلك الكواكب تقدر بملايين السنين الضوئية، وتوجد عوالم أخرى إضافة لهذه الكواكب لأن هذه النجوم والسيارات فقط هي زينة للسموات حيث يقول الله سبحانه حولها:

﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾[2].

(هذا ولا يعلم عن بقية السموات ولا يمكن تخمين سعتها).

---

(١) بحار الأنوار ج٦٠ ص ٨٣ ـ ٨٥.

(٢) سورة فصلت، الآية ١٢.

لا شك أن هذا كله يبيّن الحكمة والعظمة الإلهية فالله الذي خلق كل المخلوقات بقول (كن) وحتى هذه نحن نقولها وهو لا يحتاج أن يقول كن، فإن إرادته كافية لخلق الكون فأي قدرة له وعظمة بحيث إنه خلق العالم والكون بإرادته وبإرادته باقٍ، ومتى لم يشأ كل شيء ينتهي.

إذاً عندما عرف الإنسان عظمة الكون وعرف عظمة الله إذن يجب عليه أن يسأل نفسه في الصلاة أنه واقف أمام من؟

هل يمكن أمام مثل هذا الموجود أن يفكر بالطعام، الماء، اللباس، البيت والوسائل الأخرى؟ أي قيمة لكل هذا الكون، البشر، الكرة الأرضية والبحار والجبال في مقابل الله، أن يترك الإنسان ربه ويذهب وراء بطنه ولباسه والزوجة والأطفال وأخيراً يذهب وراء الدنيا؟ هل يعمد الإنسان العاقل إلى عمل هذا؟

إذن من جملة الأمور التي تجعل الإنسان يراقب قلبه هو أن يفكر بعظمة الله قبل الصلاة ويدرك أمام أيّ شخص يقف، وكذلك يقرأ الأدعية الواردة قبل وبعد الصلاة وفي أثناء الصلاة وأن يسعى لفهم معاني الجمل التي يجريها على لسانه ويفكر بها كما أوصىٰ بهذا المرحوم الميرزا جواد التبريزي في كتابه «أسرار الصلاة». من الطبيعي أنه عندما يريد الإنسان أن يتكلم فإنه يتصور معاني الكلمات في ذهنه ثم يتكلم ولكن نحن تعودنا أن نصلي سريعاً ولا نعطي لأنفسنا مجالاً للتفكر والتدبر في معاني الجمل.

إذن يجب على الإنسان أن يصلي بتوجه والتفات وإذا كان يصلي كل ركعة بدقيقة واحدة في السابق فعليه الآن أن يصليها بدقيقتين. وهذا لمن أراد أن يذهب إلى حضور ربه وهذا ليس بالوقت الكثير، فيصبح الالتفات إلى المعنى شيئاً فشيئاً ملكه كما هو الحال بالنسبة إلى التوجه والالتفات إلى الألفاظ فإنه يصبح ملكة أيضاً. يقول الإمام السجاد عليه السلام:

«. . . وإذا صليت فصلِّ صلاة مودّع»[1].

نحن عندما نصلي لا ندري هل نوفق أن نصلي مرة ثانية أو لا. لذلك كان الإمـام السجاد عليه السلام يقول إذا صليت فصل صلاة مودع يعني افرض أنها آخر صلاةٍ تصليهـا، لو علم الإنسان أنه لم يبق من عمره إلا بمقدار عدة ركعات ليصليها فيركز في هذه الصلاة ويجمع فكره فيها ويحاول أن يصلي صلاةً أفضل وأحسن.

في حين نحن لا ندري كم بقي من أعمارنا، لذا ينبغي أن نتصور أنها آخر صلاة نصليها، هذا التصور يجعلنا نقاوم الشيطان ونطرده، ونستفيد من اللحظات الموجودة أحسن الاستفادة، ولا شك أن هذه الحالة مؤثرة في حضور القلب طبعاً بعد الصلاة، كذلك يجب أن لا يغفل الإنسان عن الله ويدير بوجهه عنه وينشغل بأمور أخرى.

مثلاً إذا كنت بعيداً عن صديقك سنين عديدة والآن التقيت به وجلست معه وفرحت به فهل يمكن أن تقوم وتتركه وتذهب بدون توديع وبدون قول في أمان الله وغيره؟

الشخص الذي عندما يقول السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ويذهب إلى عمله مسرعاً يبدو وكأنه كان سجيناً عند ربه وكان ينتظر أن يفتح باب السجن له حتى يخرج ويُنجي نفسه منه.

لكن المفروض على الإنسان المؤمن أن يرفع يديه للدعاء بعد الصلاة ويدعو له وللآخرين. نقل النبي صلى الله عليه وآله عن الله أنه قال: من أحدث ولم يتوضأ فقد جفاني ومن أحدث وتوضأ ولم يصلِّ ركعتين فقد جفاني ومن أحدث وتوضأ وصلى ركعتين ودعاني ولم أجبه فيما سألني من أمور دينه ودنياه فقد جفوته

---

(١) بحار الأنوار ج٦٩ ص ٤٠٨.

ولست برب جاف[1].

إذن واحدة من الأمور التي تسبب توجه الله وعنايته إلينا أن يكون الإنسان دائم الوضوء والأفضل أن يصلي ركعتين بعد الوضوء وبعدها يدعو الله أن لا يكله إلى نفسه طرفة عين أبداً ويشمله بعنايته دائماً.

الوضوء والصلاة ركعتان:

كم تحتاج من الوقت وكم فيها مشقة وتعب، يقول الله سبحانه:

إذا لم أستجب له دعاءه ظلمته ولست برب ظالم، هذا سوى عنايته سبحانه والمفروض أن لا نخسر هذه النعمة بسهولة.

الذين يداومون على الوضوء، وبعد الوضوء يصلون ركعتين وبعدها يدعون يستفيدون من هذا كثيراً ومثلما يستجاب دعاؤهم حتى لو تأخر أحياناً وذلك يرتبط بصلاح الله وتقديره.

ويستمر حديث المعراج ويقول الله سبحانه: «وعجبت من عبدٍ له قوت يومٍ من الحشيش أو غيره وهو يهتم لغد وعجبت من عبد لا يدري أني راضٍ عنه أو ساخط عليه وهو يضحك...».

---

(1) بحار الأنوار ج٨٠ ص ٣٠٨.

الدرس السابع

مقامات أولياء الله

ذكر الله والتكلم معه أفضل وأحسن لذات أولياء الله

مقامات أولياء الله

جاء في بقية حديث المعراج أن الله سبحانه يخاطب نبيه ويقول:

«يا أحمد إنّ في الجنة قصراً من لؤلؤة فوق لؤلؤة ودرّةٍ فوق درّة ليس فيها قصمٌ ولا وصل فيها الخواص أنظر إليهم كل يوم سبعين مرة فأكلمهم كلما نظرت إليهم وأزيد في ملكهم سبعين ضعفاً، وإذا تلذذ أهل الجنة بالطعام والشراب تلذذوا اولئك بذكري وكلامي وحديثي.

قال: يا ربّ، ما علامة اولئك؟

قال: مسجونون قد سجنوا ألسنتهم من فضول الكلام وبطونهم من فضول الطعام».

الكلام الذي لا يفيدهم لا يتكلمون به ويمتنعون منعاً باتاً من الطعام الذي ليس فيه فائدة وليس له دور في تكاملهم ولا يقوّيهم على الطاعات والعبادات. عندما يتحدثون ففي رضا الله وأيضاً يأكلون لأجل أداء الواجب.

بالنسبة إلى الجملة الأولى من هذه الفقرة في حديث المعراج والذي ذكر فيه صفات أحد قصور الجنة يظهر ويتضح بأننا لا نستطيع أن نحصل على حقائق دقيقة وواضحة عن عالم الآخرة، ونحن مع هذه التصورات والإدراكات والتخيلات التي عندنا لا يمكننا أن نقف على حقائق وكيفية ذلك العالم. نحن كل ما يمكن أن نتصوره هو الألوان والأشكال وخصوصيات موجودة وشيء يرتبط بالأمور التي عشناها في هذه الحياة وفهمناها بحواسنا الخمسة، ومن هذه الطريقة أدركنا حقيقتها، في حين أننا لا نحس من ذاك العالم أي حقيقة لأن ذلك بعيد عن أيدينا وحواسنا فلم يمكننا دخول ذلك العالم.

الذي تبيّن لنا من خصوصيات عالم الآخرة من الروايات والآيات أنْ رسم لنا شيئاً قليلاً من ذلك العالم، ومن الشباهة المحدودة التي بين ذاك العالم وعالمنا، ومن مقايسة ذاك العالم مع العالم الترابي نحصل منه على صورة تحببنا بذاك العالم، وإلا حواسنا وقوانا الإدراكية أضعف من أن تستطيع درك حقائق ذاك العالم.

إحدى الخصوصيات التي بينها في الحديث، ونحن لا يمكننا أن نتصورها بشكل صحيح، فالقصر مصنوع من اللؤلؤ والجواهر وبشكل شفاف ولم يكن فيه أي شيء كدر يذكر. التعبير الذي جاء في الرواية حول القصر أوسع وأكثر مما نتصوره نحن. جاء في بعض الروايات حول بيوت الجنة أنها بنيت بطابوق من الذهب والفضة، وفي مكان آخر جاء أن في الجنة قصوراً يرى باطنها من ظاهرها، وهذا يكفي لكي نعلم بأن كل قصور الدنيا العظيمة منها والتي بنيت والتي لم تبن بعد هي أمام قصور الجنة بمثابة كوخ ليس إلا، وأبسط بيوت الجنة وقصورها أفضل وأحسن من قصور الدنيا بآلاف المرات. من بين تلك القصور هناك قصر خاص ساكنوه غير فرحين بأطعمة الجنة وشرابها على الرغم من أن طعام الجنة وشرابها أفضل وأرقى بكثير من أطعمة وأشربة الدنيا، وفقط فأصحاب الهمم العالية الذين يتركون لذات الحرام هم الذين يصلون إلى تلك الأطعمة والأشربة في الجنة ولكن بعض أهل الجنة لا يهتمون بهذه الأمور أصلاً، وأن طعام الجنة وشرابها أي مقدار منه أفضل من طعام الدنيا وشرابها. والقرآن الكريم يتكلم في هذا الباب ويقول: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾[1].

وفي مكان آخر يقول:

﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾[2].

---

(١) سورة الإنسان، الآية ٢١.

(٢) سورة المطففين، الآيتان ٢٥ ـ ٢٦.

ذكر الله والتكلم معه أفضل وأحسن لذات أولياء الله

على كل حال بعض أهل الجنة لا يهتمون بالطعام والشراب الإلهي المهيأ لعباده:

إذا تلذذ أهل الجنة بالطعام والشراب تلذذوا أولئك بذكري وكلامي وحديثي، ماذا حصلوا أولئك من ذكر الله والتكلم معه حيث جعلهم لا يهتمون ببقية اللذائذ؟ ومن أجل توضيح ذلك وتقريبه للذهن نأتي بمثال: إذا جلس الإنسان على مائدة وصفّت فيها أنواع الأغذية اللذيذة، يشكل كل طعام لذةً تختلف عن لذة غيره مثلاً واحد ١٠ درجات والثاني ٢٠ درجة والثالث ٣٠ درجة وهكذا، هل الإنسان العاقل يترك الغذاء الذي لذته ١٠٠ درجة ويذهب إلى غيره بدون أي مرجّح وأي دليل؟ أما إذا كان هناك شيء لذته أكثر من الأكل والشرب، والإنسان بحاجة ماسة إليه، وإذا ما كان بحاجة إلى الأكل والشرب طبعاً يختار ذلك النوع منه.

إذن ليس معقولاً أن يترك الإنسان الطعام اللذيذ ويذهب إلى غيره. وقطعاً أولياء الله ليسوا غافلين عن لذة الطعام والشراب في الجنة، فإذا تركوه فلعله هناك سبب، إلاّ أن لذة ذكر الله أكبر وأعظم من أطعمة الجنة وشرابها.

من أجل شرح وتوضيح شدّة لذة الذكر مع الله يجب أن نقول عندما كانت بطن الإنسان مملوءاً حتى لو يأكل أكلاً لذيذاً جداً فلا يستلذ من ذلك فقط بل لعله يتقيأه، فالإنسان في وقت يستلذ بالأكل إذا كان محتاجاً إليه، والجوع علامة الاحتياج، وكذلك إذا كان عطشان يستلذ من الماء البارد.

والآن يمكن أن نطرح هذا السؤال: ماذا يحتاج الإنسان أكثر؟ طبيعي أن بدننا بحاجة إلى ماء وغذاء، وهذا احتياج طبيعي وحيواني، بل أكثر من ذلك لأنه

حتى النباتات بحاجة إلى غذاء، إذن يمكن القول بأن الاحتياج إلى الغذاء هو احتياج نباتي، أما إنسانية الإنسان ليست بالبطن التي إذا خلت وهضمت غذاءها يكون احتياجها احتياجاً إنسانياً، بل وكما قيل بأن الاحتياج إلى الأكل احتياج جسماني وحيواني، وكلما صار الاحتياج أكثر إذا امّن تحصل لذة أكثر، يجب القول بأنه لا يوجد احتياج للإنسان أكثر من احتياجه إلى الله، لماذا؟ لأن كل الاحتياجات تؤمّن بواسطة واحدة من نعم الله وهذا في حين كل العالم تحقق بإرادة واحدة منه: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1].

فوجود كل عوالم الكون، ظهور إرادة الله، وإذا قطعت إرادته لحظة واحدة تبيد كل العوالم، فنحن بحاجة إلى المظاهر الإلهية مثل الشمس والماء والسماء والأرض والماء وكل ما ينبت فيها وكلها موجودة بإذنه وإرادته.

نحن إذا احتجنا إلى الهواء بالحقيقة احتجنا إلى الله الذي خلقه لنا ووضعه في خدمتنا، وإذا احتجنا إلى الغذاء في الحقيقة احتجنا إلى الله وكذلك في كل الاحتياجات التي لا يمكن التخلي عنها ولا يمكن عدّها وحدّها.

إذا استطاع الإنسان وبمساعدة الأجهزة العلمية الدقيقة والكمبيوترات المتطورة أن يحسب احتياجاته سوف تراه يحصل على أرقام عجيبة، وكل ذلك بحاجة إلى إرادة إلهية واحدة، يعني بفعل إلهي واحد وهو ظهور قليل من ذاته المقدسة غير المتناهية. إذاً كلما فكرنا وفكرنا واستخدمنا كل الأجهزة الحديثة والدقيقة والمتطورة الموجودة في العالم لا نستطيع أن نحسب ميزان احتياجنا إلى الله سبحانه، نحن إذا أدركنا أصل الاحتياج وطريقة رفعه وتأمينه سوف نعرف كم مقدار لذتنا بارتباطنا بالله، في كل شيء لو عرفنا احتياجاتنا وعلمنا أنه هو الوحيد الذي بإمكانه رفعها لنحصل على لذة تصبح بقية اللذات في مقابلها لا شيء ولا قيمة لها.

---

(١) سورة يس، الآية ٨٢.

إن أهل الجنة عرفوا هذين الاثنين جيداً وهما: ما هي احتياجاتهم؟ وأن الله هو الوحيد الذي يمكنه رفعها وعرفوا أهمية هذه الجملة التي يقولها الله «أنظر إليهم كل يوم سبعين مرة». فعندما يريد القرآن أن يبين أصعب وأقسى عذاب الساقطين، والمنافقين واللجوجين والمعاندين والذين ارتكبوا أكبر الجرائم ولم يطيعوه وكفروا به يقول عنهم: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾[1].

من هنا نفهم كم هي شدة العقوبة! وهي عدم تكلم الله معهم وعدم النظر إليهم وعكسه النظر إليهم والتكلم معهم كم هو رحمة كبيرة؟ طبعاً فهم هذا المعنى أمر مهم وجدير بالاهتمام.

الأطفال يعرفون هذه المسألة جيداً فعندما يكون هنا صحبة وصداقة وأنس بين طفلين، إذا أذّى أحدهما الثاني وأراد الثاني توبيخه وتأديبه ومعاقبته فأكبر عمل يعمله هو أن يعرض عنه، فعندما يلتقي معه لا ينظر إليه ويدير بوجهه عنه وإذا تكلم معه لا يرد عليه. وهذه للأطفال الذين استأنسوا ببعضهم تعتبر أكبر عقوبة يوجهونها وكلما صار الأنس أكثر صار العذاب آلم وأشد. ولكن مع الأسف عندما يكبر الإنسان فبدل رشد هذه الإدراكات اللطيفة تنمو عنده إدراكات حيوانية، فذاك الطفل أدرك بغطرسته أن النظر العاطفي إلى صديقه أرقى وأفضل من كل اللذات، ونحن لأننا نهتم بالبطن والحياة الحيوانية لم ندرك هذا النوع من الاحتياج ونحن غافلون عن أن أي لذة تفيدنا، وننزل أنفسنا إلى حدّ الحيوانات فصارت لذاتنا في حدود الأكل والشرب والغريزة الجنسية فحسب وغفلنا عن اللذات الإنسانية التي هي أرقى وألذ وألطف، وإذا حصّلنا شيئاً منها تركنا حتماً اللذات الحيوانية. وللأسف فقد شغلتنا اللذات المادية ومنعتنا من أن ندرك اللذات المعنوية والإنسانية، وأضحت سبب عدم

---

(١) سورة آل عمران، الآية ٧٧.

معرفة الإنسان بأن كل وجوده فقرٌ واحتياج إلى الله وارتباط به، والتي تعتبر أكبر لذة للإنسان، وأيضاً اللذات المادية سببت له أن يفكر دائماً بالحياة الحيوانية، ويبتعد عن الحياة الروحية والمعنوية وفي نفس الوقت حرمته من الترقي والتكامل، وللأسف الشديد كذلك كلما يمر الزمان بدل أن نحلّق وأن نتقرّب إلى الملكوت ونرقى أكثر من الملائكة ونحصل على مقام الأولياء أكثر ندخل في الأمور المادية مثل الحيوان البارك في الوحل، فإذا أردنا أن ننجّي أنفسنا من هذه الحالة السافلة ونتخلص من هذه الذلة، يجب علينا أن نسعى إلى تقليل علاقتنا بالدنيا.

بديهي كلما يهتم الإنسان أكثر، يأنس أكثر ويستلذ أكثر، الذين يسعون ليل نهار للحصول على الطعام اللذيذ، وعندما يسمعون في مكان ما أكلاً طيباً يذهبون إليه بدون تأخير ويوصلون إليه أنفسهم بسرعة ليزداد كل يوم اهتمامهم بالأكل والشرب، وتنحصر لذاتهم بذلك ولم يدركوا ما وراء ذلك، فإذا أراد الإنسان أن ينجّي نفسه من هذه الحالة المستبدة يجب أن يترك هذه اللذائذ، لكي يقل أنسه بالماديات ثم يتوجه لينجذب إلى ما وراء المادة واللذائذ المعنوية. فأهل الجنة في الآخرة كذلك لا يهتمون بالطعام والشراب بل هناك لذتهم بذكر الله وسماع صوته، لذتهم في مشاهدة آثار الرحمة الإلهية وأنهم شملتهم عناية الله ويتكلم معهم ويسأل عنهم. الذين لا يهتمون بطعام الجنة وشرابها واللذائذ الأخرى في الآخرة هم أنفسهم ما كانوا يهتمون بها في الدنيا، وإلا إذا كانوا ممن يهتم بالأكل والشرب تراهم في الآخرة كذلك يهتمون بالطعام والشراب، لأن رغبة الإنسان في الآخرة تسمو على مثل رغبته في الدنيا، اللذات التي تعطى بالآخرة هي مثل حالات سنخ ورغبات ولذاته الدنيوية، يقول الله سبحانه في قرآنه المجيد:

﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا...﴾[1].

إذا النعم التي تعطى للإنسان في الآخرة مثل النعم التي كان يحبها في الدنيا، لأنه إذا أعطي نعمة وكان لم يتذوقها بعد لم يعرف قيمتها ولم يعتبرها نعمة (نعمة كل شخص هي التي كان يحبها) ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ...﴾[2].

فالأنبياء الذين كانت لذتهم في الآخرة هي التكلم مع الله حيث لم يكونوا في الدنيا متعلقين حتى بالنعم المحللة، لأنهم كانوا يسعون وراء اللذات الأكبر حجماً وكانوا يوفرون ويؤمنون الطعام والغذاء الروحي.

﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا...﴾[3].

المؤمنون الذين يحبون أن يتكلموا مع الله وكانوا يعشقون ذلك وما كانوا يحبون التكلم مع الناس ويخوضون في الكلام اللغو، حتى لو لم يكونوا في الدنيا عندهم هذه الأهلية، ولكنهم في الآخرة يحصلون على ما كانوا يأملون، البعض عندما يدخلون في مجلس ينتظرون حدوث كلام حتى يتكلموا، والبعض إذا صارت عندهم فرصة ولم يكن هناك مانع ينزلون على المائدة نزلة كافرة ويستلذون من الحلويات والأطعمة اللذيذة. وفي مقابل هؤلاء هناك أشخاص عندما يختلون في مكان تراهم يرتاحون وينشغلون بمناجاة الله سبحانه. ولكنهم عندما كانوا مشغولين بواجباتهم في المجتمع ما كانوا يتوجهون بالشكل الكامل إلى الله، ولكنهم لو حصلت لديهم فرصة يأخذون بمناجاة محبوبهم. من هنا عندما يسأل النبي ﷺ «ما علامة أولئك؟».

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٥.

(٢) سورة الزخرف، الآية ٧١.

(٣) سورة النساء، الآية ١٦٤.

يجيبه الله «قد سجنوا ألسنتهم من فضول الكلام وبطونهم من فضول الطعام».

إذا تكلم هؤلاء لكان كلامهم مرضياً عند الله، وإذا أكلوا لا لأجل لذته، بل لأجل أنه مرضي عند الله وبسببه يستطيعون أن يطيعوا الله ويعبدوه.

الدرس الثامن

لزوم محبة الفقراء والمساكين ومصادقتهم

خصوصيات الفقراء والمؤمنين وأولياء الله

الغنى والفقر وسائل للامتحان

الجلوس مع الفقراء

لزوم محبة الفقراء والمساكين ومصادقتهم

«يا أحمد، إنّ المحبة لله هي المحبة للفقراء والتقرّب إليهم. قال ومن الفقراء؟

قال: الذين رضوا بالقليل وصبروا على الجوع وشكروا على الرخاء ولم يشكوا جوعهم ولا ظمأهم ولم يكذبوا بألسنتهم ولم يغضبوا على ربهم ولم يغتموا على ما فاتهم ولم يفرحوا بما آتاهم.

يا أحمد، محبتي محبة الفقراء فادنِ الفقراء وقرّب مجلسهم منك وابعد الأغنياء وابعد مجلسهم عنك فإنَّ الفقراء أحبائي».

خصوصيات الفقراء والمؤمنين وأولياء الله

١ ـ «الذين رضوا بالقليل».

إن البعض وحتى وإن كانوا فقراء لكنهم طماعون ويحبون أن يصيروا أثرياء ويتمتعوا بالدنيا، وإذا حصّلوا ذلك استفادوا من نعم الدنيا كثيراً، ولم يرضوا بالقليل، فمحبة مثل هؤلاء الفقراء غير مرغوب فيها، بل المرغوب فيها هي محبة الفقراء، والتي تعتبر محبتهم محبة الله، وهم القانعون بالقليل من الدنيا ولم يطمعوا بأموال الناس وبلذائذ الدنيا الكثيرة.

٢ ـ «وصبروا على الجوع».

بعض الفقراء دائماً يشكون وعلى الله يعتبون بأننا ما هو ذنبنا إن أفقرتنا (ابتليتنا بالفقر) ولكن البعض إذا ابتلوا بفقر يكون ابتلاؤهم بالفقر ليس هو بسبب القصور الذي ارتكبوه، وإلا كانوا آثمين ومذنبين، بل العوامل الخارجية والحوادث الطبيعية هي التي سببت فقرهم؛ جاءتهم عاصفة وهدمت بيوتهم ودمرت حياتهم، وعلى الرغم من فقرهم لم يصلهم الطعام الكافي والإمكانات اللازمة، ولكنهم لا يشكون ولا يشتكون ويصبرون على ذلك الفقر، وحتى أنهم يسعون في إخفاء فقرهم ولا يعرف الآخرون وضعهم.

﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾[(١)].

٣ ـ «وشكروا على الرخاء».

عندما يعطيهم الله نعمة ويعيشون في سعة الحياة وراحتها لم ينسوا الله بل يشكرونه.

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٧٣.

٤ ـ ولم يشكوا جوعهم ولا ظمأهم.

هذه الصفة من لوازم الصبر ونتيجة له، عندما يصبر الإنسان ويتحمل لم يشكُ أمام الناس من جوعه وعطشه.

٥ ـ «ولم يكذبوا بألسنتهم».

بعض الفقراء يكذبون لأجل أن يأخذوا مساعدة من الآخرين تراهم يعظمون الأمور، ويبالغون في مشاكلهم ويصورون المشكلة بأضعاف مضاعفة، لكي يستميلوا قلوب الآخرين ورحمتهم. طبيعي أكثر الفقراء معرضون لذلك وعندما يطلبون شيئاً يكذبون، أما الفقراء الذين هم محبوبون عند الله لا يكذبون إطلاقاً.

٦ ـ «ولم يغضبوا على ربّهم».

عندما صبروا على الفقر والفاقة ولم يشتكوا منه لا يغضبون على الله أيضاً. لا يشكون قط عند الناس ولا يظهرون الفقر، وفي قلوبهم كذلك لا يعتبون على الله، أما أن تكون معرفتهم بالتوحيد وصلت إلى حد يعلمون بأن التقدير الإلهي في مصلحة المؤمن، وإذا وصلت معرفتهم إلى هذا الحد على الأقل يعلمون بأن الشكوى من الله غير لائقة بالمؤمن.

٧ ـ «ولم يفرحوا بما آتاهم».

الخصوصيتان الأخريان أهم من كل الخصوصيات وبمعنى قول الله سبحانه ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾[1] بالنسبة لهم ملكوا المال أو لم يملكوا سواء عندهم لعدم تعلّقهم بالدنيا.

ثلاث آيات من سورة الحديد ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا

(١) سورة الحديد، الآية ٢٣.

فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَىٰكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ ﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾.

كل الآيات تتكلم عن موضوعنا وأكثرها آية (٢٣). بشكل إذا حصلوا شيئاً لم يفرحوا ولم يغتروا به وإذا فقدوا شيئاً لا يتأسفون عليه بشكل يستطيع السيطرة على أنفسهم وأعصابهم، لأن هذه الصفة هي من علامة الأشخاص الضعيفي الإيمان.

الغنى والفقر وسائل للامتحان

يجب أن لايعتني المؤمن بالدنيا، لأنه إذا حصل الدنيا فهي نعمة الله، ووسيلة لامتحان الإنسان وإذا أُخذت منه جاءه امتحان آخر وبلاء، يجب الصبر عليه.

طبعاً الصبر للفقراء ليس بمعنى أنه لا يسعى الإنسان لرفع الفقر، بل بمعنى ما دام الفقر لم يرتفع لا يشتكي منه ولا يفقد صوابه. قيل في شرح الفقرة الأولى من الحديث: إن الله سبحانه قدّر للعباد تقديرات هي على أساس الحكمة والمصلحة، وهذه التقديرات لا تنافي انتخاب واختيار الناس، يعني ليس كذلك بأن الناس مجبرون، ومسلوبو الاختيار. الظروف تحكم على أنه كل واحد يعطى له قسم وحصة من النعم، والله يرى المصلحة في تقسيم ذلك، (والله يعطي كل شخص ما يراه صالحاً له) وبدون شك فإن كل ذلك هو وسيلة لامتحان الإنسان.

المؤمن مطمئن بأن صلاحه وخيره هو الذي قدره الله له، فإذا أعطيت الدنيا كلها له فهي خير، وابتلاؤه بتعذيب وظلم الظلمة يخلق لديه حسن الظن بالله بشكل يعتقد بأنه خير له، ويعتبر أن هذه البلايا تكفير لذنوبه ورفع لدرجاته، على خلاف تصور قاصر النظرة فإذا ابتلى الله الإنسان بالفقر فهو ليس عدواً له، وإذا أعطاه ثروة هائلة فهي ليست من طريق محبة الإنسان الجاهل الذي لا يملك شيئاً من معارف الدين وتعاليم الأنبياء، عندما يبتلى بالفقر يقول: حقّرني ربي وأنا حقير عنده حيث أفقرني.

آيتان من سورة الفجر ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾[1].

---

(١) سورة الفجر، الآيتان ١٥ ـ ١٦.

يعتبر القرآن الفقر والغنى وسيلة للامتحان ولكنه يعتبر ذلك بسبب علل وعوامل، لعله الذين ابتلوا بالفقر، كان فقرهم بسبب أعمالهم القبيحة وهو جزاؤهم الدنيوي لأنهم ما كانوا يرحمون الفقراء بل كانوا يجمعون المال ويفتخرون بأموالهم. كل واقعة فيها حكمة ومصلحة وحساب فهي ليست خارجة عن الاختيار الرباني، أو أن الله بغافل عنها، أو الأوضاع تدهورت فجأة بركان تفجر ودمّر مدينة أو مطرت السماء مطراً غزيراً وسال السيل وهدم بيوت العالم (وكل ذلك صار في غفلة من الله) المؤمن معتقد بأن الله قادر على كل شيء ولم يخرج من دائرة إرادته وعلمه وإذنه شيء وتدبير الموجودات صغيرة كانت أو كبيرة فهي في يده سبحانه جل وعلا.

﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾(1).

إذاً فكل الوقائع المفرحة منها والمحزنة هي ضمن حساب، ولكن نحن لا نعلم بها، وينبغي أن لا نعلم بها لأن كل ما يقع هو لأجل الامتحان، وإذا عرفنا العلة لا يُعطى الامتحان فائدته، يجب أن يكون امتحان الإنسان الضعيف فيه إبهام. لعله الإنسان القوي، يعلم مسبقاً بكيفية الامتحان والاختيار ومع ذلك لا يفرق عنده شيء لأنه يستطيع ذلك، وأيضاً إذا علم مُسبقاً بما يجري عليه من مصائب لا يضر بحاله شيئاً. إن الله سبحانه أعطى لأنبيائه وأوليائه علوماً، فهم على أساسها يعرفون مسبقاً ماذا سيقع عليهم وعلى الآخرين، وهذا العلم لا يضرهم شيئاً، طبعاً أولئك لا يخبرون الناس بعلومهم.

الاهتمام بنقل الأمور والمسائل لا تضر بالحكمة والمصلحة الإلهية والعلم بها لا تضر بهم ولا بالمخاطبين مثال: عندما يريد الأستاذ أن يمتحن تلاميذه، فإن الطالب الشاطر والعارف بالدروس معرفته وعدم معرفته بأسئلة الامتحان عنده سواسية، فالأنبياء والأولياء يعلمون من قبل ابتلاءات الله لهم فإن هذا

---

(1) سورة السجدة، الآية ٥.

العلم لا يفرق على عملهم شيئاً، لأنهم يعملون بواجبهم وما يرضي ربهم، ولكن الآخرين ليسوا كذلك لأنهم إذا علموا بمورد امتحانهم اهتموا بذاك المورد فقط وتركوا الأمور الأخرى، لذا فالمصلحة تقتضي أن تبقى امتحانات العموم في إبهام. على الرغم من أننا لا ندري لماذا يقدر الله للبعض الغنى وللبعض الآخر الفقر؟ فيجلب للبعض الأمراض والبلايا فلم ينتهوا من مصيبة إلاّ وتأتيهم مصيبة أخرى، وللبعض الرفاهية والعيش الرغيد، ولكن إجمالاً نعلم بأن ليس من أعطي نعمة أكثر في الدنيا محبوب عند الله، وليس من ابتلي بالفقر والمصائب مبغوض عند الله بل العكس فكلما أحبَّ الله عبداً أكثر ابتلاه. جاء في رواية للإمام علي عليه السلام:

«البلاء للظالم أدب وللمؤمن امتحان وللأنبياء درجة وللأولياء كرامة»[1].

ويقول الشاعر:

في هذا الحفل من كان متقرّباً أكثر
يعطى كأس البلاء أكبر

إذن الميزان للعزيز والذليل عند الله ليس الغنى والفقر، ولكن الميزان للعزيز عند الله هو من يعمل بواجبه ووظيفته، فإذا كان ثرياً بالنسبة إلى ماله يعمل بواجباته، وإذا كان فقيراً واجبه أن يتحمل الصبر ويعمل بالشكر.

يقول الله سبحانه:

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[2].

كل الحوادث مثبتة في لوح الله المحفوظ وتقع على أساس النظم والتدبير

---

(١) بحار الأنوار ج٦٧ (باب ٣) ص ٢٣٥.

(٢) سورة الحديد، الآية ٢٢.

الإلهي الحكيم. بديهي ليس صعباً على الله أن ينظّم الحوادث ويدبّرها قبل آلاف السنين، أضف إلى ذلك على أساس ما فهمنا من المعارف الدينية أن الزمان ليس له دور عند الله في مجال الفعل، الإرادة والعلم الإلهي، وفي حدود وجوده ليس للزمان طريق، (الزمان له دور في محيط حركة الموجودات المادية، ولأجل تعيين مقدار حركتها وفي حدود وجود المجردات ليس له دور). لله سبحانه أمس واليوم وغداً شيء واحد، لا فرق لديه أن يقدر لأمر مسبقاً أو في حينه. نحن الذين لا نقدر أن نرسم لأنفسنا منهجاً يقينياً ومنطقياً غير مطمئنين ماذا يقع في يوم غد، وأيضاً لا نعلم ليوم غد، هل نحن أحياء أو لا؟ هل نحن نبقى سالمين كي نحقق مناهجنا أو لا؟. وأيضاً لا نعلم شرائط العمل الذي نريد أن نعمله أو لا.

ولكن لا يصعب على الله شيء، وكل العالم حاضر لديه في آن واحد، كل موجودات العالم وحوادث عالم الخلقة، من ملايين السنين الماضية إلى ملايين السنين الآتية بشكل مساوٍ حاضرة عند الله.

لو أخذنا المطالب السابقة بنظر الاعتبار، عندما تصل نعمة إلى الإنسان لا يجوز له أن يغتر بها لأنه كل شيء محسوب ونُظم وفق منهج دقيق ولأجل امتحان هذا الإنسان. وأيضاً إذا أصابته مصيبة لا يفقد صوابه لأنه كل ما وقع لمصلحته.

إن الله سبحانه يريد أن يصل الإنسان إلى الكمال المعنوي والروحي، ومن علامات الكمال والإنسان الكامل أن لا يكون حساساً من وجود وعدم وجود هذه النعم، طبعاً ليس الأمر سهلاً أن يكون وجود وعدم وجود النعم واحدة، ولكن على الأقل أن نسعى بأن لا نفرط في إبراز وإظهار حالاتنا الداخلية.

لا أتصور لو وضعوا الدنيا في اختيارنا كما لو أخذوا منا كل الدنيا يكون سواء، ولم تغير في أحوالنا شيئاً، فنحن نندهش إذا ذهب قسم قليل من أموالنا في حين نحن لا نفهم، ماذا صار لو عدم كل وجودنا وقضي علينا. على الأقل علينا أن لا نحزن كثيراً بل نتحمل المصائب حتى لا نفقد صوابنا.

نحن كلما قربنا من تحمل هذه الروحية علينا أن نكون صابرين أمام المشاكل، وأن لا نغتر أمام النعم علينا أن نكون عند الله مقربين وعزيزين عليه ولتكمل روحنا أكثر، وإذا ما كنا كذلك وتعلقنا بنعم الدنيا أضحينا عبيداً لها وقلقنا بالأمور الزائلة والفانية للدنيا، فهذا هو ضعفنا.

إن الله يريد أن يكملنا وأن ينجّينا من التعلق بالأمور الحقيرة للدنيا لكي نتحرر من أسرها، ومن جملة طرق التحرر هو أن نعرف أن مصائب الدنيا كلها على أساس الحساب والقضاء والقدر الإلهي، ولا يقع شيء بدون دليل وبدون حساب.

الجلوس مع الفقراء

«يا أحمد، محبتي محبة الفقراء فادنِ الفقراء وقرّب مجلسهم منك»، الفقراء الأحرار والنزيهون وغير المعتنين بالدنيا ومظاهرها هم أحباب الله، ومحبتهم محبة الله، وهم الذين ذكرت صفاتهم السامية، وخصصوا بالصفات العالية. الله سبحانه يأمر نبيه ﷺ فيقول له: عاشر هؤلاء الفقراء واحضر مجلسهم وقرّبهم إليك، إذا دخل عليك فقير وغني اجلس الفقير إلى جنبك ولا تطردهم ولا تبعدهم عنك أبداً، وأحبهم ما استطعت لكي أقربك إليّ وتدنو مني أكثر «وابعد الأغنياء وابعد مجلسهم عنك فإن الفقراء أحبائي».

وهنا يطرح سؤال وهو لماذا اهتم الله بالفقراء بهذا المقدار، في حين أن بعض الفقراء غير صالحين وغير مؤمنين، وبعض الأغنياء من المتقين المؤمنين؟ ونجيب على ذلك ليست المحبة لكل فقير فيها له هذه المزية وهذا الامتياز، وكما مر جواب الله لنبيه ﷺ المحبة للفقراء هي محبة الله، أولئك الذين عندهم تلك الخصوصيات، وبديهي أن الغني والثري الذي يتصف بتلك الصفات محبته كذلك محبة الله إذا عاش بالرفاه ووفور النعمة وشكر الله ولم يغتر، وكذلك إذا فقد النعمة لم يقلق، ولم ينفد صبره.

ويوجد أشخاص بين الأنبياء والأولياء، إلهيون، كالذي صار ثرياً وغنياً ولكن لم يتعلق بثروته فوجود الثروة وعدمها عندهم سواسية، وكانوا يصرفون المال في طريق صحيح.

إذن ليس محبة كل فقير تعني أن نطرد كل غني عن هذه الساحة. إذن ملاك الحسن والقبح والقريب من الله والبعيد منه امتلاك وعدم امتلاك تلك الصفات التي ذكرت للفقراء المحبين لله. فلماذا يؤكد الله سبحانه على الفقراء؟ وقال: محبتي من محبة الفقراء ولم يقل محبتي من محبة الصالحين والصابرين والذين

رضوا بالقضاء الإلهي والمتوكلين عليه. لذلك إن الأغنياء والأثرياء هم الأكثر في معرض الفساد والانحراف والطغيان، وعندهم عوامل الابتعاد عن الله أكثر كما قال الله سبحانه:

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴾[1].

من كان عنده مال كثير لعله يعتمد على ماله ويفتخر به، ولكن الفقير لا يملك مالاً حتى يتكبر به، وأكبر الفساد وأصل الكفر والعناد والشرك هو الكبرياء والغرور الذي يبتلى به الغني.

من هنا ترى الأغنياء يبتلون أكثر بالفساد والانحراف الأخلاقي خصوصاً ذوو الكبرياء والغرور والله سبحانه يقول في ذلك، آية ٢٣ من سورة الحديد:

﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ﴾.

فالله يحب الناس المتواضعين في مقابل كل مختال فخور. وأكثر الأغنياء مبتلون بالكبر والغرور، ويمكن القول بأن أكثر الناس الطيبين والمؤمنين هم من الفقراء، لذا فإن الله سبحانه يحب الفقراء إلاّ الذين عرفوا بالكفر منهم وابتلوا بالعصيان والفساد.

وإذا قال: أحبوا الأغنياء إلاّ المسيئين يلزم تخصيص الأكثر، لأن أكثرهم مسيئون ومبتلون بصفات غير لائقة وغير مناسبة ومن ناحية أخرى يمكن أن يكون الغني مؤمناً ولائقاً ومناسباً ولكن تكون محبتنا له ليست فقط لله ولصفاته الحسنة بل هناك جهات أخرى تكون لها دخالة في المحبة، كأن تكون المحبة ليست خالصة لله، أو على الأقل تكون المحبة مشوبة بجهات أخرى، لأن الأغنياء عندهم أكثر من جاذبية والتي هي من الجاذبيات الدنيوية والمادية نظراً لغناهم وثرائهم.

---

(١) سورة العلق، الآيتان: ٦ ـ ٧.

الإنسان بحسب طبيعته ونظرته السافلة والابتدائية يعتبر المال والثروة ذات قيمة واعتبار، وطبيعي عندما يلتقي بغني يحترمه ويكرمه من أجل ماله، لأن في داخله وذاته حب المال، ويعتبره مهماً وذا قيمة وبشكل طبيعي يعظّمه ويجلّه ويخضع له ويهين نفسه من أجله. يجب على الإنسان أن يكون مؤدباً ومهذباً فإذا التقى به مؤمن ثري أن يفضل الإيمان عن الثروة ويحبه من أجل إيمانه لا من أجل ماله وثروته فإذا كان كذلك فإن حبه له يكون من أجل ارتباطه بالله فلازم ذلك أن يحب الفقير الذي يكون إيمانه أكثر وإن كان ظاهره غير حسن.

إذاً التأكيد على حب الفقراء لأجل أنهم أكثر ارتباطاً بالله، ومن ناحية أخرى إذا كان بين الأغنياء مؤمنون فيكون حبهم غالباً ليس خالصاً لله بل هو مشوب بأغراض مادية، فإن الله يأبى الحب غير الخالص لأن ما يملكه كل شخص هو من الله والآخرون لا يملكون شيئاً حتى تكون محبتهم في عرض محبة الله وشريكة لمحبة الله تعالى شأنه.

الدرس التاسع

عدم التبعية للأهواء النفسية

الناس والأهواء النفسية

عدم التبعية للأهواء النفسية

«يا أحمد، لا تزيّن بلبس اللباس وطيب الطعام ولينِ الوطاء فإن النفس مأوى كلّ شر ورفيق كل سوءٍ تجرها إلى طاعة الله وتجرُّك إلى معصيته وتخالفك في طاعته وتطيعك في ما تكرهُ وتطغى إذا شبعت وتشكو إذا جاعت وتغضب إذا افتقرت وتتكبر إذا استغنت وتنسى إذا كبرت وتغفل إذا آمنت وهي قرينة الشيطان. ومثل النفس كمثل النعامة تأكل الكثير وإذا حمل عليها لا تطير وكمثل الدّفلى لونُه حسن وطعمُهُ مرٌّ».

وفي هذا القسم من الحديث، يحذّر الله سبحانه نبيّه الأكرم ﷺ من إطاعة النفس، والجميع يعرفون بأن النبي الأكرم معصوم ولم يقع في معرض الإنحراف وإطاعة النفس. فعصمة الأنبياء قرينة الهداية الإلهية، والإلهامات والوحي الإلهي الذي يعطيهم الله إياه يوجب عصمتهم ولولا أن الله أعطى العلم والعصمة للأنبياء لما كان عندهم شيء، وهذا البيان لتعليم الآخرين، كل الناس عليهم في كل الأعصار أن يستفيدوا منه في مسيرهم التكاملي.

محور هذا القسم من الحديث عدم التبعية للنفس، فما هو القصد من النفس؟ والذي جاء التأكيد عليه في الأخلاق والمواعظ أن يخالف الإنسان نفسه، ولا يسمح لها أن تتسلط عليه، أو جاء في الحديث: «أعدى عدوّك نفسك التي بين جنبيك»[1].

النفس هي المشترك اللفظي في الحكمة والفلسفة، وهي مساوية للروح الآدمية، وكان مسلماً في الأخلاق أنها بهذا المعنى، لأن الروح لها رغبات كثيرة، والعقل من شؤونه الميولات المتعالية للإنسان والفطرة الإلهية، وأساساً

---

(١) بحار الأنوار ج٧٠ ص ٦٤.

فإن الروح شريفة جداً تنسب إلى الله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾[1].

إذاً النفس التي جاء ذمّها ليست الروح بل شيء يقابل العقل، ولذا يشاهد عادة في الكتب الأخلاقية وكلمات العلماء عندما تطرح مسألة الحرب بين النفس والعقل، وإنّ الإنسان وفي هذا الصراع مرة يكون مع النفس ومرة يكون مع العقل، والاثنان من شؤون الروح: عندما تكون روح الإنسان مائلة إلى الأخلاق الحيوانية والطبيعة والماديات لأنها عندها هذه الميول تسمى نفساً، وعندما يكون لها ميول إلى التعالي والعروج من العالم المادي والتقرب إلى الله والكمالات العالية الإنسانية يصطلح عليها بالعقل، وطبعاً هذا العقل غير ذلك العقل الذي يطرح في الفلسفة.

وعلى كل حال فإن المقصود من النفس التي هي عدوة الإنسان ذاك القسم من الميول الذي يكون مانعاً من ترقي روح الإنسان والتقرب إلى الله.

جعل الله روح الإنسان في مكان يمكنها أن تنزل الإنسان وتسقطه وتعليه وتعرج به إلى الملكوت. وفي علم الأخلاق والروايات يمكن للنفس أن تكون عاملاً ينزل الإنسان بما تودع عنده الخصائص السافلة والساقطة، وفي مقابلها الميول التي توجب استعلاء الإنسان التي يكون مصدرها العقل الذي يعرج بالروح ويقربها من الله. وطبق هذا التعريف يجب على الإنسان أن يسعى في الحذر من النفس التي هي عامل سقوطه وأن يبارزها ويتسلط عليها.

الإنسان فطرياً يطلب الكمال، ويجب عليه عقلاً أن يصل إلى المراتب العالية للكمال، فهو موظف شرعاً بأن يسير إلى الله ويتقرّب إليه، وطبيعي عليه أن يبارز في مقابل ذلك كل عامل يكون موجباً وسبباً لسقوطه ونزوله.

فإذا أعطي الإنسان مجالاً لهذه الميول: تكون ميوله أقوى يوماً بعد يوم إلى

---

(١) سورة الحجر، الآية ٢٩.

اللباس، والأكل، والتجمل وهي من زينة الدنيا. وكلما أعطى الإنسان مجالاً لميوله أكثر كلما استأنس بها أكثر، وشيئاً فشيئاً يشتد ميوله إليها أكثر، وطبعاً هذا المعنى ثابت بالتجربة، وكما في شهر رمضان عندما يصوم الإنسان وبعد عدة أيام فإنه يتعود على الجوع، وبالتدريج يقل عنده الميل إلى الطعام، وبعد شهر رمضان تراه ليل نهار يذهب وراء الأكل والشرب ويكون ميله أكثر إلى الأطعمة والأشربة.

هذا المعنى صادق بالنسبة إلى الشهوات النفسانية والتمايل إلى إرضاء الغرائز الجنسية، مثل الشاب المؤمن الذي لم يتزوج بعد وقد صمّم على أن يقف أمام طغيان شهوته، فهذا العمل سهل عليه، لأنه تعوّد عليه، ولكنه عندما يتزوج يكون معرضاً أكثر للمعصية. إذاً على الشباب المؤمنين الذين تزوجوا حديثاً عليهم أن يراقبوا أنفسهم كثيراً، ولا يتصوروا أنهم وجدوا طريق الحلال ولم يرتكبوا بعد حراماً أصلاً، على العكس في ذلك الحين ترى الشيطان يوسوس أكثر، لأنه فتح أمامهم طريق الحلال وذاقوا اللذة بها، ويوماً بعد يوم تشتد ميولهم إليها، وهكذا سائر الأهواء النفسية، يتضح للإنسان عن طريق التجربة أنه كلما أعطى للنفس مجالاً وأعطى النفس مناها طلبت أكثر وازدادت ميولها أكثر.

وهذا المعنى صادق أيضاً في المسائل المعنوية: ففي بداية الأمر يكون صعباً على الإنسان أن يصلي صلاة الليل، حتى إذا قام على صوت جرس الساعة يرجع وينام، وإذا قام من النوم ليصلي هذه الصلاة صلاّها وهو كسلان ويصليها بدون توجه وانتباه ووعي، وشيئاً فشيئاً عن طريق التمرين والتلقين والاستمرار في هذا العمل يعتاد عليه ويهون الأمر لديه بشكل إذا لم يقم في ليلة لصلاة الليل يتأذى وكأنما قد فقد شيئاً. إذاً طريق تقوية إرادة الإنسان والابتعاد عن هوى النفس لتمرينها على عدم استجابة هواها في الأمور غير المحللة، طبعاً يجب أن يكون التمرين بشكل يمكن أن يستمر عليه الإنسان، لا أن يبدأ بعمل شاق ولا يستطيع أن يستمر عليه وشيئاً فشيئاً يخالف نفسه، في أول الأمر يخالفها بالأمور المحدودة القليلة بعد مدة يتسلط عليها بحيث لا يلبّ مطالبها وميولها الحيوانية ولذاتها

الفانية فالباري تعالى يوصي حبيبه أن لا يجيب كل طلبات النفس ولا يسرف من الأغذية اللذيذة ولا ينام في الفراش الناعم ولا يلبس الألبسة الجميلة، لماذا؟ لأن التعود على هذه الأمور تسبب بالتدرج ارتكاب الحرام.

فالإنسان إذا ذهب كثيراً وراء لذات الحلال في بادىء الأمر يقع بالمكروهات، ثم ينجر إلى الحرام كما قيل: «من حام حول الحمىٰ يوشك أن يقع فيها»[1].

جاء في روايات عديدة بأن المستحبات هي حدود وحارسة للواجبات، بمعنى إذا أراد الإنسان أن لا يترك واجباته يلزمه مضافاً للواجبات أن يعمل ببعض المستحبات لكي لا يترك واجباته، والمكروهات حدود وحارسة للمحرمات، يعني يجب على الإنسان ترك المكروهات لكي لا يبتلى بالمحرّمات، في الواقع تكون المكروهات برزخاً وحدوداً بين الإنسان وبين المحرمات، والله سبحانه وضع هذه الحدود لكي لا يقع الإنسان بالحرام، ومن ناحية أخرى عندنا توصيات بالعمل بالمستحبات حتى لا نترك الواجبات مضافاً إلى ذلك بأن نوافل صلوات الواجبة وضعت لكي ترفع النواقص الموجودة في الواجبات.

---

(١) بحار الأنوار ج٧٣ ص ٢٩.

الناس والأهواء النفسية

ينقسم الناس في قبال الأهواء النفسية إلى عدة أنواع:

القسم الأول: البعض يعملون ما يحبون وما يشتهون، وليس هناك أمامهم مانع يمنعهم، يذهبون وراء لذاتهم المادية دائماً، ويفضلون الحياة الدنيا على الآخرة. والقرآن الكريم يقول حول هذا القسم من الناس:

﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٢ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ...﴾(١).

إن الإنسان إذا ذهب وراء الماديات والتمايلات النفسية ولا يريد أن يتركها، تكون منشأ للكفر، فالدين يقول: اترك هذه الأهواء، ولأن الإنسان لا يريد تركها لذلك لا يريد الدين، لكي يرتكب أي عمل براحة كاملة. إذن هذا القسم من الناس من أجل تمايلات أنفسهم لا يعرفون لذلك حدوداً وشروطاً، يقول تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾(٢).

القسم الثاني: البعض يعرفون ويضعون لميولهم وأهوائهم حدوداً ويسعون في الاجتناب عن المحرمات ولكنهم لا يمتنعون بالنسبة إلى إتيان سائر طلبات ورغبات النفس، مثل المكروهات، المشتبهات، والمحللات، وأصحاب هذا القسم ينقسمون إلى عدة أنواع:

النوع الأول: يبتعدون عن الكبائر، وبعض الأوقات يرتكبون الصغائر.

ونوع آخر أحياناً يرتكبون الكبائر. بعض هؤلاء بعد ارتكابهم الذنب يتوبون

---

(١) سورة ابراهيم، الآيتان ٢ ـ ٣.

(٢) سورة القيامة، الآية ٥.

فوراً والبعض الآخر لا يتوبون ويصرون على الذنب، ولكن على كل حال هؤلاء يحاولون الابتعاد عن المحرمات.

القسم الثالث: الذين هم يعتبرون الأصل هو مخالفة النفس إلا في الأمور التي يكون فيها رضا الله في مخالفة النفس وذلك من أجل رضا الله لا إطاعة هوى النفس.

الأصل في حياة هؤلاء هو مخالفة كل شيء تطلبه النفس، وفي كل عمل يعتبرون المعيار رضا الله سبحانه، طبعاً هؤلاء على أنواع وأقسام ولعله لا يمكن حصرهم.

هدف الأنبياء بالدرجة الأولى أن يذهبوا إلى أبعد الحدود، يعني يتركون هوى النفس والابتذال والإساءة للنفس، والناس إذا لم يتركوا هذه المرتبة لم يكن لهم ارتباط مع الأنبياء وخط الأنبياء، فإذا لم يكن الإنسان مستعداً ولم يضع حداً لأهوائه وطلبات نفسه كيف يمكنه أن يكون مطيعاً للأنبياء؟

وإجمالاً يجب أن يضع الإنسان لنفسه حداً لكبح شهواته ويسيطر على نفسه وهواه، ولا يعمل كل ما أراد وأحب، في حين من هذه المرحلة إلى تلك المرحلة التي لا يعمل شيئاً إلا بإذن الله ورضاه فاصلة شاسعة.

المؤمنون بحسب مراتب إيمانهم يسيرون بين هاتين المرحلتين وبينهما مراتب لا تعد ولا تحصى. حتى الأنبياء لهم مراتب مختلفة[1]، وعلى رأس الأنبياء وأولياء الله هو الوجود المقدس لخاتم الأنبياء ﷺ وفاطمة الزهراء عليها السلام والأئمة الاثني عشر عليهم السلام، وسائر الأنبياء يأتون بمرتبة أقل. إن هؤلاء الأنوار الأربعة عشر الطاهرة والذين هم من نور واحد هم على رأس هذا الهرم ويملكون أرقى المراتب.

---

(١) وفضلنا بعض النبيين على بعض (المترجم).

يجب على الإنسان المؤمن أن يسعى في ترقي نفسه من المراتب السافلة ليصل إلى المراتب العالية وهذا يرتبط بهمة الإنسان وتوفيق الله له فليس لشخص تقدير العواقب فلا نعلم ماذا ستكون عاقبته؟ إن البعض تعدوا حد الصفر وترقوا ووصلوا إلى مراحل عالية، وفي المقابل البعض وصلوا إلى مراتب عالية للإنسانية وإلى قمة الكمالات ثم سقطوا إلى الحضيض (طبعاً للذي وصل إلى المراتب العالية أخطار أعظم وأكبر)، لأنه إذا كان الشخص في المرتبة الدانية وسقط لا يضر بحاله كثيراً كمثل الإنسان الذي تجرح رجله، ولكن الشخص الذي وصل إلى القمة يهلك إذا سقط.

إن أكثر التعاليم الأخلاقية للأئمة سلام الله عليهم لأجل أن ينبهوا الإنسان إلى حساسيّة القضية وخطورتها بأن إطاعة النفس الأمّارة بالسوء والعمل بما يريد يؤدي لسقوطه ويبعده عن الله لأنه إما أن يتبع الإنسان قلبه أو يتبع ربّه، ولا يجتمع هذان الاثنان. الإنسان كلما عمل بإرادة قلبه، ابتعد عن ربه، وكلما عمل من أجل الله وخالف هواه تقرب إلى الله.

طبعاً يوجد بعض الناس يخالفون كثيراً من أهوائهم لكي يصلوا إلى إرادة أكبر، وتلك لا قيمة لها، كذلك البعض يظهرون الزهد، يأكلون قليلاً، يلبسون الملابس الرثة، يختارون بيتاً حقيراً وصغيراً ويتركون المقام والمثال حتى يُعرفوا بالزهد والقداسة.

ولعلهم غافلون عن حيل النفس ومكائدها ويتصورون بأنهم صاروا أناساً مؤمنين ولائقين: أهل العبادة والتقوى والذكر، أكثر الأوقات صائمون، ولا يختارون بيتاً جيداً ويتصورون أنهم ترقّوا ووصلوا إلى الكمالات، ولكن تصورهم هذا سبب هلاكهم. هذا الغرور الذي جعلهم يتصورون أنفسهم أفضل من الآخرين أضحى سبب هلاكهم، هؤلاء تضرروا أكثر من الآخرين؛ لأن الذين ذهبوا وراء لذات الدنيا على الأقل تمتعوا بالدنيا أياماً، هؤلاء سيئوا الحظ فهم

فقدوا لذات الدنيا وهم الآخرة! كما نقرأ في القرآن الكريم: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾(١).

العياذ بالله، أن ينطلي على شخص خداع النّفس ويتصور أنه إنسان صالح، لماذا لأن من تلك اللحظة بدأ في إطاعة الشيطان ووقع الإنسان في حبائله ومن جهة أخرى كلما كان الإنسان أصلح يرى نفسه أقل من الآخرين. عندما يقول الإمام المعصوم: «فمن يكون أسوأ حالاً مني»(٢).

ماذا يقول الآخرون؟ نحن إذا تشبهنا بهذا المنهج وبهذه السيرة والشخصية وهذا الفكر والتفكر تتحول حالنا إلى أحسن حال ويصدر منا مثل هذا المقال، ولكن الإنسان الذي عنده الأنانية بشكل لا يستطيع أن يعد نفسه هو أقل من الآخرين يقول بينه وبين نفسه: أنا لم ارتكب شيئاً سيئاً؟ لم أسرق، لم أقتل، لم أزنِ و... وهذا الغرور، يصبح سبباً للانحراف والتفرقة والتحزُّب، لأنهم يعتقدون بأنهم أناس صالحون ويجرّون الناس من ورائهم، هم غافلون عن ذلك بأن الواقع هو حب الرئاسة والشهرة وحب الرئاسة والشهرة مصدر كل الذنوب، وهذا النوع من التفكير يسبب سقوطهم. الإنسان كلما صار أعلم تكون نفسه أقوى وقدرة حيلها تزداد ولا تعد حيلها ولا يمكن أن يعرف حيلها ومكائدها. قدرة مكر وغدر النفس عند الناس العاديين أقل بكثير من قدرة حيلها ومكرها وخداعها عند العلماء ،حيل النفس عند هؤلاء بسيطة جداً، لذلك لعلهم يندمون بسرعة وينجون من سرّ النفس ولكن إذا تسلطت نفس العالم عليه تخدعه بشكل لا يمكن أن ينجو منها بسهولة. فلازم ذلك أن ننتبه انتباهاً بالغاً في هذا الأمر.

طبعاً يجب الانتباه، ليس معنى هذا الكلام هو أن لا نذهب وارء الكمال،

---

(١) سورة الكهف، الآيتان: ١٠٣ ـ ١٠٤.

(٢) دعاء السحر للإمام علي بن الحسين. بحار الأنوار ج٩٨ ص ٨٩.

لأنه إذا كملنا ثم سقطنا يكون الخطر أكثر من عدم جمعنا للعلم، لأننا إذا صرنا علماء ثم سيطرت نفوسنا علينا، يضحي خطر النفس والشيطان عالمي وعظيم.

هذا النوع من التفكير غير صحيح، بل هو من حِيَل ومكر الشيطان لأنه يريد أن يوقف حركة الإنسان نحو الكمال وهذه أمنيته القصوىٰ لذا يجب التحرك على رغم أنف الشيطان وطلب العون من الله والله سبحانه يعين من تحرك صوبه ويساعده أكثر من غيره. جاء في الحديث القدسي:

«من تقرَّب إليّ شبراً تقربتُ إليه ذراعاً»[1].

عندما يُعين الله شخصاً، ترى مخالفته ومبارزته مع كل صعوباتها سهلة، إنها في بداية هذا الأمر تبدو صعبة.

كان الحب من الأول طاغياً ودموياً
لكي يفرّ منه من ليس أهلاً له

إذا استمر الإنسان في جهاد النفس وهو يطلب من الله توفيق الاستقامة تسهل عليه المخالفة بالتدريج، بشكل إذا ترك الأعمال الخيرية يحس كأنما فقد شيئاً. أو إذا ترك عبادته يحزن لأنه قد سلب منه هذا التوفيق. على كل حال ذكرنا بعض الأخطار ومكر النفس لكي يعرف الإنسان خطرات النفس، ولكن ليس هذا بمعنى أن النفس أمامنا شيء مهيب ولا يقهر بل النفس هي هذه الأميال والأهواء الباطنية. يقال للروح نفس لأنها هي التي تكون منشأ هذه الأميال.

«وتخالفك في طاعته وتطيعك في ما تكره».

إذا أردت أن تعمل عملاً لا يرضي الله تعالى تطيعك النفس بشكل كامل وتكون في عونك ولكن إذا أردت أن تعبد الله تمنعك أن تركِّز في الصلاة وأن تجمع فكرك، وبالنتيجة تكون في الصلاة بدون حضور القلب.

---

(١) بحار الأنوار ج٨٧ ص ١٩.

«وتطغىٰ إذا شبِعت وتشكو إذا جاعت».

طبيعة النفس إذا جاعت تشكو وتعاتب وتئن، وإذا شبعت تطغىٰ. فلا تلبّ لنفسك كل ما تريد، ولقلبك كل ما يحب فإن النفس كالحصان الصعب الذي يجرك خلفه ولم تستطع بعد السيطرة عليه.

إذا أردت أن تروّض حصاناً، يجب أن تتركه فترة جائعاً ولا تُلبّ أي طلب له وتسيطر عليه لكي تستطيع عند اللزوم استخدامه كذلك النفس فإنك لا تستطيع كبح جماحها ما لم تذللها بمخالفتها، وتوطِّنها على الطاعة وتقهرها في ميدان المحاسبة، فيكون زمامها بيدك.

«وتغضبُ إذا افتقرت وتتكبر إذا استغنت».

عندما يغنى الإنسان ويثرىٰ يتكبر على الآخرين وعندما يفتقر يحزن، ويسيء الظن بالجميع، تراه عصبياً وغضبان على الحكومة، الأصدقاء، الجيران، كأنما هم مدينون له.

لا ترى في حياته وعيشته شيئاً من الصبر والتحمل وكأنما العالم كله في نظره ضيّق وكئيب.

«وتنسى إذا كبرت وتغفل إذا أمنت».

عندما تواجه النفس الخوف تحذر وتحاول الخلاص من الخطر، وعندما تحس بالأمن تغفل، وعندما تبتلى وتضرب المدن بالقنابل تحذر وتخشع وتتوب وتستغفر وتعبد وتتجه بالتوسل وزيارة عاشوراء، ولكن عندما يستقر الصلح والأمان، لا تجد لتلك التضرعات والتوسلات مكاناً، تقل مجالس التوسل وزيارة عاشوراء. هذه صفة النفس عندما يخيم الأمان تغفل وتنسى أن هناك خالقاً وهناك عذاباً وبلاءً.

«وهي قرينةُ الشيطان».

هذه النفس صديقة ورفيقة للشيطان الذي أقسم أن يضل البشر:

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[1].

الشيطان يغوي الإنسان عن طريق النفس ويجره إلى جهنم، وإن هذه النفس هي التي تفسح الطريق أمام الشيطان وتجعل الإنسان يسير خلفه، لذا يجب الانتباه والتوجه فهل يصح أن يستمع الإنسان لهذه النفس ويطيعها أم يجب مبارزتها ومخالفتها؟

«ومثل النفس كمثل النَّعامة تأكلُ الكثير وإذا حمل عليها لا تطير».

عندما يقال للإنسان طالع واعبد، وليكن عندك حضور القلب في أثناء العبادة لا يهتم ويقول: أعصابي متوترة ولا أستطيع أن أجمع أفكاري ولكن عندما يعرض التلفزيون فيلماً كوميدياً ومضحكاً يجمع أفكاره ولا يغفل عن أي لقطةٍ من لقطاته ولكنه عند الصلاة لا يستطيع أن يجمع فكره.

«وكمثل الدّفلى لونُهُ حسن وطعمه مُرّ».

ظاهر النفس أعمالها مغرية وتزينها للناس، ولكن في باطنها سم قاتل خفي، في الظاهر نظهر بلباس التقوىٰ. العلم والزهد ولكن في الباطن يعلم الله ماذا يملك الإنسان من الدوافع الشيطانية والأفكار الانحرافية الكلام، جذّاب ولطيف ولكن المحتوى مضل. لا يدري إلى أين يصل في البداية يكون الكلام حول العبادة وإطاعة الله والعرفان ولكن في عمله بعد مدة نراه لا يعتني بالصلاة والعبادة وإذا فاته وقت الصلاة لا يحزن، عندما يجعل كل شيء اعتبارياً، تضعف اعتقاداته وبديهي أنه لن يحس بمسؤوليةٍ أو واجبٍ أمام الصلاة وأمام التوجه إلى الله وإلى المعنويات.

---

(١) سورة ص، الآيتان ٨٢ ـ ٨٣.

الدرس العاشر

ذم الدنيا وأهل الدنيا

مفهوم طلاب الدنيا وطلاب الآخرة ومراتبهما

الإسلام والكفر ملاك الحب والعداوة والبغض

عشرون خصيصة لأهل الدنيا

ذم الدنيا وأهل الدنيا

«يا أحمد، أبغِضِ الدنيا وأهلها وأحبَّ الآخرة وأهلها. قال يا رب؛ ومَنْ أهلُ الدنيا ومن أهل الآخرةِ؟ قال أهل الدنيا من كثُرَ أكلُهُ وضحكُهُ ونومه وغضبُه، قليلُ الرِّضا، لا يعتذرُ إلى من أساءَ إليه ولا يقبلُ عُذرَ من اعتذر إليه، كسلانٌ عند الطاعةِ وشجاعٌ عند المعصيةِ، أملُهُ بعيد وأجلُهُ قريب لا يحاسب نفسه، قليل المنفعة، كثير الكلام، قليلُ الخوفِ، كثير الفرح عند الطعام وإنَّ أهلَ الدنيا لا يشكرون عند الرخاء ولا يصبرون عند البلاء، كثير الناس عندهم قليل، يحمدون أنفسهم بما لا يفعلون ويدّعون بما ليس لهم ويتكلمون بما يتمنّون ويذكرون مساوىء الناس ويخفون حسناتهم. فقال يا ربّ: كل هذا العيب في أهل الدنيا؟ قال: يا أحمد إن عيب أهل الدنيا كثيرٌ فيهم الجهل والحُمق، لا يتواضعون لمن يتعلمون منه وهم عند أنفسهم عقلاء وعند العارفين حُمقاء».

مفهوم طلاب الدنيا وطلاب الآخرة ومراتبهما

كل الذي جاء في القرآن والروايات حول التعلق بالدنيا والآخرة ومدح أهل الآخرة وذم أهل الدنيا ناظر إلى مرحلة حياة الدنيا ، لا حياة الآخرة يعني في نظر القرآن والروايات، لا يطلق على أهل الدنيا الذين يعيشون في الدنيا ولا على أهل الآخرة الذين ذهبوا إليها. كذلك لا يطلق المدح للآخرةِ والذم لعلاقة الدنيا بأن لا نحب كل الموجود في الدنيا، من قبيل الماء والتراب والسماء لماذا؟ لأن هذه آيات ومظاهر إلهية، مضافاً إلى ذلك يوجد في الدنيا أمكنة مقدسة من قبيل المساجد والمعابد ومراقد أولياء الله وأئمة الدين وحب هذه الأمكنة ممدوح، كما أنه توجد جهنم في عالم الآخرة وهي غير ممدوحة.

ويجب القول بأن ذم أهل الدنيا ومحبي الدنيا، هو ذم الأشخاص الذين أضحت محور أفكارهم وأقوالهم ونظرياتهم أمور الدنيا وأضحىٰ اهتمامهم وتعلقهم لذات الدنيا ونعم الدنيا ولم يفكروا بالآخـرة ولم يكن عالم الآخرة مطلوباً وجذاباً لهم.

طبعاً لأهل الدنيا مراتب ويختلفون من ناحية ميزان علاقتهم وميولهم واهتمامهم بالدنيا، قسم منهم يعبدون الدنيا وينكرون الآخرة، وليس لهؤلاء أمل للنجاة لأنهم أنكروا عالم الآخرة أو شكّوا فيه، ولم يسعوا في الحصول على اليقين والإيمان.

والله سبحانه يقول عنهم:

﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾[1].

---

(١) سورة الفرقان، الآية ١١.

وقسم يعتقدون بعالم الآخرة ولكن هذا الإيمان لا يؤثر على عملهم، وبالنتيجة لا يختلفون عملاً مع منكري الآخرة، ومثل هذا الإيمان الذي ليس له أثر عملي ولا يثبت، كمثل الشجرة التي لا تسقىٰ ماءً فنراها تيبس.

﴿ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴾[1].

(عندما يكون الإنسان لا يعمل بمقتضىٰ إيمانه، شيئاً فشيئاً يتزلزل إيمانه وبالنتيجة يذهب الإيمان ويصبح مع الكافرين) مجموعة أخرى يهتمون بالآخرة ولكن اهتمامهم بالدنيا أكثر أو يهتمون بالدنيا والآخرة بشكل واحد ويخلطون محبة الدنيا والآخرة كما قال الله عنهم:

﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا... ﴾[2].

في مقابل أهل الدنيا ومحبي الدنيا، أهل الآخرة ومحبو الآخرة. فالآيات والروايات التي جاءت في مدح أهل الآخرة ناظرة بهذه المجموعة، وطبعاً هؤلاء هم مراتب ومجاميع: في الدرجة الأولى وعلى رأسهم هم الذين لا يرون للدنيا أصالة، وليس لهم حب للدنيا ومن أجل الأمر الإلهي والواجب الرباني يهتمون بالدنيا ويرفعون احتياجاتهم المادية، فهم ينظرون إلى مخلوقات الدنيا بأنها آيات إلهية ومظهر لتجلي صفات الله وفي الحقيقة هي مرآة يشاهدون فيها وجه المحبوب وصفاته وآثاره؛ لعل الكلام في هذه الموضوع سهل على اللسان ولكنه في العمل صعب أن يصل الإنسان إلى هذا الفكر والاعتقاد. أن يصل الإنسان إلى مقام أن لا يهتم بالدنيا بتاتاً ويعتبرها مرآة الله وحسب ووسيلةً للوصول إلى السعادة الأبدية، طبعاً طلاب السعادة الأبدية كذلك أنواع: البعض منهم يرون أن السعادة

---

(١) سورة الروم، الآية ١٠.

(٢) سورة التوبة، الآية ١٠٢.

في الجنة ولذائذها المشابهة للذات الدنيا، والبعض الآخر الذين هم أولى منهم هم الذين يهتمون بالله فقط ويرون السعادة في جوار الله وقربه ورضاه.

إذاً الآيات والروايات الواردة في مدح أهل الآخرة وذم أهل الدنيا ناظرة إلى هذين القسمين (المجموعتين).

وكما ذكر، فإن كل مجموعة من هاتين المجموعتين لهم مراتب متنوعة، وكذلك الآيات والروايات التي تبين خصائص وصفات أهل الدنيا وأهل الآخرة مختلفة: بعضها تبين كل الصفات وبعضها تبين بعض الصفات، في بعضها الصفات المهمة وفي بعضها الصفات غير المهمة، الخصائص التي ذكرت في الآيات والروايات حول أهل الدنيا، تجعل الإنسان من أهل الدنيا وليس لازماً أن يكون محب الدنيا ومن هو من أهل الدنيا متصفاً بكل تلك الصفات، بل إذا اتصف ببعض تلك الصفات تجعله في زمرة أهل الدنيا.

إذاً إذا ذكرت في هذا المقطع من حديث المعراج عشرين صفةً لأهل الدنيا وشاهدنا نحن[1] لا نتصف ببعضها أو كانت ضعيفة عندنا لا نتصور أننا لسنا من أهل الدنيا لأنهم هم أهل الدنيا والخصائص والصفات مختلفة ولها مراتب.

في المقابل إذا عدت صفات أهل الآخرةِ في الآيات والروايات ورأينا أننا لا نملك بعضها أو كانت غير بارزة وواضحة لا نتصور أننا من أهل الدنيا ولسنا من أهل الآخرة لأن أهل الآخرة وصفاتهم ذات مراتب ودرجات.

ذكر في آيات عديدة من القرآن بأن حب الدنيا وطلب الدنيا في حدّ الشقاء والكفر وعاقبته العذاب الأبدي، وفي المقابل ذكر بأن طلب الآخرة مساوٍ للسعادة الأبدية وجزاؤه النعم الأخروية، وذكر بأن الله سبحانه يرفع الموانع عن طريق هاتين المجموعتين (طلاب الدنيا وطلاب الآخرة) لكي يسيروا في طريقهم، إذاً

(١) يمكن تبديل هاتين الكلمتين بـ (رأينا أنفسنا).

اولئك الذين ذهبوا وراء الشقاء جُعل لديهم الوسائل الكافية، وكذلك اولئك الذين هم طلاب السعادة والحظ جعل لديهم الوسائل اللازمة والكافية لرشدهم وترقيهم في سيرهم المعنوي.

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۝١٨ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ۝١٩ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾[1].

(العاجلة) من جملة مظاهر أسماء الدنيا وبمعنى المرور والزوال، وفي مقابلها (الآجلة) بمعنى البقاء والاستمرار والديمومة. القرآن يقول: بعض الناس يحبون الحياة الدنيا التي تأتي بسرعة وتزول بسرعة، وليس لهم توجه واهتمام لما وراء هذه الحياة، وأنه ليس كل ما أرادت هذه المجموعة من الله أعطاهم ذلك، بل على أساس النظم والتدبير، فالحاكم على العالم يجيبهم إلى بعض ما يطلبون، ولكل شخص يعطيه بعض نعمه، إذاً ليس كل ما يطلبه طلاب الدنيا من طلبات يحصلون عليها وليس كل ما يطلبه الإنسان يحصل عليه، بل يحصل على بعض منها، ثم إن بعضهم يجيبهم الله إلى بعض ما يطلبون ويعذبهم عليها بالعذاب الأليم ويدخلهم النار وهم صاغرون، فهذا جزاء من أراد الدنيا الفانية في مقابل الاستفادةِ من بعض مطالبه واشترى لنفسه النار الأبدية.

وفي مقابل طلاب الدنيا هناك طلاب للآخرة حيث يصفهم الباري عز وجل ويقول: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾.

إن الذين يطلبون الحياة الأخروية ويعتقدون بأن بعد هذه الدنيا توجد حياة خالدة ونفيسة، ولأجل الحصول على تلك السعادة العالية والخالدة يجب السعي

---

(١) سورة الإسراء، الآيات ١٨ ـ ٢٠.

بقدر المستطاع. ذاك السعي الذي يقابل هذا الطلب والسير سيراً ينتهي بعده إلى الحياة الأُخروية.

الكلام حول مقدار السعي والجدية والمثابرة لطلاب السعادة الأبدية والحياة السرمدية الخالدة، كم يجب أن يسعوا؟

لأجل توضيح مقدار السعي المناسب واللازم لا بأس أن ننظر إلى طلاب الدنيا كم يسعون؟ من أجل الحياة الدنيوية المحدودة والمؤقتة والمشوبة بالآلام والأحزان لو يعيشون الف سنة لا يتركون السعي والجدية لو كان اليوم والليلة ٤٨ ساعة بدل ٢٤ساعة لما تركوا فيه سعيهم ولملأوه كله بالعمل. أميرالمؤمنين عليه السلام مع كل عباداته من الليل إلى الصباح، وكل تلك المناجاة والبكاء يقول:

«آه من قلة الزاد وطول الطريق وبُعد السفر...»[١].

طبعاً شرط العمل للآخرة هو أن يكون نابعاً من الإيمان بالله، والحال هذه، فإن الله سبحانه لا يقول: نحن نعطيهم الجنة بل يقول: «كان سعيهم مشكوراً» نحن نتشكر منهم ومن أجل عملهم وسعيهم يُعطون من تلك الرحمة والثواب الذي يعطىٰ لأهل الآخرة وطلاب رضا الله.

ولا شك بأن أجر المحسنين والمؤمنين لا يساوي عملهم بل أكثر من عملهم يقول سبحانه في هذا الباب: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ...﴾[٢].

وفي مكان آخر يقول: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا...﴾[٣].

وفي مكان آخر يقول: ﴿... وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[٤].

---

(١) نهج البلاغة، ترجمة فيض الإسلام، كلام ٧٤ ص ١١١٩.

(٢) سورة الأنعام، الآية ١٦٠.

(٣) سورة النمل، الآية ٨٩.

(٤) سورة البقرة، الآية ٢٦١.

وكذلك يقول سبحانه : ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾[1] .

فالله يعطي لأهل الجنة عطاءً لا يمكننا إحصاؤه وإدراكه وتصور لذاته. هو يعطي أكثر من طلبات المحسنين، لأن الإنسان يطلب الشيء المتصور ووصل إليه علمه لكننا لا نطلب الشيء الخارج من علمنا ووعينا وغير قابل لتصوراتنا.

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[2] .

(١) سورة ق، الآية ٣٥.

(٢) سورة السجدة، الآية ١٧.

الإسلام والكفر ملاك الحب والعداوة والبغض

جاء في بعض الروايات عادوا أهل الدنيا. لا يجوز عداوة كل من اتصف ببعض صفات أهل الدنيا حتى لو كان مسلماً وشيعياً، مثلاً إذا رأينا شخصاً كثير الأكل نعـاديه! لا يمكن عداوة المؤمن حتى لو كان عاصياً بل يجب أن نعادي عمله السيّىء.

جاء في رواية: إذا أحب الله شخصاً لا يعاديه أصلاً، فإذا عمل عملاً سيئاً يعادي عمله السيّىء والقبيح، والله عدو الكافر وحتى إذا عمل آلاف الأعمال الصالحة فهو عدوّه ولكنه يحسن عمله الحسن.

إذاً ومن وجهة نظر الإسلام أن قوام شخصية الإنسان هو الإيمان والكفر ذلك الإيمان والكفر الذي له جذور في القلب عميقة وإذا صدر من المؤمن في بعض الأحيان عمل يدل على الانحراف أو يصدر من الكافر عمل حسن فهذا لا يوجب تغيير هويتها، فقول الله سبحانه في حديث المعراج: يا أحمد، ابغض أهل الدنيا.

لا يتصور أن نعادي كل من صدر منه عمل قبيح، فإذا كان كذلك يجب أولاً أن نعادي أنفسنا لأنه كل واحد منا يمكن يحتوي بعض صفات أهل الدنيا.

عشرون خصيصة لأهل الدنيا

في بقية حديث المعراج يسأل النبي ﷺ ربه عن صفات وخصوصيات أهل الدنيا فيجيبه الله سبحانه ابتداءً: عن عشرين صفة لأهل الدنيا ثم يذكر له صفات أهل الآخرة.

قال: «أهل الدنيا من كثُرَ أكلُهُ وضحكهُ ونومُهُ وغضبُهُ».

أُولى صفات أهل الدنيا كثرة الأكل. لا شك حب الدنيا يبدأ من البطن والبطن أساس أكثر المفاسد. وأصحاب البطون يذهبون وراء الحرام من أجل إرضاء لذات البطن، ثم يذهبون وراء بقية الشهوات. أول شيء يجذب الإنسان وأول شيء يطلبه الطفل بعد ولادته هو الأكل لذلك ترى أهل الدنيا همهم بطونهم. في المقابل، إن أهل الآخرة هم غير ذلك، فهم لا يهتمون ببطونهم بل هم معتدلون في ذلك، فهم يأكلون بمقدار احتياجهم وبمقدار الضرورة وفي حدٍّ يمكنهم أن يؤدوا واجباتهم ووظائفهم وطبعاً ذلك لا بقصد اللذة من الأكل.

الصفة الثانية: الضحك الكثير. أهل الدنيا دائماً يضحكون لأنهم لا يفكرون في الآخرة ولم يخافوا من الله فلو كانوا يدركون عاقبة أمورهم ويخافون من الله، لم يقضوا أعمارهم بالضحك والفرح الشديد. أما أهل الآخرة ومن يفكر بالآخرة حتى لو كان يسعى للآخرة ويهتم بها ولكنه خائف من عاقبة أمره إن لم يرض الله عنه ويحرم من النعيم الأخروي (نعيم الجنة) فهو مضطرب وغير مستقر ويخشى أن يقضي وقته بكلام فارغ وقهقهة وضحك.

المؤمن بالظاهر يضحك ومبتسم دائماً فهو غير عبوس، لئلا يتأذى الآخرون منه ومن رؤيته بل هو دائماً باشٌ ومبتسم وملقاه ومحياه جميل(١) ولكن بالباطن

---

(١) المؤمن حزنه في قلبه وبشره في وجهه (حديث شريف) المترجم.

خائف ومحزون على عاقبته. ولكنه إذا اجتمع مع الناس فهو فرح ويضحك معهم أما قلبه فحزين، ماذا سيكون مصيره. هل عمل بوظيفته؟ هل تغفر ذنوبه؟ ولا يخلص من حزنه وفكره.

الصفة الثالثة: كثير النوم، من لم يكن يفكر بالآخرة ولم يكن خائفاً على عاقبته ينام براحة وبسرعة، ومن جملة مطالبه كثرة النوم، طبيعي إذا كثر أكل الإنسان ينام كثيراً وبالنتيجة يغلبه النوم عندما يكون مستيقظاً كل همه بأن يستلذ من لذات الدنيا ويملأ بطنه من الأطعمة اللذيذة والمتنوعة، وعندما يتعب يبحث عن مكان هادىء وفراش ناعم لينام!

في مقابل ذلك فأهل الآخرة لا يريدون أن يقضوا لحظة واحدة من أعمارهم بالنوم عيونهم تنام ولكن قلوبهم واعية.

الصفة الرابعة: الغضب الكثير، أهل الدنيا راضون من أنفسهم[(١)] وغاضبون على الجميع وعندما يقع عمل على خلاف ميولهم يحزنون ولا يمكنهم تحمل المصاعب. كل هم أهل الدنيا هو أن يعيشوا مسرورين في هذه الدنيا لذلك يحبون أن يحترمهم الآخرون كما يتوقعون ويطيعونهم إطاعة عمياء، وعندما يرون أن طلباتهم لم تُنفَّذ يحزنون ويتأذون ويغضبون على الآخرين. الإنسان لا يتوقع أن تكون كل الأمور تأتي على مراده، لأنه من الطبيعي والعادي أن تقع حوادث ووقائع على الإنسان مثل الأمراض أو مشاكل بينه وبين الآخرين، لأن المشاكل التي تقع بينه وبين الآخرين ليست دائماً مرضية، ففي بعض الأحيان يصدر من الآخرين أعمال توجب أذية وحزن الإنسان.

«قليل الرضا لا يعتذر إلى من أساء إليه ولا يقبل عُذر من اعتذر إليه».

الصفة الخامسة لأهل الدنيا: قليلوا الرضا وكأنما يطلبون الآخرين وهم ناقمون عليهم.

---

(١) من رضيَ من نفسه كثر الساخطون عليه (حديث شريف) المترجم.

الصفة السادسة: عندما يسيئون إلى الآخرين لا يعتذرون لأن الاعتذار من آثار التواضع وهم متكبرون، فإنَّ أهل الدنيا صعب عليهم جداً أن يحقروا أنفسهم في مقابل من ظلموهم ويعتذرون منهم ويعترفون بخطئهم.

من جملة خصوصيات الأطفال هو أنهم إذا عملوا عملاً قبيحاً لا يعتذرون ويعتبرون هذا العمل صعباً عليهم، لذلك نرى الذين يسعون في تربية أولادهم من الأول يعلمونهم الاعتذار عندما يخطئون. لعل هذه اللجاجة من الأطفال ـ عندما يرتكبون عملاً سيئاً لا يعتذرون ـ ليست عيباً، وتدل على استقلال شخصيتهم ولكن مع الآخرين[1] يعتبر هذا عيباً.

إن المؤمن إذا أخطأ وقصّر في حق الآخرين تجده فوراً يعتذر؛ فهذه الروحية وهذا السلوك يوجبان توبة الإنسان من ذنوبه وألا يأخذ في تبرير عمله (ويتصور أنه ما كان له حيلة سوىٰ هذا العمل).

الصفة السابعة: لا يقبل عذر الآخرين، حتى إذا أخطأ شخص خطأً صغيراً واعتذر لا يقبل عذره، تقريباً هذه الروحية والحالة متلازمة مع الروحية السابقة: من يعتذر في مقابل أخطائه يقبل عذر الآخرين، أما الذين غير مستعدين للاعتذار في المقابل كذلك لا يقبلون عذر الآخرين.

«كسلان عند الطاعة وشجاع عند المعصية، أمله بعيد وأجله قريب لا يحاسب نفسه».

الصفة الثامنة: أهل الدنيا كسلانين عند الطاعة وشجعان عند المعصية، فالواحد منهم عندما يريد أن يقف للعبادة يكسل ويرفع قدماً ويؤخر أخرى ويستخف بها ويؤخرها، عندما يصير وقت الصلاة لا يهتم بأن يؤديها في وقتها وغير جادٌ بها ويتلف الوقت بشكل لا يبقى وقت للصلاة هذه الخصوصية من جملة

---

(١) ولكن بالنسبة للآخرين.

أوصاف المنافقين ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾[1] كما يتسفهم الله سبحانه أهل الدنيا يكسلون في العبادة وهم وقت المعصية والذنوب جديّون ويرتكبون الذنوب بكل قوة وشجاعة.

الصفة التاسعة: أجله قريب ومع ذلك عنده آمال عريضة وطويلة، أهل الدنيا ما عندهم شيء يفرحون به إلا دنياهم، ما عندهم هدف وطلب إلا الدنيا وكلما أرادوا من نعم الدنيا فهي موفرة لهم، وطبيعي أن ينشغلوا بآمال وأمنيات، حول هذه الصفة يقول سبحانه:

﴿... يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ...﴾[2].

فالإنسان يربّي وينمي هذه الآمال في رأسه في حين أن أجله قريب وعمره لا يكفي للحصول على تلك الآمال والأمنيات، لأن الإنسان لا يعمر أكثر من ستين، سبعين سنة، الأخ، الأخت وبقية الأقرباء كم عمروا حتى نعمّر نحن أكثر منهم، فكيف نربي في أذهاننا آمالاً نحتاج لتطبيقها والوصول إليها إلى مئات السنين فأهل الدنيا مشغوفون ومنهومون بشكل لا يفقهون بأن هذه الآمال والأمنيات لا يمكن تحقيقها في هذا العمر القصير.

الصفة العاشرة: لا يحاسبوا أنفسهم. أهل الدنيا، فقط هم يعرفون الدنيا ولذاتها، ولا شك بأنهم لا يستطيعون الوصول إلى كل أهدافهم وآمالهم، ودائماً عندهم نقص في الاستفادة من لذاتها؛ لذلك لا يرون لأنفسهم مجالاً للمحاسبة فهم لا يعتقدون بالقيامة لكي يستعدوا لها ويهيئوا أنفسهم لحسابها. الذين يعتقدون في الآخرة تكون الآخرة دائماً نصب أعينهم لذلك نراهم يحافظون على أعمالهم وهم مستعدون دائماً لملاقاة يوم الحساب. جاء التأكيد في القرآن والروايات على المحاسبة للنفس، وفي حديث يوصي فيه الإمام الصادق عليه السلام

---

(١) سورة التوبة، الآية ٥٤.

(٢) سورة البقرة، الآية ٩١.

ويقول: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا»[1].

فالمؤمن يتأمل ويحذر ويدقق في كل ساعة تمر من عمره ويفكر بها كيف مرّت، وفي الليل عند المنام يحسب أعماله التي أداها في ذلك اليوم، ويدقق بالنواقص فإذا شاهد هناك نقصاً وعيباً، يحاول سد هذا النقص وإصلاح هذا العيب عن طريق التوبة والتلافي، ولكنَّ الشخص الذي لا يعتقد بالآخرة ويوم الحساب لا يفكر في محاسبة النفس، تمر عليه الشهور والسنون ولم يفكر كيف مرت؟ وهل كانت أعماله صحيحة أم لا!؟

«قليل المنفعة كثير الكلام، قليل الخوف، كثير الفرح عند الطعام وأنّ أهل الدنيا لا يشكرون عند الرخاء ولا يصبرون عند البلاء».

الصفتان الحادية عشرة والثانية عشرة: قليلو المنفعة للآخرين لا ينفعون الآخرين (لأن كل شيء يريدونه لأنفسهم) وأيضاً هم كثيرو الكلام فعندما يتكلمون، يتكلمون في كل شيء وادعاءاتهم كثيرة، ولكن عند وقت العمل والخدمة للناس لا تجد لهم ولا لادعائهم الواهي مكاناً[2].

الصفتان الثالثة عشرة والرابعة عشرة: خوف قليل من الله وفرح كثير عند الطعام لا يخافون من الله ومن الآخرة ومن نتيجة أعمالهم، وبمجرد تهيئة الأكل ووصول رائحته إلى أنوفهم فرحوا واستبشروا وصار عندهم نشاط وتهيأوا للأكل.

الصفة الخامسة عشرة: لا يشكرون عند الرخاء ولا يصبرون عند البلاء، كثير الناس عندهم قليل، يحمدون أنفسهم بما لا يفعلون ويدّعون بما ليس لهم ويتكلمون بما يتمنون ويذكرون مساوىء الناس ويخفون حسناتهم.

الصفة السادسة عشرة: كثير الناس عندهم قليل، لا يُقدّرون ولا يعتبرون

---

(١) بحار الأنوار ج٧٠ ص ٧٣.

(٢) ﴿يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا﴾ [آل عمران: ١٨٨] (المترجم).

الأعمال الخيرة التي يقوم بها الآخرون حتى ولو كانت كبيرة وكثيرة. في الحقيقة لا ينقصون ويكسرون أنفسهم في الاعتراف بحسنات وإيجابيات الآخرين، عندما تسأل كم هي مقدار معلومات فلان؟ يصعب عليه أن يقول عنده شيء من المعلومات والخدمات الكثيرة للآخرين، والعبادات والتضحيات والإيثار بالنسبة له لا شيء يذكر. أما في المقابل يعتبر أعماله التي قام بها مهمةً جداً ودائماً يفتخر بها ويمدح نفسه بأني عملت كذا وكذا!

الصفتان السابعة عشرة والثامنة عشرة: يمدحون أنفسهم بأعمالٍ لم يعملوها وينسبون أموراً ليست فيهم. ليس فقط يعظمون أعمالهم الصغيرة بل يكذبون ويدّعون بأنهم عملوا أعمالاً كبيرة ويحبون أن يحمدهم الآخرون على أعمالهم التي ادّعوا أنهم عملوها ولكنهم لم يعملوها. وفي المقابل أهل الآخرة يخفون أعمالهم الخيّرة لئلا يعلم بها الآخرون.

الصفتان التاسعة عشرة والعشرون: دائماً يذكرون توقعاتهم ويذكرون عيوب الآخرين، ولما وصل الكلام إلى هنا سأل النبي ﷺ ربه قائلاً: إلهي، هل هناك عيوب أخرى لأهل الدنيا؟

يقول الباري عز وجل: «يا أحمد، إنَّ عيب أهل الدنيا كثيرٍ، فيهم الجهلُ والحُمق، لا يتواضعون لمَنْ يتعلمون منه وهم عند أنفسهم عقلاء وعند العارفين حُمقاء».

الدرس الحادي عشر

أوصاف أهل الآخرة (١)

الحياء هو الصفة البارزة للعلماء وأولياء الله يحبون الآخرة ووعي القلب

أولياء الله والخوف من عظمة الله

أوصاف أهل الآخرة (١)

«يا أحمد، إنَّ أهل الخير وأهل الآخرة رقيقةٌ وجوههم، كثيرٌ حياؤهم، قليل حمقهم، كثير نفعهم، قليل مكرهم، الناس منهم في راحةٍ وأنفسهم منهم في تعب، كلامهم موزون، محاسبين لأنفسهم، متبعين لها، تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم، أعينهم باكية وقلوبهم ذاكرة. إذا كُتب الناس من الغافلين كتبوا من الذاكرين، في أول النعمة يحمدون وفي آخرها يشكرون، دعاؤهم عند الله مرفوع وكلامهم مسموع، تفرح بهم الملائكة ويدور دعائهم تحت الحُجُب يحب الربُّ أن يسمع كلامهم كما تحب الوالدة الولد».

في هذا المقطع من حديث المعراج ذكر أوصاف أهل الآخرة.

يقول تعالى في بيان أول وثاني صفة:

«إنَّ أهل الخير وأهل الآخرة رقيقةٌ وجوههم كثير حياؤهم».

في البداية يذكر الله بأن أهل الآخرة يملكون الحياء (يا أحمد، إنّ أهل الخير وأهل الآخرة رقيقةٌ وجوههم كثيرٌ حياؤهم، فالأشخاص الفاقدون للحياء يقدمون على الأعمال القبيحة والسيئة بسهولة ولا يعيرون لشخص أهمية ومكانة لأنهم لو كانوا يحسبون لشخص حساباً لخجلوا واستحوا ولصلحت أعمالهم.

من الطبيعي أن أهل الدنيا يقدمون على أعمال هي قبيحةٌ في نظر الدين والثقافة والتربية، ويتسرب الحياء منهم في تكرار ذلك، أما في مقابلهم أهل الآخرة فهم مراقبون لأعمالهم لئلا يصدر منهم عمل قبيح، لذلك يبقى عندهم الحياء الفطري.

الحياء هو الصفة البارزة للعلماء وأولياء الله

صفةُ الحياء بارزة وواضحة بين العظماء، والعلماء وأولياء الله، مثلاً أحد العلماء المعاصرين هو آية الله المرحوم العلامة الطباطبائي(ره) كان كثير الحياء، وما كان ينظر في عيون الآخرين وكان يقول: استاذنا المرحوم الشيخ محمد حسين الكمپاني، كان كثير الحياء بشكل لا يستطيع أن ينظر في عيون طلابه.

الأعاظم الآخرون الذين شاهدناهم هكذا كانوا وعلى أساس هذه الرواية فأهل الآخرة خجلون وعندهم حياء دائماً حذرون أن لا يظلموا أحداً أو يسيئوا إلى أحد، فهم إضافةً إلى الحياء الذي يملكونه فهم أمام ربهم خجلون متواضعون.

أحـد أساتذتنا يقول: «كان في النجف الأشرف شخص سكن النجف بعد أن أخذ تقاعده من الدولة، وعندما كان يمشي ومع ما به من الرشاقة والجمال والطول وكان مرفوع الرأس ولكن كنت أحس كأنما عنده رأس آخر متواضع ومتطأطىء (وهـذا الإحساس إما عـن طريق الشهود حصل له أو عن طريق ثان) كان يقول:

أنا لم أحصل على[1] هذا السر حتى حان وقت وفاته فدعا عدّة من العلماء وأحد المراجع إلى بيته لكي يوصي أمامهم قال في حضور اولئك الأعاظم: إلهي أنت شاهد بأني منذ بلوغي إلى الآن لم أذنب حتى ذنباً واحداً، (الإنسان عادة يتوب في وقت وفاته ويندم على ذنوبه وعليه أن يكون جريئاً ليدّعي هكذا ادّعاء) بعدها عرفت أن تلك الحالة التي كان يملكها أثناء المشي هي متناسبة مع هذا الادعاء.

---

(١) ما عرفتُ.

على كل حال إن أهل الآخرة دائماً يعيشون الخجل والحياء من الله وكذلك من الناس لئلا يصدر منه خطأ ويتعدّى حدوده ويظلم الآخرين أو يقصر في حق شخص ما. وعكسه أهل الدنيا لا يراقبون أعمالهم ولا يستحون من الله ومن الناس.

«قليلٌ حُمقهم، كثيرٌ نفعهم، قليلٌ مكرهم».

الصفة الثالثة لأهل الآخرة: هي أنهم قليلو الحمق والبُله ويعملون أعمالاً مطابقة للعقل والمنطق.

الصفة الرابعة: هي أن نفعهم للناس كثير.

الصفة الخامسة: هي قليل مكرهم ويعيشون الصدق والوفاء مع الناس.

الصفة السادسة: «الناس منهم في راحة وأنفسهم منهم في تعب».

أحد أساتذتنا ينقل حكاية عن المرحوم الشيخ ميرزا محمد تقي الشيرازي ـ وهو أحد مراجع سامراء ومن الناحية العلمية فإنه فقيه لا نظير له وفتواه مشهورة في الجهاد على انكلترا ـ كان يعطي الشهرية للطلاب في سامراء ومن جملة اولئك الشيخ محمد كاظم الشيرازي.

يقول المرحوم الشيخ محمد كاظم الشيرازي: «خرجتُ من بيتي في أحد الأيام وقت الغروب فرأيت آية الله الشيخ محمد تقي الشيرازي يتمشى أمام بيتي، سلّمت عليه وقلت: شيخنا تنتظرُ شخصاً؟

فقال: كنت أنتظرك!

قلت: كان من الأفضل أن تطرق الباب.

قال: أعلم أن أغلبكم يخرج من بيته في مثل هذه الساعة وما أردت أن أزعجكم، فصبرت حتى تخرج من البيت.

قلت: بما تأمرني؟

فقال: جلبت لك شهريتك! وهذا محل تعجب أن يكون ذلك المرجع الكبير يأتي بشهرية تلميذه إلى بيته لئلا يصرف وقته في أخذ الشهرية ولم يطرق الباب لئلا يزعجه بل ينتظره في الزقاق حتى يخرج من بيته.

الصفة السابعة: هي أن أهل الآخرة كلامهم موزون. قبل أن يتكلموا يفكرون في نفعه وضرره لئلا يكون ذلك خلاف رضا الله وضرر الآخرين فيتكلموا كلاماً محسوباً، لا يتكلمون بشكل مجمل بحيث لم يفهمه الآخرون ولا بشكل يكرره بحيث يمله الناس بل بمقدار[١].

الصفة الثامنة لأهل الآخرة: هي أنهم يحاسبون أنفسهم. جاء في رواية: أن حاسبوا أنفسكم كل ليلة مثل الشريك الذي يحاسب شريكه[٢] عندما تشارك اثنان أو اتفقا أن يعملا سويةً وأحدهم أعطى أمواله للآخر ليعمل به تراه دائماً وبشكل مرتب يحاسبه ليرى ماذا عمل بالمال وليحسب مقدار الربح. فهكذا بالنسبة إلى هذه النفس التي هي رأسمال عمرك قد وضعتها في اختيارها اعتبرها شريكك حاسبها كل يوم وليلة لتعرف أنَّ هذا العمر في أي طريق صرفته؟ لئلا تخسر في هذه المعاملة وهذه التجارة يقول النبي ﷺ: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسَبوا»[٣].

الصفة التاسعة لأهل الآخرة هي أنهم يتعبون النفس ويستخدمونها كثيراً ولا يسمحون لها بالراحة والدعة.

الصفة العاشرة: تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم، عندما يهتم الإنسان بأمر، ليس فقط في اليقظة يشغل فكره بل حتى في المنام كذلك بعض عشاق العلم حتى

---

(١) لا الإطناب الممل ولا الاختصار المخل (المترجم).

(٢) يقول إذا تريد شريكك دوماً حاسبه كل يوم (المترجم).

(٣) وسائل الشيعة، ج١١ ص ٣٨٠.

في المنام كان يطالع ويفكر ويدقق في المسائل العلمية، نقل أنّ أحد العظماء كان يحل المسائل الصعبة في المنام وكان يفكر بها ويحصل على الحلول لها.

أحد الأصدقاء ينقل: مضافاً إلى دروسي كنت أدرّس كتاب المطوّل، وأنا أعيش مع والدي ووالدتي وكنت أطالع الدرس وفي أحد الليالي تأخرت مطالعتي، استيقظت أمي عدة مرات وقالت ما زلت تطالع لحد الآن؟ اذهب ونم، وكنت في حينها لم أكمل مطالعتي بعد، فقلت في نفسي إذا بقيت أطالع تتأذى أمي وتحزن، ومن أجل رضاها تركت مطالعة درس كتاب المطوّل[1] وأخذت مضجعي، وفي عالم الرؤيا أحسستُ كأني جلست وأخذت أطالع المطوّل. ومطالعتي كانت دقيقة كلمة بكلمة طالعت وراجعت كتاب الحواشي ونظمت المواضيع في ذهني مثل كل مطالعة بشكل دقيق وعميق وعندما استيقظت صباحاً ذكرت بأني طالعت درس المطول في المنام، وكان الدرس راسخاً في ذهني كما طالعته. وعندما ذهبت إلى الدرس درّستُ الدرس أفضل من كل يوم.

طبعاً إنّ الله سبحانه أعطى التوفيق لهذا الشخص بسبب إطاعته لأمه ولكن على كل حال إذا كان فكر الإنسان مشغولاً بشيء لا يغفل عنه حتى في المنام، فأهل الآخرة بسبب محبتهم الكثيرة لله وأوليائه والاهتمام البالغ الذي عندهم للآخرة لا يغفلون عنه حتى في المنام وفكرهم حوله، أهل الآخرة يحبون الله وطبيعي حتى في المنام قلوبهم منتبهةٌ إليه إذن القلب لا ينام إذا كان الإنسان في المنام كذلك كأنما عاش ضعفاً وعمره تضاعف لأن نومهم لا يذهب هدراً وكأنما هو في منامه مستيقظ ومتوجه إلى الله ولعل الأشخاص الذين وصلوا إلى هذا المقام يدركون المسائل والقضايا في المنام أكثر وأوضح كما لو كانوا في اليقظة لأن في ذلك الحين يكون تمركز أرواحهم أكثر لأن الاهتمام وتدبير البدن حينئذٍ أقل، ومن أجل ذلك يكون الإدراك وشهود الروح في عالم النوم أقوى.

---

(١) كتاب المطوّل أحد كتب الحوزة العلمية يُدرّس في السنين الأولى.

المرحوم الميرزا جواد آغا الملكي التبريزي يكتب في أحد كتبه بأني أعرف شخصاً ـ لعله يتكلم عن نفسه ـ في أثناء النوم حصلت لديه حالة المعرفة الغيبية ومن عظمة الحالة التي أدركها وحصّلها يستيقظ من النوم ويوقظ زوجته ويقول لها:

أنا لا أدري لماذا تغير حالي؟ (على الرغم من أننا لا ندري كيف تكون هذه الحالة، ولكن ندري بشكل كلي الحالة التي يحصلها الإنسان عن طريق الغيب تفرق عن الحالة العادية، وتوجد الخوف عند الإنسان ويحس بأن روحه تحاول الخروج من بدنه) لا شك أن حصول هذه الحالة والارتباط بالغيب هي نهاية أمل السالكين.

«أعينهم باكية وقلوبهم ذاكرة».

الصفة الحادية عشرة: الله سبحانه وتعالى يقول:

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[١].

---

(١) سورة النازعات، الآيتان: ٤٠ ـ ٤١.

أولياء الله والخوف من العظمة الإلهية

دائماً الخوف من الله حاكم على قلب أهل الآخرة وهذه الحالة عند هؤلاء في الواقع خوفهم من نتيجة الأعمال أو مدة الغفلة والأخطاء التي تصدر عنهم أحياناً وتسيء عواقبهم. أما إحساس الخوف في مقابل العظمة الإلهية فكل شخص يشاهد الكبرياء والعظمة بشكل طبيعي يخضع ويخشع أمام تلك العظمة، وكلما يكون ذلك الموجود أعظم تكون هذه الحالة عند الإنسان أكثر. مثلاً الإمام الخميني رضوان الله عليه الذي هو شخصية عظيمة والجميع يشهدون بعظمته ويملك روحاً كبيرة إذا توفق شخص أن يصل إلى خدمته ويلتقي به خصوصاً إذا كانت جلسة خاصة، عندما ينظر إلى الإنسان يحس بالذوبان والذلّة وذلك من دون أن يشعر، وكل ذلك ناتج من العظمة والهيبة التي كان يمتلكها فهذا واحد من عباد الله الصالحين وليس هو مثل الأنبياء والمعصومين بل انه مجرد مطيع لله فأعطاه الله هذه العظمة والعزة فكل من يلتقي به بدون أن يشعر يحس بالحقارة والانكسار في نفسه، وهذه آثار مقابلة عظمة وجوده ولكن إذا أدرك شخص شيئاً ولو كان ضئيلاً من ذلك النور والعظمة والجلالة الإلهية تصيبه حالة الخوف والخشية، إذاً الخوف الإلهي أثر طبيعي لمعرفة وإدراك العظمة. سمعت من عدة أشخاص أن المرحوم الآخوند الكاشي ـ الذي كان يدرّس في اصفهان ـ كانت عنده حالات عجيبة حيث كان يرتجف في الصلاة وفي أثناء الركوع. يجب الحكم الظاهري لا يمكن تشخيص أنه عنده طمأنينة أو لا يعني كان يرتجف بمقدار لا يمكن له السيطرة على نفسه. إذاً من جملة أوصاف أهل الآخرة الخوف من الله وكما ذكرنا في الدرس السابق أن أهل الآخرة على درجات كل بحسب معرفته وإيمانه تظهر له واحدة من هذه الخصائص والصفات، الذين كملوا تظهر عندهم هذه الأوصاف في حد الكمال «إذا كتبَ الناس من الغافلين كتبوا من الذاكرين».

بعض الأحيان تقع أمور في الحياة تسبب لعموم الناس الغفلة وينهزمون أمامها داخـلياً ويمكن أن تكون هذه الأمور موحشة وفيها خوف أو فيها فرح وسرور على كل حـال في مقابل ذاك الفرح والحـزن ينسى الإنسان كل شيء ويكون توجهه كله إلى تلك الواقعة، ولكـن أهل الآخرة في تلك اللحظات الصعبة التي يغفل فيها عموم الناس هم يتوجهون إلى الله ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ. . .﴾[1].

«في أول النعمة يحمدون وفي آخرها يشكرون».

الصفة الثانية عشرة: في أول النعمة يحمدون وفي آخرها يشكرون.

عندما يتوجه الإنسان دائماً إلى الله أن لا ينساه وإذا صارت بيده نعمة يحمده عليها لأنها من الله سبحانه وبعد الاستفادة من النعمـة يؤدي حق الشكر له. أما أهل الدنيا لا ينتبهون بأن هذه النعمة من الله ويتصورون أنما حصّلوها بتعبهم واستحقاقهم وآخر الأمر كذلك لا يشكرون الله عليها.

«دعاؤهم عند الله مرفوع وكلامهم مسموع، تفرح بهم الملائكة».

إذا عُبّر بالشرع بأن الدعاء يصعد إلى الله، فبسبب المقام الرفيع لله سبحانه والعلو والرفعة المعنوية لله وإلا والعياذ بالله فليس الله جسماً حتى يكون في السموات الفاصلة بين العظمة والمقام الرفيع الإلهي وبين البشر لا نهاية لها في الواقع هو الغني المحض والآخرون هم الفقراء.

المقام الإلهي أرفع من أن يدركه إلهام وأفكار الآخرين في حين جاء في الروايات تعبير صعود الأعمال وأدعية الإنسان إلى الله، يقول الله سبحانه في القرآن الكريم:

---

(١) سورة النور، الآية ٣٧.

﴿... إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ...﴾[1].

العمل الذي يقبله الله، جاء في الروايات بصعود العمل وبالعمل الذي لم يقبل يُعَبَّر عنه بـ: لم يصعد ويرجع إلى صاحبه، كلام أهل الآخرة يصعد إلى الأعلى، يعني يصعد أعلى من حد البشر والمخلوقات ويصل إلى القرب الإلهي.

«ويدور دعاؤهم تحت الحُجُب يحب الرب أن يسمع كلامهم كما تحب الوالدة الولد».

قد جاء في المعارف الدينية أن فوق العرش والكرسي حجباً وهذه الحجب والسرادقات من النور. هذه التعابير التي جاءت في الروايات لأجل ترسيم الفاصلة بين فهمنا ودركنا عن العظمة الإلهية وإنَّ الإنسان إذا أراد أن يحصّل المعرفة الحقيقية لله سبحانه عليه أن يمر بأي مراحل ويميط أية موانع عن دربه، طبعاً هذه الحجب هي أيضاً من مخلوقات الله، على كل حال، جاء في هذه الجملة من حديث المعراج بأن دعاء أهل الآخرة يصعد إلى الأعلى حتى يصل إلى الحجب الإلهية وهناك يأخذ في الدوران، وأن الله يحب أن يسمع ذلك الدعاء كما تحب الأم أن تسمع صوت طفلها. هذا التشبيه لطيف جداً وذو معنى وفي الواقع هذه الحالة هي عطية إلهية لأولياء الله. دعاؤهم ومناجاتهم كذلك لطف إلهي حصلوه بسبب حبه تعالى لعباده، ومحبة الناس لله لا تقاس مع محبة الله لعباده.

لو جمعنا كل محبة الأمهات بأطفالهن وكذلك كل محبة وقعت من بداية العالم وتقع إلى نهايته لو قسناها مع محبة الله لكانت قطرة في مقابل البحر، لأن محبة الله بلا نهاية ومحبة الآخرين محدودة يعني محبة الله لكل واحد من عباده أكثر من كل الصداقات والعلاقات، والحب الموجود في العالم. جاء في الحديث القدسي: إن سرور وفرح الله من توبة عبده، أكثر من فرح شخص نام في الصحراء وبعد أن استيقظ رأى زاده وراحلته قد غابا عنه وكلما بحث عنهما لم يجدهما.

---

(١) سورة فاطر، الآية ١٠.

فجاع ويئس من الحياة ووصل إلى الموت وعندما أشرف على الهلاك وإذا به يشاهد زاده وراحلته أمامه.

مثل هذا كم يفرح عندما يجد متاعه ومورد حياته؟ فإن الله يفرح من توبة عبده أكثر من هذا، طبعاً هذه التعبيرات ناقصة وبُينت بمقدار وحدود فهمنا، وإلا ليس لله حالاتٌ متغيرة ومختلفة، وأخيراً يجب أن يبين لنا الحقائق بهذا اللسان. دعاء المؤمنين يدور تحت الحجب وفوق العرش لأن الله سبحانه يحب أن يسمع كلامهم.

جاء في الرواية: عندما يدعو المؤمن يؤخر الله استجابة دعائه لكي يدعو أكثر؛ لأنه تعالى يحب أن يسمع صوته أكثر، أما ضعفاء الناس والمنافقون إذا كان عندهم حاجة إلى الله يستجيب لهم بسرعة لأنه لا يحب أن يسمع أصواتهم.

الدرس الثاني عشر

اوصاف أهل الآخرة (٢)

أهل الآخرة والتوجه إلى الله

أولياء الله ومعرفتهم الخالصة إلى الله

الفارق البارز بين أهل الآخرة وأهل الدنيا

أوصاف أهل الآخرة (٢)

«ولا يشغلهم عن الله شيء طرفة عين ولا يريدون كثرة الطعام ولا كثرة الكلام ولا كثرة اللباس، الناس عندهم موتى والله عندهم حي كريم يدعون المُدبرين كرماً ويريدون المقبلين تلطّفاً، قد صارت الدنيا والآخرة عندهم واحدة».

الصفة الثالثة عشرة: التي ذكرت في حديث المعراج لأهل الآخرة هي أنهم لا يغفلون عن الله طرفة عين ولا يمنعهم شيء عن ذكر الله، طبعاً ذكر هذا المضمون كثير في الآيات والروايات، كما نقرأ في القرآن الكريم:

﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾(١).

وقبل ذلك جاء في آية أخرى:

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾(٢).

محل تعجب كيف يمكن أن يعيش الإنسان بالدنيا ولا يشغله شيء عن ذكر الله؟ (طبعـاً وضع أهـل الدنيا واضح لأنهم متعلقون بالدنيا بشكل ليس لهم توجه لله أبداً).

وعلينا أن نوضح هذا المعنى: إن بعض الناس لا يشغلهم عن ذكر الله أي شيء عند المطالعة والتعليم والتعلم، عند التكسب والعمل والزراعة، وحتى في

---

(١) سورة النور، الآية ٣٧.

(٢) سورة النور، الآية ٣٦.

أشد الحالات التي عادة ما ينقطع توجه الإنسان عن كل شيء خلالها فلا يغفل عن ذكر الله.

يمكن للإنسان في آنٍ واحد أن يتوجه إلى عدة أشياء مثلاً عيوننا تنظر إلى لقطةٍ وفي نفس الوقت نسمع أنباءً ونحن متوجهون إلى الاثنين معاً طبعاً يقل التوجه إلى مقدار لأن توجهنا تركز على مكانين، وفي بعض الأوقات يجبر الإنسان على أن يعمل عدة أعمال في آن واحد يطالع عند أكل الطعام مثلاً. أثبت علماء النفس أنَّ الإنسان وعن طريق الممارسة والتمرين بإمكانه أن يقوم في زمن واحد وفي وقت واحد بسبعة أو ثمانية أعمال، طبعاً لا يمكن أن يكون تركيز حتى في واحد من ذلك أما بإمكانه أن يقسم إدراكاته إلى حدٍ ما. إذاً يمكن للإنسان أن يتوجه إلى عدة أشياء في لحظة واحدة وفي زمن واحد إذا حاول وركز على أن يكون توجهه إلى الله في كل أوقاته يمكنه ذلك وعن طريق الاستمرار وشيئاً فشيئاً حتى تصبح ملكةً عنده.

يقول المرحوم العلامة الطباطبائي، رضوان الله عليه: عندما يواجه الإنسان مصيبة كفقد عزيز مثلاً تبقى هذه المصيبة في ذهنه إلى مدة طويلة ويذكره دائماً ولكن لا يكون هذا مانعاً من ممارسة أعماله العادية فهو يمارس نشاطه الخاص وعمله الخاص ولكنه لا ينسى فقدان عزيزه ولكل واحدٍ منا وقعت مصيبة ما سببت توجهنا حولها والانشغال بها ولم تكن مانعة أن نتوجه إلى أعمالنا الأخرى كذلك الأشخاص الذين نشأت عندهم محبة شديدة لمحبوبهم فهم متوجهون إلى محبوبهم في كل وقت ولا يمنعهم التوجه إلى أعمالهم الأخرى من التوجه إلى محبوبهم ولكنه يقلل من شدة التوجه. إذاً لا يمكن التصور بأن التوجه إلى الحياة والانشغالات الدنيوية تقلل توجه الإنسان إلى ربه خصوصاً إذا حاول الإنسان أن يكون توجهه في العبادة خالصاً لله فقط. طبعاً هذا التوجه إلى الله ودرك حضوره يحتاج أولاً إلى الرياضة والتمرين.

يقول الإمام موسى بن جعفر عليه السلام «اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[1].

يقول العلامة الطباطبائي رضوان الله عليه: تشير هذه الرواية إلى مرحلتين من مراحل الذكر والتوجه القلبي:

المرحلة الأولى: هي أن يتوجه الإنسان بأن الله يراه وعالم بأعماله مثل واحد في غرفة مغلقة ويعلم بأن شخصاً ينظر إليه من منفذ ولكنه لا يستطيع رؤيته.

المرحلة الثانية: إذا أحس الإنسان أنه يرى الله فهو من الأول يمرّن نفسه ويدربها على هذا الموضوع بأنه حتى إذا لم يكن يشاهد الله فإن الله حاضر وناظر وكل العالم في محضره حينئذٍ يساعده الله ليحس بحضوره. طبعاً معرفة مساعدة الله خارجة عن فهمنا وإدراكنا، ولكن في الجملة يمكن القول، بأن الله سبحانه في بعض الأوقات لأجل أن يخرج الإنسان من الغفلة ويوجهه إليه يوجد أسباباً وعوامل فعندما يغفل الإنسان وينقطع توجهه عن الله فإن الله سبحانه ينجيه من الغفلة ويوجهه إلى نفسه وإذا كان هذا التوجه من قبل الله مقروناً بالمحبة يكون فيه لذة عظيمة للإنسان. إن غالب إدراكاتنا وأنسنا وتعويدنا بالأمور المعنوية قليل، ولأجل أن نقرب المسألة للذهن نأتي بمثال محسوس: نفرض نحن جالسون في مجلس ويوجد فيه شخصان جالسان أحدهما يحب الآخر كثيراً، ولكنه لا يريد إظهار حبه أمام الآخرين لأنه يريد إخفاء ذلك، حتى لو كان قلبه دائماً متعلقاً به ومرةً وفي لحظة واحدة غفل وأدار بوجهه عن محبوبه ولكن محبوبه جلب انتباهه بإشارةٍ خفية خاصة كم تكون لهذه الإشارة وهذا التوجه والاهتمام من لذة؟ فمن ذاق مثل هذه اللذة يعرف قيمتها بأن الله أخرج الإنسان من الغفلة ونبَّهه إلى نفسه وجلب انتباهه إليه. طبعاً إنَّ الله سبحانه دائماً وأبداً عنده عناية ولطف بعباده ومحبيه ولا يجعلهم أو لا يسمح لهم أن يقطعوا روابطهم وتوجههم عنه.

---

(١) بحار الأنوار ج٢٥ ص ٢٠٤.

أولياء الله ومعرفتهم الخالصة إلى الله

لحد الآن كان كلامنا حول إمكان التوجه إلى الله وإلى أمور أخرى في وقت واحد: يمكن للإنسان أن يتوجه إلى الله، وأيضاً إلى مخلوقاته مثل المرأة، الولد، المعلم وغير ذلك، ولكن أولياء الله وتوجههم إليه فقط، الله سبحانه أعطاهم معرفة جعلهم يرون من خلالها كل الموجودات فهم لا يجعلون شيئاً إلى جنب الله إضافةً إلى أن وجود الله ظهر لهم بشكل جذبهم وسحرهم وجعلهم بحيث يعتبرون كل الموجودات الأخرى هي شعاع من وجود الله اللامتناهي. كأنما يشاهد الإنسان نور الشمس ولكن ليس لهذا النور أصالة، لأن الشمس أصيلة والنور هو شعاعها.

أولياء الله كلهم يشاهدون في أطرافهم وما يحيط بهم يعتبرونه شعاعاً محدوداً وممكناً من الذات المقدسة اللامتناهية لله سبحانه وتوجههم الأصلي بجانبه، طبعاً عندما يشاهدون الله، يشاهدون شعاع وجوده والمخلوقات معه (عالم الموجودات مثل الأشعة التي تشع من شمس الكون ويقع بالعرض محل توجه أولياء الله).

طبعاً التكلم بهذه المطالب وسماعها ليس بمستوانا وننقلها لنعلم ماذا يوجد في عالم الكون من لذات والتي هي أعظم وأجمل من اللذات المادية بكثير، على كل حال تتفاوت المعرفة والمحبة التي يمتلكها الناس، فيكون توجههم إلى الله كذلك متفاوتاً. من ذاق ذرة من محبة الله مال قلبه إليه، كيف لا ينشغل القلب بذكره وتوجهه، وقد ملأ حبه وعشقه كل وجوده؟ هل يمكن للعاشق ألا يكون بفكر معشوقه؟ كيف يمكن لشخص أدرك عظمة الرب وجلاله أن يعظمه ويعظم غيره؟ وأخيراً يمكن أن يصل الإنسان إلى منزلة يكون توجهه واهتمامه الأصلي إلى الذات القدسية الإلهية ويرى كل شيء شعاعاً لوجوده تعالى.

ورد مضمون هذا المعنى في أدعية وروايات كثيرة مثلاً نقرأ في دعاء عرفة «أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك»[1].

أولياء الله والذين حصلوا على المعرفة الخالصة وتنورت قلوبهم بنور الله، أولاً يشاهدون الله ثم يدركون صفاته. نحن عادةً ما نعرف الله عن طريق بعض المفاهيم مثل مفهوم واجب الوجود، الخالق، الرازق و. . . ثم نحيلها على غائب أما الذين حصّلوا المعرفة الإلهية ونور الله قلوبهم، فأولاً ينظرون إلى الله ثم يتوجهون إلى صفاته، هذه المضامين موجودة في روايات كثيرة ونحن أردنا أن نشير بأنه كيف أن البعض لا يغفلون عن الله أبداً؟ طبعاً إن الوصول إلى هذه المرحلة بحاجة إلى التمرين والمواظبة على إدراك حضور الرب جل وعلا وبعد تلك الرياضات والجد والاجتهاد يعرّف الرب نفسه للإنسان وبعد ذلك الحين ينظر الإنسان إلى الجمال الربوبي ويكون في ذكره دائماً.

«ولا يريدون كثرة الطعام ولا كثرة الكلام ولا كثرة اللباس».

الصفات الرابعة عشرة والخامسة عشرة والسادسة عشرة: هي أنهم لا يريدون كثرة الطعام ولا كثرة الكلام ولا الإسراف في اللباس (في مقابل أهل الدنيا الذين هم دائماً يفكرون بالدنيا وزخارفها أهل الآخرة لا يفكرون بالدنيا ولا يهتمون بها).

«والناس عندهم موتى والله حي كريم».

الصفة السابعة عشرة: الناس في نظرهم موتىٰ والله في نظرهم حي وكريم

---

(١) تحف العقول ص ٣٤١، جاء في الرواية من زعم أنه يعرف الله بتوهم القلوب فهو مشرك ومن زعم أنه يعرف الله بالاسم دون المعنى فقد أقر بالظن لأنّ الاسم محدث ومن زعم أنه يعبُدُ الاسم والمعنى فقد جعل مع الله شريكاً ومن زعم أنه يعبُدُ بالصفة لا بالإدراك فقد أحال على غائب ومن زعم أنّه يعبدُ الصفة والموصوف فقد أبطل التوحيد لأنّ الصفة غير الموصوف ومن زعم أنه يضيف الموصوف إلى الصفة فقد صغّر بالكبير ﴿وما قدروا الله حق قدره. . .﴾.

أهل الدنيا دائماً حذرون أن لا يسيء الناس الظن بهم، ويبقى مقامهم واعتبارهم ويسعون في جلب وجوه الناس إليهم ومحبتهم لكي لا يظن بهم ظن السوء يهتمون ويحسبون حساباً للرأي العام لذلك يخفون عيوبهم. طبعاً إنَّ الله كذلك لا يحب أن يظهر عيب المؤمن ولكن الكلام حول أهل الدنيا لأجل جلب انتباه الناس إليهم ولأجل أن يحترموهم يتظاهرون بالإعمال الصالحة في مقابل أهل الآخرة فإنهم لا يهتمون في جلب أنظار الناس إليهم ولا ينظّمون حياتهم على أساس طلب الناس وحب الناس، هم يعملون بواجبهم، لا يعتنون بكلام الناس، وحكم وإرادة الناس. الله وحده أمام نظرهم ووحده عندهم الحي والخالد، عكسنا نحن حيث نظن الناس أحياء وحضوراً، ولا نتوجه ونهتم بحضور الله وهو الشاهد والشهيد والحاضر الناظر على أعمالنا!

«يدعون المدبرين كرماً ويستقبلون المقبلين تلطفاً».

الصفة الثامنة عشرة: يدعون المدبرين تكرماً ويستقبلون المقبلين تلطفاً، إذا تركهم الآخرون لا يتركونهم ويفرّطون بهم، بل يحاولون إرجاعهم وإقناعهم وإرضاءهم، كل ذلك من أجل الله، لا لأجل ازدياد عددهم، بعض الأحيان يكون عمل أهل الآخرة مثل عمل أهل الدنيا، ولكن الدوافع مختلفة، طالب الدنيا يتواضع أمام الآخرين ويعاملهم معاملة حسنة لكي يكسبهم ويزيد عدد المحبين له والمعجبين به، ولكن أهل الآخرة يتواضع الآخرون لهم، لأن الله يحب أن يتواضع الإنسان لعباده سبحانه وتعالى.

الفارق البارز بين أهل الآخرة مع أهل الدنيا

«قد صارت الدنيا والآخرة عندهم واحدة».

الصفة التاسعة عشرة: صارت الدنيا والآخرة في نظرهم واحدة. هذه الصفة مثل سائر الصفات ذات مراتب ودرجات وليست عند كل أهل الآخرة الدنيا والآخرة بمستوى واحد. أما أصحاب الدنيا فهم لا يعتقدون بالآخرة ويفكرون بالدنيا وحسب، يقول الله عنهم:

﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾.

في مقابل هذه المجموعة من أهل الدنيا، مجموعة من أهل الآخرة يعتقدون بالموت والمعاد ويشهدون بذلك ولكن أعمالهم مخالفة لأقوالهم ولا يظهرون اعتقادهم بالآخرة. أضف إلى ذلك أن أكثر أعمالهم الأخروية فيها لون وشكل دنيوي: مثلاً نحن نصلي صلاة الليل لكي تستجاب أدعيتنا وتزداد أرزاقنا أو نصير محبوبين أكثر أمام الناس لأنه جاء في أوصاف المصلين لصلاة الليل تكون وجوههم نيّرة، يدخلون في قلوب الناس وتقضى حوائجهم في الواقع نحن جعلنا عبادة الله وسيلة لمطالبنا واحتياجاتنا يعني استخدمنا عبادة الله للوصول إلى الدنيا، ونحيي ليلة القدر لكي تقضى حوائجنا ونحصل على مطالبنا، إحياء وعبادة ليلة القدر مع ما فيها من عظمة وقيمة استخدمناها للحصول على بيت وعلى حياة مرفهة، لا تساوي عندنا ليلة القدر سوى بيتٍ، هذا دليل على أننا نريد الأمور الأخروية لدنيانا، بتعبير آخر إننا نعتقد أن الأصالة للدنيا والدنيا نقد ويجب أن نستلمها ونأخذها[١]. أما أولياء الله يعتقدون بأن الآخرة كذلك نقد. الذي يخرج

---

(١) الحصول عليها وأخذها ـ لعل هذه الجملة أحسن (المترجم).

صباحاً للعمل ليأخذ من محصول يده، لا يقول فعلاً لا أترك النقد، واختار الدعة والراحة ولا أذهب وراء التعب والعناء والشغل، بل الإنسان العاقل يعمل في حياته لكي يحصل على النتيجة. والنتيجة عاجلاً كانت أو آجلاً لا يهم، المهم هو الحصول على النتيجة، الإنسان يذهب إلى الجامعة لكي يحصل على الشهادة والشهادة هي أيضاً وسيلة للعمل وحصول الراتب.

لا شك أن هذا العمل مقبول في نظر العقلاء أن يعمل ويتعب الإنسان سنين عديدة لكي يحصل على نتيجة تلك الأتعاب. إذن ليس من الجهل والحمق أن يعمل الإنسان في الدنيا ويرى أثره في الآخـرة بل هذا العمل عقلائي ومطابق لحكم العقل. فيقين واعتقاد الأولياء وأهل الآخرة بالآخرة أكثر من اعتقادنا نحن بنتائج الأعمال الدنيوية، لأنه لا يمكن الاطمئنان كثيراً بأعمال الدنيا، مثلاً عندما ننبت شجرة فلسنا مطمئنين إلى أن نحصل على الثمر لأنه يمكن أن تصيبها آفة وتحطمها أو لا يمكن إعطاء الثمر في الموعد المحدد مع كل ذلك نحن نسعىٰ للحصول على المحصول ونستفيد من ذلك الظن القوي الذي نملكه بالحصول على النتيجة.

إذا كان عندنا هذا المقدار من الاطمئنان بالآخرة وأن آثار أعمالنا سوف تبقى فلا يمكن لنا تبديل الشيء الذي نتيجته غير محدودة بشيء نتيجته محدودة ومؤقتة ومنقطعة. لأن نتيجة ولذة كثير من أعمالنا الدنيوية لا تستمر أكثر من ساعة والبعض يسعون مدة طويلة من أجل الحصول على هذه اللذة القصيرة في حين لم يصرفوا عُشراً من السعي لكي يحصلوا على اللذات الأبدية ودليل ذلك عدم الاعتقاد بالآخرة وضعف إيمانهم حتى لو يفسرون ذلك بشكل آخر، في مقابل أصحاب الدنيا، الدنيا والآخرة عند أهل الآخرة واحدة، فكما أن الدنيا عندهم يمكن الحصول عليها، كذلك الآخرة يمكن الحصول عليها، فإذا حسبوا للدنيا حساباً كذلك عليهم أن يحسبوا للآخرة حساباً، يقيسون أمور الدنيا والآخرة فيختارون لذات الآخرة لأن تلك اللذات عندهم نقدية وهذه نستفيدها من جملة:

«قد صارت الدنيا والآخرة عندهم واحدة» وهذه الحقيقة لها مرتبة أعلى أيضاً، وهي أن البعض يصلون إلى مقام ينظرون إلى الآخرة لا غير والدنيا في نظرهم فانية.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «صلى النبي صلى الله عليه وآله صلاة الصبح مع الناس ثم وقع نظره في المسجد على شاب (زيد بن حارثة) وهو يغفو وينزل رأسه إلى الأسفل وكان لونه أصفر، وضعيف البدن وقد غارت عيناه فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: كيف أصبحت يا فلان؟ قال أصبحت يا رسول الله موقناً، فتعجب رسول الله من قوله وقال: إنَّ لكل يقين حقيقة فما حقيقة يقينك؟

فقال: إنَّ يقيني يا رسول الله هو الذي أحزنني وأسهر ليلي وأظمأ هواجري فعزفت نفسي عن الدنيا وما فيها حتى كأني أنظر إلى عرش ربي وقد نصب للحساب وحُشر الخلائق لذلك وأنا فيهم وكأني أنظر إلى أهل النار وهم فيها معذبون مصطرخون وكأني الآن أسمع زفير النار يدور في مسامعي، فقال رسول الله لأصحابه: هذا عبد نوّر الله قلبه بالإيمان، ثم قال له: إلزم ما أنت عليه، فقال الشاب: ادعُ الله لي يا رسول الله أن أُرزق الشهادة معك فدعا له رسول الله فلم يلبث أن خرج في بعض غزوات النبي فاستُشهد بعد تسعة نفرٍ وكان هو العاشر»(١).

قال ذلك الشاب للنبي: «كأني أرى الجنة وأهلها...» كمثل جلوسك في غرفةٍ وتشاهد باحة البيت فيقينك بوجود ساحة البيت وحديقته، كأنما تشاهد الساحة والحديقة، حتى فلو كان أهل الآخرة لا يشاهدون الجنة بشكل مباشر ولكن على أساس يقينهم كأنما هم يشاهدونها، كأنما هناك ستار حائل بينهم ومن خلال الآثار يعرفون ماذا وراء الستار. أما المرحلة التي هي أهم وأعلى من هذه،

---

(١) أصول الكافي (مع الترجمة) ج٣ ص ٨٩ مثل هذه الرواية موجودة في البحار ج٢٢ ص ١٤٦ عن الصادق عليه السلام حول حارث بن مالك.

فإنها ترتبط بالأشخاص الذين ذهبت روحهم أبعد من أفق الدنيا والزمان ويشاهدون الآخرة واقعاً لا أن يشاهدوا شيئاً شبيهاً. طبعاً هذا الأمر غير واضح لنا، ولكن نعلم أن الذين وصلوا إلى هذه المرحلة عندهم إشراف على الدنيا والآخرة وعندهم هذان الاثنان شيء واحد.

الدرس الثالث عشر

أوصاف أهل الآخرة (٣)

أهمية المبارزة مع النفس الأمّارة

أولياء الله وفناؤهم في الجمال الربوبي

أولياء الله وعنايات الله سبحانه لهم

أوصاف أهل الآخرة (٣)

«يموت الناس مرةً ويموت أحدهُم في كل يوم سبعين مرة من مجاهدة أنفسهم ومخالفة أهوائهم والشيطان الذي يجري في عروقهم ولو تحركت ريحٌ لزعزعتهم وإن قاموا بين يدَيَّ كأنهم بينان مرصوص لا أرى من قلبهم شغلاً لمخلوقٍ فوعزَّتي وجلالي لأحيينّهم حياة طيبة، إذا فارقت أرواحهم من أجسادهم لا أُسلِّط عليهم ملك الموت ولا يلي قبض روحهم غيري ولأفتحنَّ لروحهم أبواب السماء كلها ولأرفعنَّ الحُجُب كلها دوني ولآمرنَّ الجنان فلتتزينَّ والحور العين فلتزفّنَّ والملائكة فلْتصلّينَّ والأشجار فلتثمرنَّ وثمار الجنة فلتدلينَّ ولآمُرنَّ ريحاً من الرياح التي تحت العرش، فلتحملنَّ جبالاً من الكافور والمسك الأذفر فلتصيرَنَّ وقوداً من غير النار فلتَدخِلَنَّ به ولا يكون بيني وبين روحه سترٌ، فأقول له عند قبض روحه: مرحباً وأهلاً بقدومك عليَّ، اصعَد بالكرامة والبشرىٰ والرحمة والرضوان وجناتٍ لهم فيها نعيم مقيم، خالدين فيها أبداً إن الله عنده أجرٌ عظيم، فلو رأيت الملائكة كيف يأخذ بها واحدٌ ويُعطيها الآخر».

قبل هذا تحدثنا عن بعض خصائص أهل الآخرة وفي هذه القسمة نبيّن الخصائص الأخرى لأهل الآخرة.

أهمية المبارزة مع النفس الأمّارة

«يموت الناس مرة ويموت أحدهم في كل يوم سبعين مرة من مجاهدة أنفسهم ومخالفة أهوائهم والشيطان الذي يجري في عروقهم».

الصفة العشرون: الناس يموتون في كل عمرهم مرة واحدةً، ولكن أهل الآخرة، بسبب مبارزتهم للنفس الأمّارة ومخالفة الهوى ومجاهدة الشيطان الذي هو في نفوسهم كل يوم يموتون سبعين مرة. يعني المخالفة للأهواء النفسية صعب وقاس ومشكل وتعبه وألمه أشد وأكثر من تعب وألم الموت إذا قسنا ألم مخالفة النفس مع تحمل الموت سوف نعلم بأن أهل الآخرة يتحملون كل يوم سبعين مرة ألم المعاناة أكثر من الألم الذي يصيب الإنسان عند موته. عندهم الدافع إلى طاعة الله ومخالفة النفس بشكل قوي يجعلهم يقاومون الهيجانات الشديدة والميول القوية للنفس والوساوس الشيطانية ولا ينقطعون عن الله، كأنما يساقون إلى الموت كل يوم سبعين مرة ولا يتعلقون بالشيطان، وهم مستعدون أن يقدموا أرواحهم كل يوم سبعين مرة، ولا يتعلقون بالدنيا والأهواء النفسية والشيطانية.

هذه الجملة من حديث المعراج في الواقع تشير إلى أهمية مبارزة النفس ومخالفة الأهواء النفسية ولكن الإنسان إلى أي حد يجب عليه أن يعد نفسه لتحمل الصعاب والأتعاب الشاقة الناشئة من مبارزة النفس؟ هذا ما ذكر في الصفة الآتية. تعبير «الشيطان يجري في عروقهم» هذا تعبير كنائي، في اللغة الفارسية كذلك يقول: «دخل الشيطان في عرقه وجلده» يعني أن الشيطان قريب للإنسان بشكل عجيب وشاطر في الوسوسة بشكل غريب كأنما قد استقر في داخل عروقه وأخذ يجري مع الدم في كل أعضائه وجوارحه.

أولياء الله وفناؤهم في الجمال الربوبي

«ولو تحركت ريح لزعزعتهم وإن أقاموا بين يديّ كأنهم بينان مرصوص».

الصفة الحادية والعشرون: هم ضعيفون ونحيفون إذا هبت الريح عليهم حركتهم، ولكن أمام عبادتي، كأنما سد حديدي لا يتعبون ولا يحركهم من مكانهم شيء. لعل هؤلاء ضعاف من الناحية البدنية وفي القيام في الأعمال الدنيوية أبدانهم ضعيفة وذابلة ولكن هذه الأبدان النحيفة والضعيفة عندما تقوم لطاعة ربها وعبادته بين يديه تقوم بشكل لا يوصف ولا يمكن أن يقابلها أيُّ قوي، نحن عندما نقف للصلاة، إذا كان الإمام يصلي ببطء نتعب ونبقى نضع قدماً ونرفع أخرى ونحن في بحبوحة الشباب ونشيطون وأقوياء. ولعل إمام الجماعة وهو في حدود الثمانين من عمره أقوى منا ولا يتعب نتيجة ارتباطه بالله مع ما به من الشيخوخة والكبر ولكن الشباب الأقوياء يتعبون من إقامة ركعتي صلاة. إذن لا يوجد ارتباط بين القوة البدنية وتحمل العبادة وإنما العشق والعلاقة الروحية للإنسان هي التي تجعله قوياً للعبادة.

العلاقة والتمرين عاملان أساسيان لتقدم الإنسان في مجال الارتباط بالله تعالى وللحصول على الهدف حتى لو كان الهدف بحسب الظاهر لا يمكن حصوله. الأعمال الخارقة للعادة التي يقوم بها البعض مثل (حركات اكروباتيك) و(الجمناستيك) عجيبة للإنسان وكادت لا تصدق ولكن البعض استطاعوا أن يقوموا بها وذلك عن طريق العلاقة والتمرين والممارسة لأنه إذا كان للإنسان علاقة وحب ودخل أي باب لا يتوقف بل يتقدم فيه فإذا أردنا واقعاً أن يكون في صدد العبادة والطاعة لله وواظبنا عليها نتوفق فيها. والعمدة في ذلك إرادة القلب وجاذبية العشق في الإنسان.

ونقل قصص أولياء الله مفيد لنا، وقد نقل أحد أولياء الله قصة عن حياة المرحوم الشيخ حسن علي الاصفهاني صاحب الكرامات العديدة الذي كان يعيش في مشهد الإمام الرضا عليه السلام وقد كان أكثر الأوقات يصعد إلى سطح الحرم المطهر يتعبد جنب القبة ومحاذياً للقبر الشريف ينقل أحد خدام السدانة المقدسة: في ليلة الجمعة طلب مني مفتاح السطح ففتحت الباب وصعد إلى السطح وأخذ يصلي - والمعروف عن المرحوم الشيخ حسن علي الاصفهاني أنه كان يطوّل في الصلاة ويقرأ السور الطويلة، وفي تلك الليلة قرر أن يطوّل الركوع - يقول ذلك الخادم: ذهبت إلى السطح لأخبره بأني أريد غلق باب الحرم ولكن رأيته مشغولاً في الركوع صبرت عدة دقائق، لعله يتم الصلاة ولكن كلما انتظرت لم يرفع رأسه من الركوع. كان الجو بارداً وأخذ ينزل الثلج وأنا من أجل الاحتياط جمعت حوله مقداراً من الحطب ليشعله بعد ذهابي وينجو من البرد والثلج ثم أغلقت الباب وذهبت إلى بيتي ولكن كنت قلقاً عليه، انتظرت السحر لكي أذهب إلى الحرم، وأرى ماذا جرى له. صدفةً نزل ثلج كثير في تلك الليلة وأخيراً وصل وقت السحر وفتحوا باب الحرم ودخلت بسرعة إلى الحرم وذهبت إليه مسرعاً، فرأيته ومع كمال تعجبي لا يزال في الركوع وتقريباً شبر من الثلج متجمع على ظهره وأخيراً أتم الصلاة قريب أذان صلاة الصبح. ذهبت إلى جنبه رأيته لا يحس بضعفٍ أو ألم أصلاً كأنما لم ينزل الثلج مع أنه كان ضعيفاً جداً وبدنه هزيلاً نحيفاً. أطال الركوع من الليل إلى الصباح بدافع الحب والعشق الإلهي، كان بالركوع وكان يقاوم أمام البرد والثلج! عندما يطول ركوعنا قليلاً يتألم ظهرنا ولا نستطيع أن نقاوم، ولكن أولياء الله وبسبب العشق والعبادة والمناجاة، يقتدون بالملائكة ويقومون بركوعات وسجدات طويلة وشيئاً فشيئاً وباستعانة الله يتقوون على العبادة، كما جاء هذا المطلب في القرآن والروايات تكراراً (على كل حال يُشير هذا القسم من الرواية بأنه يمكن أن يكون الإنسان ضعيفاً من الناحية البدنية وقيامه بالأعمال الدنيوية، ولكنه يملك قوةً خارقة للعبادة).

سألوا المرحوم آية الله الأميني رضي الله عنه: هل أنت تصدق الحديث الذي يقول إنَّ الإمام علياً عليه السلام كان يصلي كل ليلة ألف ركعة وهل يمكن ذلك؟ قال: أنا جربت ذلك.

نقل أحد أصدقائه بأنه كان في كل شهر رمضان وفي حرم الإمام الرضا عليه السلام كل ليلة بعد الافطار إلى السحر كان يصلي ألف ركعة هذا من ناحية قدرتهم الظاهرية للعبادة والتي تدل على استعدادهم وقوتهم الظاهرية والجسمية، يقفون عشاقاً أمام الله وينشغلون في مناجاته حتى وإن كانت وحدها لا تتعلق بالقوة الظاهرية، فالأهم عندهم هو التوجه القلبي لله عند أداء هذه العبادات الطويلة فما كان يخطر ببالهم حتى لحظة واحدة شيء غير الله.

«لا أرى في قلبهم شُغلاً لمخلوق».

الصفة الثانية والعشرون: لا ينشغل قلبهم لمخلوق لحظةً واحدة. نحن عندما نصلي ركعتين الشيء الذي لا نتوجه إليه هو الله نفكر بكل شيء سوى الله. أما أولئك فلا يفكرون بمخلوق بل مشغولون بالله وفقط إنَّ الله سبحانه مجدهم وشوقهم وبشرهم (وهذه البشارة جاءتهم على لسان النبي الأكرم صلى الله عليه وآله كل واحدة من هذه البشائر بشارة خاصة من قبل الله).

أولياء الله وعنايات الله سبحانه لهم

«فوعزتي وجلالي لأحيينهم حياةً طيبةً».

الحياة الطيبة التي وعد المؤمنون بها في القرآن والروايات هي غير حياتنا الطبيعية كل حياتنا ملوثة ومقرونة بالآلام والأحزان والبلايا ولكن لأننا تعودنا عليها لا ندرك تلوثها وقذارتها مثل الدباغ الذي تعود على رائحة معمل الدباغة ولم يتأذ منها. الله سبحانه يعطي لأوليائه الحياة المليئة بالسرور، عندما يشاهد الآخرون وضعهم لعلهم يتصورون أن حياتهم تمر عليهم بصعوبة خصوصاً إذا شاهدوها من ناحية دائمي البكاء الذين يذرفون دموعهم وهم خائفون ومن ناحيةٍ أخرى يشاهدون أيديهم خالية من مال ومتاع الدنيا ولعل الناس يعطفون عليهم أما لو علموا ما في قلوبهم لعرفوا بأن ساعة واحدة من أعمارهم أفضل من كل لذات أهل الدنيا مع ما عليهم من ذرف الدموع والدعاء والبكاء، تحصل لهم حالة لا تحصل للآخرين ويستلذون لذةً ليست من سنخ اللذات المادية والدنيوية وليس لها مثيل حتى إذا ابتلوا بالدنيا، بالآلام والأحزان، ولكن في المقابل فإن الله يمن عليهم بمنافع ونعم معنوية خاصة لا يمكن للآخرين دركها.

«إذا فارقت أرواحهم من جسدهم لا أسلّط عليهم ملك الموت ولا يلي قبض روحهم غيري».

﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾[1].

في مكان آخر يقول الله سبحانه:

﴿... حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾[2].

---

(١) سورة السجدة، الآية ١١.

(٢) سورة الأنعام، الآية ٦١.

على أساس هذه الرواية والروايات الأخرى التي جاءت بهذا المضمون وهو أن قبض روح بعض الناس بيد الله. هذا المقام العالي والرفيع، يكون نصيب الأشخاص الذين هم عشاق لله تعالى وقضوا أعمارهم بأمل مشاهدة المحبوب ومستعدون أن يقدموا أرواحهم في سبيل لقاء ومشاهدة المحبوب، والله يهب لهم لقاءه عند موتهم، ثم أنهم يحسون بأن أرواحهم بيد الله وهو الذي يقبض أرواحهم. فهم كمثل الذي ابتعد عن معشوقه سنين عديدة وبعدها حصل له وصاله ولقاؤه وعانق معشوقه. فهو فرح ومسرور، ليس فقط عند الموت ليس عندهم خوف ولا حزن، بل لديهم لذة لا تقاس بأي شيء لأنهم يعيشون في وصال المعشوق ولقائه.

ونحن لا ندرك قيمة وعظمة هذا المطلب. لماذا؟ لأن هذا المقام يعطى للأنبياء ولأولياء الله الخاصين منهم وهذا الشخص وصل إلى مقام أعلى من مقام الملك المقرّب عزرائيل، بحيث لا يملك رخصة في قبض روحه. جاء في الروايات بأن لأولياء الله ومحبي الله درجات لم تصل إليها الملائكة، وهذه الرواية تشير إلى هذا المعنى: إذا لم يقبض روحه ملك الموت إذاً مقامه أعلى وأرفع من ملك الموت، وترقى مقامه حتى وصل إلى مقام أعلى من مقام الملائكة الأربعة المقربين والذي أحدهم هو عزرائيل الذي يتولى قبض روحه الله سبحانه.

ويقول الله في هذا الأمر عن كيفية معاملته له بعد قبض روحه: «ولأفتحَنَّ لروحهم أبواب السماء كلها».

نحن لا نعلم كيف يقبض الله أرواح هؤلاء وكيف هي أبواب السماء وكيف تعبر الروح من أبواب السماء؟ لا نعرف حقيقة هذه المفاهيم لأجل التقريب للذهن يجب القول: المقام العالي للقرب الإلهي شُبّه بالسماء العالية والمرتفعة والتي يصل إليها أولياء الله فقط. يقول الله حول المجرمين:

﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾(١).

أبواب السماء وارتباطها مع ورود الجنة، وكذلك حقيقة وواقعية الجنة بقيت حقائق غير معلومة لنا مثل مكان الجنة، ولكن يجب قبول كل ما قاله الله سبحانه والمعصومون عليهم السلام، وإذا ما استطعنا درك شيء أو فهمه وعجزت عقولنا عنه فإنه ليس بمعنى أن لا واقعية له بل كل ما قالوه حق ومطابق للواقع وإن كان عقلنا عاجزاً عن إدراك حقائقه. عندما يقبض الله أرواح المؤمنين تفتح لها كل أبواب السماء، ثم تعبر أرواحهم من أبواب السماء وتدخل جنة البرزخ من هنا لا يوجد مانع أمامهم للوصول إلى المقامات العالية ونيل القرب الإلهي لأنهم ما كان عندهم انحراف في القوة الشهوية ولا في القوة الغضبية ولا في الأفكار والعقائد ولا في الأعمال، وكذلك في المسائل الفردية والاجتماعية والعائلية بل إنهم عملوا بكل وظائفهم، ولا يوجد مانع لهم من دخولهم الجنة.

«ولأرفعنَّ الحُجُب كلها دوني».

من المفاهيم التي وردت كثيراً في الروايات وأشار إليها الإمام الخميني رضوان الله عليه مكرراً هي أنه توجد حجب بين الإنسان وربه وعلى حسب الروايات تقسم هذه الحجب إلى قسمين: حجب ظلمانية وحجب نورانية، وإن العظماء وعلماء الأخلاق عندهم كلام في هذا الباب ولكن لم تتضح لنا حقيقة هذه الحجب ما هي وكيف تصير حائلاً بين الإنسان وربه؟ يجب القبول بأننا لا ندرك الحضور الإلهي ولذة الحضور عندما نعبد الله نكون في هذا الفكر بأننا نعبد موجوداً غائباً وكأنما هو وراء السموات، ولكن يوجد من لا يحسون بحجاب وفاصلة بينهم وبين الله بل يشاهدون الله بأنه أقرب إليهم من كل شيء وحتى من حبل الوريد(٢).

---

(١) سورة الأعراف، الآية ٤٠.

(٢) إشارة إلى الآية الشريفة ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾.

طبعاً هذا الموضوع يحتاج إلى بحث علمي وفلسفي، ولكن ينبغي القبول بأنه لا يمكن أن يكون بين الله ومخلوقاته حجب لأن الكون كله بيده وقائم بإرادته، ولأننا بعيدون عن الله لا ندرك هذه الرابطة (الرابطة بين الله وبين الإنسان) هكذا نقرأ في الدعاء:

«لأنك لا تحتجب عن خلقك إلا أن تحجبهم الأعمال السيئة دونك»(١).

تزول الحجب شيئاً فشيئاً على أثر الأعمال الصالحة والتقرب إلى الله، في الأول تزول الحجب الظلمانية ثم الحجب النورانية حتى يصل المؤمنون إلى مقام لا يبقى بينهم وبين الله حجاب ثم يشير إلى أنه أُزيّن الجنة لهم وأجعل الحور العين بخدمتهم، وتثمر أشجار الجنة وتتدلى بفاكهتها ولأجل قدومهم المبارك تقام الحفلات ويعم السرور هناك.

«ولآمَرَنَّ الجنان فلتزيننَّ والحور العين فلتزفنَّ والملائكة فلتصلّينَّ والأشجار فلتثمرنّ وثمار الجنة فلتدلينَّ».

تزيين الجنة ذكر من أجل الاستقبال لروح المؤمن الذي تم قبض روحه من قبل الله سبحانه. حفلة الفرح والسرور التي أقيمت في الجنة مقدار منها يمكن تصوره ويمكن تصور وضع الجنة وزينتها واستقبال حور العين وخدمتهن، ولكن الشيء المسلم هو فوق هذه المطالب ولا يمكن لذهننا دركه.

«ولآمرنَّ ريحاً من الرياح التي تحت العرش فلتحملنَّ جبالاً من الكافور والمسك الأذفر فلتصيرنَّ وقوداً من غير نار».

المسلم لتعطير الجنة وفضائها الواسع بحاجة إلى جبال من الكافور والمسك ولأنه لا يوجد نار هناك لكي يعطر الكافور فيتقد من دون نار (كل هذه التشريفات لأجل ورود روح المؤمن).

---

(١) بحار الأنوار ج٨٦ ص ٣١٨.

«فلتدخلَنَّ به ولا يكون بيني وبين روحه ستر فأقول له عند قبض روحه: مرحباً وأهلاً بقدومك عليَّ، إصعد بالكرامة والبشرى والرحمة والرضوان ﴿وَجَنَّـٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ۝٢١ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

عندما وصل الكلام إلى هنا يقول الباري عز وجل:

«فلو رأيت الملائكة كيف يأخذ بها واحدٌ ويُعطيها الآخر».

كل ما ذكر هو شيء قليل من كيفية قبض روح المؤمن والاستعدادات لورود الجنة والمقام الإلهي الذي هُيىء له، وحتى لو كانت هذه المطالب مفهومة عندنا ويمكن تصورها ولكن الله يقول:

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾.

الدرس الرابع عشر

مقام ومعرفة الزاهدين

التقسيمات الثلاث للعباد

مقام ومعرفة الزاهدين

إنَّ وجوه الزاهدين مُصفرّةٌ من تعب الليل وصوم النهار، وألسنتهم كلال من ذكر الله تعالى قلوبهم في صدورهم مطعونة من كثرة صمتهم، قد أعطوا المجهود في أنفسهم لا خوفاً من نار ولا طمعاً في جنة ولكن ينظرون في ملكوت السموات والأرض فيعلمون أنَّ الله سبحانه أهلٌ للعبادة.

الزاهد في اصطلاح علماء الأخلاق والعرفان هو الذي ترك لذات النعم ولذات الدنيا من أجل الحصول على النعم الإلهية، لا تجده لاهثاً وراء اللذات الدنيوية حيث تراه وقد ترك هموم الدنيا وكدّها وسعيها واتخذ لنفسه مكاناً مخفياً قصياً لعبادته.

في مقابله العابد وهو الذي انشغل بعبادة الله سبحانه من أجل الحصول على الثواب والأجر الأخروي والأفضل من هذين الاثنين هو ذلك الشخص الذي لا يبالي ولا يكترث بلذات الدنيا بل يتعلق ويهتم بلذات الآخرة والأجر وثواب الأعمال والعبادات ويصطلح على هؤلاء بالعرفانيون.

بطبيعة الحال يعتبر الفرق بين العابد والزاهد والعارف من المسائل الجديدة والمستحدثة.

إلاّ أنه وبالرجوع إلى رواية (حديث المعراج) فإن عبارة الزاهد تشمل العارف أيضاً، بعبارة أخرى فللزهد مراتب والعارف هو الشخص الحاصل على أعلى درجاته ومقاماته.

ورد في أحد أجزاء الرواية أن الزهاد قد اصفرت وجوههم بسبب العبادة وإحياء الليل لأن قلة النوم تسبب اصفرار الوجه.

ومن ناحية أخرى تجدهم يُحيون الليل بالعبادة ويقضون النهار بالصوم،

وقد كلت ألسنتهم من كثرة ذكر الله تعالى، وفي نسخة أخرى «وألسنتهم كلالٌ إلاّ من ذكر الله» يعني أخذ يصعب عليهم التحدث والكلام ولكنهم لم يشعروا بالتعب من ذكر الله.

والزهاد قلوبهم مطعونة من كثرة صمتهم، أي تراهم يضغطون على أنفسهم وكأنهم قد طعنوا وذلك لكي لا يخرج منها كلام، وهم بمثابة ومنزلة من يقاتل ضد الأعداء وهؤلاء قد نهضوا لمقاتلة هوى النفس وسحقوا هوى أنفسهم وقد أعطوا غاية المجهود في أنفسهم لا خوفاً من نار ولا شوقاً إلى جنة.

كما أشير آنفاً فإن الزاهد في هذه الرواية يشمل العارف إيضاً ويصطلح العرفانيون على العارف في إزاء الزاهد، وإن كان قد ورد في أشعار حافظ وغيره من العرفانيين مذمةً للزهاد فذلك كله لأن الزهاد قد تركوا لذات الدنيا طمعاً بالحصول على لذات الآخرة وإلا أن العارف هو ذلك الشخص الذي لا يطمع حتى في لذات الآخرة، وإنما تجده طالباً رضا المحبوب فقط.

وقد ورد في هذه الرواية أن عبادة الزاهد تمتد من الليل وإلى الصباح وتجده صائماً متحملاً الصعاب ومبتعداً عن اقتراف الذنوب داحراً هوى النفس ليس خوفاً من العذاب الإلهي أو من أجل الوصول إلى لذات الجنة، لا هذا ولا ذاك بل وجد الله أهلاً للعبادة فعبده.

إلاّ أنهم ينظروا في ملكون السموات والأرض فيعلمون أن الله سبحانه أهل للعبادة.

جاء هذا المعنى كثيراً في الروايات من جملة ذلك هو ما قاله علي عليه السلام:

«إلهي ما عبدتك خوفاً من عقابك ولا طمعاً في جنتك ولكن وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك»[(١)].

---

(١) بحار الأنوار ج ٤١ ص ١٤.

التقسيم الثلاثي للعباد

يُقسم الإمام الصادق عليه السلام العباد كما ورد في الرواية إلى ثلاثة أقسام:

المجموعة الأولى: «قوم عبدوا الله عز وجل خوفاً فتلك عبادة العبيد».

ومثل هؤلاء مثل العبيد الذين يطيعون مواليهم خوف الضرب والتعذيب، بعض الناس يعبد الله سبحانه وتعالى خوفاً من نار جهنم.

المجموعة الثانية: «وقومٌ عبدوا الله تبارك وتعالى طلباً للثواب فتلك عبادة الأجراء».

ومثل هذه المجموعة مثل الذين يعملون لقاء الأجر أي كالتاجر الذي يعمل من أجل الحصول على المردود المالي وهؤلاء يعبدون الله من أجل الحصول على الأجر الأخروي والحور العين. ويمثل هذا الأجر في واقع الأمر تجارة مع الله سبحانه.

والمجموعة الثالثة: «وقومٌ عبدوا الله حُباً له فتلك عبادة الأحرار وهي أفضل العبادة»[1].

ويمثل هذا القسم أناساً يعبدون الله حباً وعشقاً وهي عبادة الأحرار وهي أفضل العبادات.

وفي رواية أخرى عن الإمام الصادق عليه السلام بعد أن عمد إلى إيضاح المجموعة الأولى والثانية: ولكني أعبده حباً له وهو لا يتصور أن العبادة التي تكون خوفاً من العذاب الإلهي أو العبادة التي تكون من أجل الظفر بالأجر الأخروي غير صالحة وغير جيدة.

---

(١) بحار الأنوار ج ٧٠/ ٢٣٦.

ولكون القرآن قد امتدح المتقين الذين يخافون العذاب الأليم أو الذين يتجنبون اقتراف الذنوب طمعاً في الحصول على الثواب الجزيل.

وبطبيعة الحال يكون مقامهم أدنى من مقام أولئك الذين يعبدون عبادة حب وعشق وعلاقة ولكن عندهم يقين بالآخرة والعذاب الأخروي مثل ذلك كما لو أردنا الخلاص من الشتاء والصيف عن طريق تهيئة الوسائل اللازمة للتدفئة شتاءً والتبريد صيفاً وذلك لأننا متيقنون تمام اليقين ببرد الشتاء وحر الصيف ونريد أن نتجنب ذلك، ونحن أيضاً متيقنون تمام اليقين أيضاً بالجنة والنار وعلينا أن نعد العدة لذلك ولأجل أن نتخلص من عذاب الآخرة ونسعى للوصول إلى النعم الإلهية والجنة، فإن هذا يعتبر ممدوحاً ومحبوباً إلاّ أنه ولشديد الأسف لم يحصل لنا هذا اليقين لذا لا ينبغي أن نقلل من أهمية عبادة المجموعة الأولى والثانية.

﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾[1].

أفضل العبادة وأحسنها عبادة الشخص الذي اعتقد أن الله سبحانه أهلاً للعبادة فعبده وتحمل في طاعته كل الصعوبات لكي يمنحه حق العبودية فقد منحه قلباً، وعنده نعمة القرب والرضوان الإلهي فوق كل النعم الموجودة في الجنة وهي لا تمثل عنده شيئاً في مقابل الجوار الإلهي والرباني.

ولو أخذنا على سبيل المثال لا الحصر، مسألة حب شخص لشخص آخر تجده يبقى يعيش لحظات الحب ومن أجل الوصول إلى الحبيب تجده يُهوّن كل الصعاب من حر وبرد وتراه ساهراً الليل حتى الصباح من أجل أن يشاهد محبوبه ولو للحظة واحدة أي مثل اولئك الذين عرفوا الله وأحبوه فتجد عنده لحظة وصول واحدة إلى الله هي أفضل من آلاف السنين استفادة من لذات الجنة ونعيمها.

طبعاً تعتبر عملية تصور هذا المعنى صعبة علينا بعض الشيء. يطرح بعض الناس الذين ليس لديهم معرفة بالحقائق والمعارف الإلهية في كتاباتهم وكلامهم

---

(١) سورة الإنسان، الآية ١٠.

مسألة كون العلاقة بنعيم الجنة أو الخوف من العذاب الإلهي شيء يسير وغير مهم وبلا قيمة ويعتبر نوعاً من حب النفس. ويجب على الإنسان أن يحصل ويطلب القيم لا أن يكون دائماً يفكر بنجاته من العذاب وتجد الأشخاص العظام يحبون القيم لا النعم.

يعتبر هذا الكلام حق إلا أنه لم يُقل في مكانه المناسب. ولكن لأنه عقد نفسه على رضا الرب فهو لم يعبأ بذلك لا أنه لا يعبأ بالعذاب الإلهي ونعيم الجنة بل لأنه لم يعتقد بها إضافة إلى أن القيم بنظرهم أمور وهمية وخيالية.

يعتبر أفضل أنواعه هو كمال النفس وهو يعد من الغرور ويعد من حب الذات إن الذين يقولون هذا تجدهم لا يعلموا، في واقع الأمر، بأن عبادة الأحرار أو الذي ورد في كلام الإمام علي عليه السلام (وجدتك أهلاً للعبادة) كيف لم يدركوا بأن علياً عليه السلام وكل أولياء الله لديهم يقين بالجنة والنار كيقين ضوء النهار في حين أنهم ما كانوا يعتنون بذلك لأنهم كانوا خائفين من أمر أهم وهو خوفهم أن يحرموا من عناية المحبوب.

لعل الآية الشريفة ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ قد أوفت بهذا المعنى أي في حالة حرماننا من الرحمة الإلهية فإن الدنيا تصبح حالكة الظلام علينا عندما لا يشملنا الرضوان الإلهي وإذا ما أحسسنا بأن اللطف والمحبة الإلهيين رعيانا فإن ذلك اليوم لن يكون يوماً مهماً لنا كذلك فإن كنا في الجنة مع الحور أو في نار جهنم فذلك سيان عندنا ويعتبر هذا الكلام صحيحاً إذا كان قد صدر من لسان ذلك الشخص الذي قال:

«فهبني يا إلهي وسيدي ومولاي وربي صبرتُ على عذابك فكيف أصبر على فراقك»[1].

---

(1) دعاء كميل.

يصبح عنده عذاب جهنم لا شيء يذكر يقول: «ما عبدتك خوفاً من نارك...». طبعاً نحن لا نيأس من لطف الله ورحمته لعل مسألة الاهتمام بهذه المطالب تعتبر سبباً من تقليل علاقتنا بزخارف الدنيا وأهوائها.

إن الله سبحانه يكون عوناً للأولياء وعباده الصالحين الذين يريدون تطهير نفوسهم ويسعون في ذلك فيشملهم لطفه ونعمته.

إن سماع هذه المطالب توجب وتوجد عندنا الخوف من عذاب الله وتزيد إيماننا وإلا فما لنا والذين تعلقت قلوبهم بحب الله وسعوا في طريق أئمتهم عليهم السلام.

ترك الدنيا هي الخطوة الأولى لمعرفة الله:

من أراد أن يسير في طريق المعرفة الحقّة لله ومحبته ويترك ما سواها فعليه وقبل كل شيء أن يترك لذات الدنيا الفانية وما دمنا لم نترك لذات الدنيا المشوبة بأنواع البلايا والمحن والذنوب فكيف نتمكن من أن نترك ونتغاضى عن لذات الآخرة الخالية من البلايا والمتاعب، يقول الله سبحانه عن نعيم الجنة:

﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾.

وفي مكان آخر يقول: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾.

عندما يمكن للإنسان أن يتغاضى عن نعيم الجنة القيم يجب عليه قبل ذلك ألا يترك ويتغاضى عن نعم الدنيا الرخيصة ويقلل علاقته بالدنيا وهذا غير ممكن إلاّ أن نكون قد ابتعدنا عن النعم المحرمة وبعدها من النعم المحللة للدنيا لأن الإنسان كلما استفاد فائدة أكثر من نعم الدنيا ولو كانت المحللة منها فقد تعلق قلبه بالدنيا أكثر وشيئاً فشيئاً ينحرف إلى الحرام منها فإذا أراد الإنسان أن لا يبتلى بالحرام عليه أن يضع لنفسه حدوداً ويبتعد عن بعض النعم المحللة حتى لا يقع بالحرام وأن لا ينظر إلى بعض اللقطات المحللة حتى لا يبتلى بالحرام لأنه إذا سار

الإنسان على الحدود تجده ينزلق فجأة ويقع حتى لو كان من الجائز للإنسان أن يتلذذ بالأكل والشرب المحلل ولكن عليه في بعض الأحيان أن يصوم وخصوصاً في الأشهر المباركة مثل شهر رجب المبارك وعن هذا الطريق يقوم بمخالفة أهواء نفسه وهكذا بالنسبة إلى اللباس والسكن وأمثالها. لا شك أنه واحدة من أفضل الطرق في مخالفة التوسعة والتكاثر والابتعاد عن بعض النعم الحلال، والإنفاق وإعطاء الصدقة لأن الله سبحانه يقول في ذلك:

﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[1] ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[2].

يصبح إنفاق المال والأشياء التي تعلق بها الإنسان سبباً لتقليل التعلق القلبي للإنسان بها إذاً نجد الإنسان من ناحية، وقد غض النظر عن الحلال حتى لا يقع بالحرام ونتيجة تركه لهذه اللذات يسمو الإنسان إلى مرحلة غض النظر عن نعيم الجنة هذه. هذا من الناحية السلبية ومخالفة النفس وترك اللذات، ومن ناحية أخرى ومن البعد الايجابي للقضية، ماذا يفعل الإنسان لكي يذكر الله فقط؟

ينحصر جل اهتمامنا بالإتيان بالواجبات والعمل بالأوامر الإلهية للخلاص من عذاب جهنم. لعله لو لم يكن في ترك ذلك خلاصاً من النار لما تركنا ذلك.

إذا اطمأن الإنسان بعمله بالأوامر الإلهية فإنه لا يعذب وعليه أن يسعى أكثر لكي يحصل على النعم الأخروية أكثر وهذه سعادة كبرى للإنسان أن يسلم من العذاب الإلهي ويحصل على نعيم الجنة ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[3].

---

(١) سورة آل عمران، الآية ٩٢.

(٢) سورة التوبة، الآية ١٠٣.

(٣) سورة الصف، الآيتان: ١٠ ـ ١١.

نحن لا نستطيع أن نغض النظر عن هذه التجارة ونعيم الجنة حتى إذا كان رضا الرب أن نحترق في نار جهنم فليس لدينا الاستعداد الكافي لذلك لأننا عاجزون وضعفاء عن الوصول إلى المراتب والمقامات العالية للعبادة والإخلاص، وفي حديث المعراج هذا حيث تجد عبده المؤمن والصالح والسائر في دربه قائلاً:

«لو كان رضاك في أن أقطع إرباً إرباً واقتل سبعين قتلة بأشدّ ما يقتل به الناس لكان رضاك أحبّ إليّ».

وقطعاً نحن لم نحصل على مثل هذه المعرفة لو كان يمكن لحصّلنا الاستعداد على ترك لذات الدنيا ولكن يجب السعي في الاقتراب من مسير أولياء الله حتى تكون الرحمة والعناية الإلهية قد شملتنا. ومن أجل هذا العمل المهم، يجب أن نبدأ بالأعمال التي تأخذ منا وقتاً قليلاً ولا تتسم بالصعوبة. الأعمال التي تظهر بأنها غير مهمة ونقول:

إلهنا نحن عملنا هذه لك ومن أجلك حتى لو تدخلنا النار، فيجب أن نسعى في اليوم والليلة على فعل أقل احتمال، أن نعمد إلى أن نصلي ركعتين نافلة، مثل نافلة الصبح ونقول: إلهي إذا أردت أن تدخلنا النار افعل وذلك لأننا نحبك وإذا لم تكن أعمالنا ونياتنا بغير رضا الرب فلنحاول لعدة دقائق أن تكون لأجل مرضاة الرب وهاتان الركعتان خالصة له وبدون طلب أجر، لا، أنا برأيي فلو قلنا ذكر الله أكبر أو لا إله إلاّ الله بهذه النية فهي أفضل من كل عبادتنا اليومية لأن قيمة العبادة ليست بالوقت الذي صرف لها بل بالنية والدافع ويجب أن تكون في قلوبنا المعرفة والمحبة لكي نأتي بهذه النية العالية، فنحن لو عبدنا الله ليل نهار من أجل أن نخلص من العذاب الإلهي أو نحصل على الثواب والحصول على الجنة أين، وقول ذكر خالص لله سبحانه أين، لو قلنا من كان عنده يقين بعذاب جهنم ويقين بالجنة والآخرة عليه أن يقول فقط كلمة يا الله من

أجل الباري عز وجل لا من أجل حصول الجنة أو النجاة من النار، فهي أفضل من كل العمر الذي قضاه في الابتعاد عن جهنم والحصول على الثواب الأخروي لما كان في هذا مبالغة تذكر.

الدرس الخامس عشر

الدور القيم والمهم للصوم والصمت

الارتباط بين التقرب إلى الله وبين الأعمال الايجابية والسلبية

الصمت محيي قلوب أولياء الله

آثار الصوم، الحكمة والمعرفة واليقين

الدور القيم والمهم للصوم والصمت

«يا أحمد، عليك بالصمت فإنَّ أعمَرَ مجلس قلوب الصالحين والصامتين وإنَّ أخربَ مجلس قلوب المتكلمين بما لا يعنيهم.

يا أحمد، إنَّ العبادة عشرة أجزاء تسعة منها طلب الحلال، فإن طيّبتَ مطعمك ومشربك فأنت في حفظي وكنفي. قال: يا ربّ وما أوّل العبادة؟ قال: أول العبادة الصمت والصوم.

قال يا ربّ، وما ميراث الصوم؟ قال: الصوم يورثُ الحكمة والحكمةُ تورث المعرفة والمعرفة تورث اليقين، فإذا استيقن العبد لا يبالي كيف أصبح بعُسرٍ أم بيُسرٍ».

الارتباط بين التقرب إلى الله وبين الأعمال الايجابية والسلبية

عندما يعرف الإنسان أنه يجب عليه أن يختار مسيره التكاملي بإرادته ويسير فيه بسعي حثيث وجدية، وعلم أنّ القرب الإلهي هو الهدف الأصلي من خلق الإنسان وهو أكبر الكمالات التي يحصل عليها، فلا بدّ أن يعرف الطريق الذي يوصله لذلك ويسعى في تنظيم منهج صحيح وكامل وأن يسير في مسير التقرب إلى الله. ينقسم هذا المنهج من قسمين: قسم منه يرتبط بالنشاطات والأعمال الايجابية، يعني الأعمال التي ينبغي أن يقوم بها، والقسم الثاني يرتبط بالقسم السلبي والأعمال التي يجب أن تترك.

والقسمان لهما الأهمية البالغة، طبعاً الأعمال الايجابية تسبب تقدم الإنسان وترقيته، لأن التراوح في المكان لا يسبب التقدم ولكن لعل الترك والمنع يعد إيجابياً والجهة السلبية أيضاً لها أهمية كبيرة لأنها تشجع الإنسان على العمل الايجابي والمناهج الإيجابية (إذا لم يمتنع الإنسان من الأعمال السلبية لم يستطع أن يقوم بأعمال إيجابية) لذا يجب عليه أن يفكر أولاً وقبل كل شيء أي عمل يجب أن يقوم به وأي عملٍ يجب عليه تركه. كل كتب الفقه والكتب الأخلاقية مملوءة بالأعمال التي يجب العمل بها وكذلك الأعمال التي يجب اجتنابها وبين هذه الأعمال الايجابية والسلبية يوجد نوع من التأثير والتأثر والعلة والمعلولية، فإتيان أي عمل يساعد الإنسان أن يقوم بأعمال أكبر وفي المقابل ترك بعض الأعمال يسبب ترك أعمال سلبية أصعب أو ترك بعض الأشياء يساعد الإنسان أن يقوم بواجباته وأعماله الايجابية بشكل أسهل. المهم في التربية إمكانية الاستفادة من المربي، تعلم القانون وأي عمل يقوم به الإنسان لكي يسهل عليه أن يقوم بأعمال

أصعب وأكبر، شطارة المعلم والمربي تكمن هنا في أن يعلم الإنسان بأن يبدأ بعمل سهل وبسيط، لكي يتوفق أن يقوم بأعمال أكبر وأصعب. إنه مهم جداً للإنسان أن يعلم من أين يبدأ لكي يمكنه بالمستقبل أن يقوم بأعمال أكبر. هناك أعمال كبيرة قد عرف الإنسان قيمتها، ولكن لا يمكنه أن يقوم بها، مثلاً كلنا ندري بأنه من الجميل جداً أن نتوقف للصلاة بإتيان كل ليلة بالألف ركعة ولكننا لا نقدر على ذلك، لا نملك وقتها، ولا نملك القدرة البدنية الكافية لإقامتها ولا سائر الشرائط، وكذلك نعلم بأنه من الجيد جداً أن لا نغفل عن الله ولو لحظة واحدة، ولكن هذا العمل غير سهل لكل شخص إذا لم يكن للإنسان منهج منظّم ويبدأ من نقطة مناسبة من الطبيعي يمكنه عن طريق التكرار للأعمال الابتدائية والبسيطة والاستمرارية عليها أن يقوم بأعمالٍ أهم بالنسبة للأمور السلبية. كذلك عندما يبدأ بترك الذنوب الصغيرة يمكنه بعد ذلك ترك الذنوب الكبيرة التي يعتبر تركها صعباً. اجتناب الذنوب الصغيرة تسبب للإنسان ترك الذنوب الكبيرة وحفظ نفسه من السقوط في المزالق المهلكة.

الصمت مُحيي قلوب أولياء الله

«يا أحمد، عليك بالصمت فإنَّ أعمَرَ مجلس قلوب الصالحين والصامتين وإنّ أخرب مجلس قلوب المتكلمين بما لا يعنيهم». ليس صعباً على الإنسان أن يصون لسانه وأن لا يتكلم بكل كلام؛ لأن اللسان تحت سيطرة الإنسان ويمكن أن يحذره الإنسان بأن لا يتكلم إلا بما يعنيه ليس من الصعب أن يتكلم الإنسان بكلام فيه فائدة لآخرته، أما في الموارد الأخرى فعليه أن يسكت طبعاً في الوقت المناسب ويجب أن يتكلم عندما تكون هناك فائدة للكلام وإلاّ ينبغي السكوت.

للصمت آثار كثيرة ومطلوبة والتي جاء بعضها في هذه الرواية واحدة من فوائد ومنافع السكوت هو أن يجعل الذهن يخزن القوة اللازمة للأعمال والانجازات الايجابية والمفيدة. الذين يتكلمون كثيراً تتشتت فعاليتهم الذهنية وتقل عندهم قدرة التفكر والتمركز. عندما يحاول الإنسان أن يقلل من كلامه ويجتنب الكلام الفارغ فالقوة والطاقة التي كان يصرفها في الكلام سوف يصرفها في التفكير وحصول المعلومات أكثر.

قيمة الإنسان بعلمه وشعوره وإذا فقد الإدراك والوعي حتى وإن نما جسمه الحيواني[1] ولكن من البعد الإنساني لا قيمة له لأنه كلما ازداد شعور الإنسان ووعيه وتوجه أكثر، نما بُعْدَهُ الإنساني أكثر وكلما ابتلي بالغفلة، ابتعد عن الإنسانية. الناس الذين يتكلمون كثيراً، يكونون قليلي الإدراك والوعي والشعور، يقضون أوقاتهم بأمور لا فائدة وراءها، بعض الأحيان يتكلمون لساعات ولكنهم غير منتبهين إلى ما يقولون، وفي المقابل الذين يملكون الشعور والوعي يضبطون

---

(١) قيل الكلام راحة للروح والسكوت راحة للقلب (والعقل) المترجم.

أنفسهم ويتكلمون كلاماً منسجماً وموزوناً. أحد السادة سأل العلامة الطباطبائي، رضوان الله عليه: ماذا أفعل حتى يصير عندي حضور قلب في الصلاة؟ أجابه: إذا أردت أن يصير عندك حضور قلب بالصلاة قلل كلامك. التوضيح المطابق لمعرفة النفس هو عندما يتكلم الإنسان كثيراً ينشغل ذهنه بأمور كثيرة وبالنتيجة يتشتت تفكيره وتنعدم لديه القدرة على التمركز ولكن عندما يتعود أن يحفظ لسانه ولا يتكلم بكل كلام تحصل لديه قدرة التكلم ويبقى مخزون كلامه سليماً من التبعثر.

إذن فعلى أساس هذه الرواية تُعمر مجالس قلوب الصالحين والصامتين وان أخرب مجلس هو قلوب المتكلمين بما لا يعنيهم. لا تعمر قلوبهم أصلاً لأن أساس قلوبهم إنما تعمر إذا ابتعدوا عن مجالس اللهو واللغو وتداول الأفكار الساقطة والآراء التافهة التي لا تجلب نفعاً بل تسبب الأذى الدنيوي والأخروي. ولا تعود على الآخرين بما يجلب نفعهم. ويستمر في حديث المعراج ويقول: «يا أحمد، إنَّ العبادة عشرة أجزاء، تسعة منها طلب الحلال فإن طيّبت مطعمك ومشربك فأنت في حفظي وكنفي».

لأجل العبادة وطاعة الله يجب أن يكون الكسب حلالاً لتأمين الرزق الذي هو قوام الحياة، فإذا كان من طريق الحرام والمعصية كيف يمكن التقرب إلى الله؟ وعندما يصل الكلام إلى هنا يسأل النبي ﷺ: «يا رب، وما أول العبادة؟ قال: أول العبادة الصمت والصوم» إذا أردت أن تسير في عبادة الله وإطاعته وتكون عاقبة أمرك القرب الإلهي وجوار الله والمقام العالي للإنسان يجب أن تبدأ من السكوت والصوم فهذان الاثنان هما القدم الأول في طريق العبادة والطاعة لله والتكامل الإنساني فما دام اللسان طليقاً وحراً ولا يهم الإنسان ماذا يقول لا يصل الإنسان إلى مكان، وكذلك إذا كانت بطنه حرةً فهو كالحيوان والبهيمة التي همها علفها.

من نتائج الصوم وآثاره، الحكمة والمعرفة واليقين

«قال: يا رب، وما ميراث الصوم؟ قال: الصوم يورث الحكمة والحكمة تورث المعرفة والمعرفة تورث اليقين».

بيان الله سبحانه في هذا الحديث مأخوذ من أفضل طرق التربية العالية الصالحة لأنه إذا أريد ترغيب وتشجيع شخص على التزكية وتهذيب الأخلاق والأعمال الصالحة تذكر له منافع ذلك العمل وإلا الأوامر الصرفة لا تخلق الدافع القوي للقيام بأي عمل ولا يحصل الدافع القوي إلا بمعرفة فوائد ومنافع ذلك العمل، فالصوم في الواقع هو منهج لتنظيم طعام الإنسان في اليوم والليلة على أساس وجبتين للطعام، واحدة عند السحر والثانية عند الافطار أول الليل، طبعاً هذا من جهة تأمين احتياج البدن وتنظيم فعالية المعدة، لأن البدن لا يحتاج لهذا المقدار الذي نأكله ويرتفع احتياجه ويؤمّن بأقل من ذلك. يجب على الإنسان أن يضع لطعامه نظاماً يستفيد البدن منه استفادة صحيحة. مع الأسف نحن ليس لدينا منهج للأطعمة، ولذلك نحن دائماً عندنا نقص في الغذاء لأن البدن غير متعود على أن يستفيد من الطعام الذي يصل إليه استفادة صحيحة.

هذا من ناحية فائدة الصوم، وإنَّ قوام الصوم هو الجهة المعنوية ونيته وقصده للقربة إلى الله تعالى. لعله ابتداءً أن نتعبد بالصوم لأنه منشأ للحكمة، ولكن لو ندقق بالقضية نجد هناك رابطة العلية والمعلولية، لأن الطعام يسبب للإنسان تحصيل القدرة على إدراك الحقائق والتي هي الحكمة بذاتها. فالإنسان الأكول يهتم دائماً باللذات المادية وهدفه من الأكل اللذة التي يحصل عليها وهي أشد الحالات الحيوانية، من البديهي أن من يفكر دائماً بلذة الأكل يحرم من اللذات العقلية والروحية اللطيفة، لأنه عندما يتجه إلى جهة ينقطع عن الجهات

الأخرى عندما يذهب الإنسان وراء لذةٍ يجدها في الطعام يحرم من لذة التفكر ودرك الحقائق العلمية، ولم يذهب وراءها، وكذلك لم يذهب وراء لذة العبادة لأنه لم يذق لذتها وتبقى فقط لذة الطعام في ذائقته.

إذن الصوم مضافاً إلى أنه موجب وموجد لتقوية الإرادة، ومانع من ذهاب القوى هدراً والسقوط في الماديات ويجعل الإنسان ذاكراً لله دائماً، لأن الصائم يمتنع عن الأكل والشرب لله، وهذا يسبب له التوجه القلبي الدائم لله سبحانه مضافاً إلى ما ذكر، عندما يأكل الإنسان كثيراً يثقل وتسلب منه قدرة التفكر والتمركز، لأن قوة البدن تصرف لهضم الأكل ويبقى الإنسان مدة لا يمكنه أن يقوم بفعاليات فكرية من الناحية الصحية توجد توصية أن لا يقوم الإنسان بعد الأكل بعمل فكري قوي، لأنه لأجل هضم الطعام يجتمع الدم في أطراف المعدة وعند التفكر كذلك، ولأجل تنشيط الذهن، يجتمع الدم في أطراف المخ ويصير تضاد بين هذين العملين وهذا هو الضرر الثاني للشبع إذ يمنع الإنسان من النشاطات الفكرية والتوجهات القلبية، طبعاً للشبع أضرار وعواقب سيئة أخرى، مثلاً: عندما يتوجه الإنسان إلى لذة الأكل يميل إلى سائر الأمور المادية، لأنه يجب أن يسعى ويجد في تهيئة الأكلات اللذيذة، وفي النتيجة يغرق الإنسان في الماديات ويتأخر عن الأمور المعنوية.

إذاً على أساس هذه الرواية، فالصوم وقلة الأكل، يسببان حصول الإنسان على الحكمة، وعندما يحصل الإنسان على القدرة على درك الحقائق يحصل على المعرفة الصحيحة، (الحكيم الذي عنده القدرة على إدراك المعارف اليقينية وعندما يحصل على هذه القدرة يحصل على العلوم والمعارف الصحيحة الخالصة). طبعاً المهم لنا والمقصود هو معرفة الله والصفات الإلهية والأمور التي محورها (الله) ومن ناحية أخرى عندما تقوىٰ معرفة الإنسان وتنمو يزداد إيماناً ويقيناً، لأن اليقين هو نتيجة المعرفة والعلم. اليقين هو أعلى درجات الإيمان

وهو بدوره على درجات كما ذكر في الروايات مثل: «علم اليقين»، «عين اليقين» و«حق اليقين» والإيمان متوقف على المعرفة والعلم، وإيمان الشخص لا يأتي اعتباطاً، لولا حصول الإنسان على المعرفة لا يحصل الإيمان. ومن الطبيعي كلما قويت المعرفة صارت تلك المعرفة أرضية للإيمان أكثر والمعرفة الكاملة هي أرضية أيضاً لإيجاد اليقين. طبعاً لليقين والإيمان الكامل آثار ويمكن بسببهما معرفة أي شخص وصل إلى مرحلة اليقين. في هذا القسم من الرواية يشير الله سبحانه إلى واحدةٍ من تلك الآثار:

«فإذا استيقن العبد لا يبالي كيف أصبح بعسرٍ أم بيسرٍ».

لا فرق لديه أن يكون في رفاهٍ وسرور أو في صعوبة وفقر، لا يبالي في المسائل المادية للحياة، لأن قلبه مرتبط بمكان آخر، لا تؤثر فيه سهولة الحياة أو صعوبتها، هذه الأمور لا شيء أمام عظمة قلب المؤمن الواسع والكبير، لا تؤثر فيه أمور ومسائل الحياة الدنيا فهي أحقر من أن تُسخّر قلب المؤمن وتحزنه حيث لا يهمه أن يكون غنياً أو فقيراً. عندما يكمل إيمان المؤمن يوكل أمره إلى الله ويعلم بأن نفعه هو ما يقرره الله سبحانه. إذاً المؤمن من ناحيته يسير إلى حصول اليقين لأنه قد يهتم بالأمور الأولى والأرقىٰ، والدنيا ولذاتها لا يمكنها أن تصرفه عن ذكر الله وتقطعه عن المعارف اليقينية ومشاهدة الآثار الإلهية وأسماء وصفات ومظاهر الباري عز وجل، ومن ناحية أخرى بسبب إيمانه قد أوكل أمره إلى الله، والله سبحانه تولى أمره وهو يعلم بأن خيره وسعادته هو ما قسمهُ الله له لو كان عاقلاً ويعلم فلسفة وحكمة الأعمال لعمل نفس العمل الذي عمله الله، ولكنه لا يعلم بمصلحة الوضع الموجود الذي ابتلي اليوم به، وأنه لو كان بإمكانه تشخيص مصالحه ومنافعه لقام في تنظيم أمور حياته، والحال ليس كذلك، إذاً ماذا يفعل؟ فما عليه إلاّ أن يفوّض أمره إلى الله وفكره مرتاح بأن ما يعمله الله هو خير له ولا يتأذّى ويحزن من الصعوبات والمضايقات.

الإنسان الذي حصل على اليقين، يمتلك المعرفة للحقائق وهذه حاضرة عنده، وهذه المعرفة لها دور في عمله. نحن نعلم بحقائق مثل الله. الجنة وجهنم، ولكن هذه المعرفة غير مؤثرة في عملنا كأنما ننساها عند العمل، عند الكلام ندّعي بأن الله حاضر وناظر، ولكننا عند العمل ننسىٰ. إذاً لهذا العلم لا يقال يقين بل اليقين مرحلة تجعل العلم يصل إلى الرشد ويصبح فعالاً وحاضراً عنده (وهـذه المرحلة اليقينية من العـلم نفيسة جداً وثمينة ومدحت في الروايات).

الدرس السادس عشر

المؤمنون الواصلون لليقين والداخلون إلى رضوان الله

ترك الدنيا بسبب التوجه إلى الله

الرضا الإلهي هو أكبر طلب المؤمن

الكرامة والتوفيق الإلهي والتعالي ورشد الإنسان المؤمن

المؤمنون الواصلون إلى اليقين والداخلون في الرضوان الإلهي

«وإذا كان العبد في حالة الموت يقوم على رأسه ملائكة بيد كل ملك كأسٌ من ماء الكوثر وكأس من الخمر يُسقون روحَهُ حتى تذهب سكرته ومرارته ويبشرونه بالبشارة العظمىٰ ويقولون له طبتَ وطاب مثواك إنك تقدم على العزيز الكريم الحبيب القريب، فتطير الروح من أيدي الملائكة فتصعد إلى الله تعالى في أسرع من طرفةِ عين ولا يبقى حجاب ولا سترٌ بينها وبين الله تعالى والله عز وجل إليها مشتاق وتجلس على عينٍ عند العرش. ثم يقال لها: كيف تركت الدنيا؟ فتقول: إلهي وعزتك وجلالك لا عِلم لي بالدنيا، أنا منذ خلقتني خائف منك، فيقول الله: صدقت عبدي كنت بجسدك في الدنيا وروحك معي فأنت بعيني سرك وعلانيتك. سل أعطك وتمنَّ عليّ فأُكرمك، هذه جنتي مباح فتجنَّح فيها وهذا جواري فاسكنه. فتقول الروح: إلهي عرَّفتني نفسك فاستغنيت بها عن جميع خلقك وعزتك وجلالك لو كان رضاك في أن أقطَّع إرباً إرباً وأُقتل سبعين قتلة بأشدّ ما يقتل به الناس لكان رضاك أحب إليّ. كيف أعجب بنفسي؟ وأنا ذليلٌ إن لم تكرمني وأنا مغلوب إن لم تنصرني وأنا ضعيف إن لم تقويني وأنا ميت إن لم تحييني بذكرك ولولا سترك لافتضحت أول مرة عصيتك، إلهي كيف لا أطلب رضاك وقد أكملت عقلي حتى عرفتك وعرفت الحق من الباطل والأمر من النهي والعلم من الجهل والنور من الظلمة، فقال الله عز وجل وعزتي وجلالي لا أحجُبُ بيني وبينك في وقت من الأوقات كذلك أفعل بأحبائي».

المؤمن في الدنيا يقوم بالعمل بالتكاليف والواجبات، ولا يترك السعي

الحثيث، ويعتبر الدنيا محل امتحان، وراضٍ بما قسم له وعنده أفراح الدنيا وأحزانها شيء واحد، لأنه يرى كل شيء بيد الله سبحانه ويعتقد بأن الخير والصلاح ما يقرره الله له (مثل هذا المؤمن الواصل لليقين) عندما يريد أن يودع الدنيا الفانية ويذهب إلى الآخرة الباقية يحضر عنده الملائكة بيد كل واحد منهم كأس من ماء الكوثر وشراب الجنة، وعند قبض روحه يعطونه الكؤوس ويسقونه وعندما يشرب من ذلك الماء لينسىٰ كل صعوبة ومرارة وحزن وسكرة الموت، والشراب الذي يشربه أهل الجنة ليس مثل شراب الدنيا الذي يرفع عطش الجسم بل بشربة يرفع عطش الجسم والروح معاً «ويبشرونه بالبشارة العظمى ويقولون له طبت وطاب مثواك إنك تقدم على العزيز الكريم الحبيب القريب» دخلت أنت مقام الملك العزيز الذي هو بعيد عن الذلة والضعف والحقارة، وكل شيء علامة لقدرته اللامتناهية. طبعاً ضيافة ذلك المحبوب تكون فيها الكرامة والكرم الكبير الواسع. فكيف حال من يدخل على محبوبه، وكيف شوقك عندما تريد الدخول عليه؟ إذا بشروا الروح بإدخالها على محبوبها هل يبقى لها علاقة في البقاء بالدنيا؟ هل يبقى لمصائب الدنيا ومحنها شيء يذكر؟ «فتطير الروح من أيدي الملائكة فتصعد إلى الله تعالى في أسرع من طرفة عين».

عندما يقبض الملائكة أرواح الكفرة والمنافقين، يقبضون أرواحهم بعذاب وتعذيب وصعوبة ولكن عندما يقبضون روح المؤمن يقبضونها بشكل مريح ولطيف فتطير من أيديهم إلى محبوبها.

«ولا يبقى حجاب ولا ستر بينها وبين الله تعالى».

أشير في الكتب العرفانية إلى معنى ومفهوم هذا الحجاب ويمكن القول إجمالاً أنه لا يبقى في ذلك الحال بين العبد وربه مانع «والله عز وجل إليها مشتاق وتجلس على عينٍ عند العرش» فأكبر سعادة للمؤمن الصالح واللائق أن يكون الله قد اشتاق إليه وهو يذهب لاستقباله ويلتقي به وعندما يجلس على عين عند العرش

فهو مثل المسافر الذي مشىٰ طويلاً وتحمل المصاعب والمتاعب والحرّ ويجلس للاستراحة على العين الجارية فتذهب كل أتعاب السفر. وعندما يجلس على العين فيتكلم معه الله ويقول له:

«ثم يقال لها (أي الروح) كيف تركت الدنيا؟».

أغلب الناس بعد التحية والسلام، يسألون المسافر الراجع من سفره كيف كان حال سفرك؟ هنا أيضاً الله سبحانه يسأل كيف كان حالك في الدنيا هناك يجب أن يدقق العبد بالجواب، لأنه دخل إلى مجلس الرب وهناك ليس محل للتعارف، وإذا أراد أن يقول شيئاً خلاف الواقع ولو بمقدار رأس إبرة، لا يعطونه إجازة للكلام، هناك ليس محل مبالغة، لأنه لا يخفى عليه شيء ولا يقول الشخص إلا ما هو حق ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾.

ترك الدنيا بسبب التوجه إلى الله

هنا تجيب الروح في سؤال الله:

«إلهي وعزتك وجلالك لا عِلم لي بالدنيا أنا منذ خلقتني خائف منك» ذلك المؤمن لا يكتفي بالجواب، بل يقسم بعزة وجلال الله بأنه لا علم له بالدنيا، يعني يمكن أن يعيش الإنسان بالحياة ويعمل بواجباته الدنيوية ولكن قلبه ليس متعلقاً بالدنيا وكأنما ما عنده خبر منها، إن البعض من أجل الغم والحزن والمصائب التي أصابتهم، أو من أجل الشوق والاشتياق إلى محبوبهم، تمر عليهم اللحظات والساعات وما عندهم خبر، أين هم وماذا يعملون.

ويعملون بواجباتهم ولكنهم غير منتبهين لها، المؤمن المتيقن في الدنيا نظرته إلى المسائل والأعمال الدنيوية نظرة سطحية عابرة، عندما يباشر بها يمر عليها كما تمر أمواج البحر الهادئة لم يتعمق بها، مسائل الدنيا عنده كمثل الموج القصير البطيء الذي يمر على قلب الإنسان المؤمن، ولا يدخل في داخل نفسه لأن قلبه في مكان آخر ولا يدري كيف مر عليه، لذلك يقسم أمام الله بأن لا علم لي بالدنيا، على عكس أهل الدنيا الذين دخل حب الدنيا في أعماق قلوبهم بل لا يوجد في قلوبهم إلا الشهوة واللذة والآمال الطويلة. «فيقول الله: صدقت عبدي كنت بجسدك في الدنيا وروحك معي، فأنت بعيني سرّك وعلانيتك».

كيف يمكن للإنسان أن يهتم بأمور الدنيا؟ يفكر بأكله وشربه وملابسه وكل احتياجاته ولكنه في أعماق قلبه مهتم بمكان آخر إذا كان هذا ممكناً، لماذا لم نسعَ نحن فلا نتعلق بزخارف الدنيا حتى لحظة واحدة ونترك الدنيا الدنيئة ونضربها عرض الجدار ونربط قلوبنا بالله سبحانه؟

الرضا الإلهي هو أكبر طلب المؤمن

«سل أعطِك وتمنّ عليّ فأكرمك، هذه جنتي مباح فتجنَّح فيها وهذا جواري فاسكنه».

كأنما جاء امتحان آخر، المحب الذي سعى عمراً كاملاً في الوصول إلى ربه ومحبوبه وهو مشتاق إليه فقد وصل إلى غايته وأمله.

يقول الله له: عبدي قد هيأت لك هذا المكان، الآن الجنة في اختيارك اذهب إلى أي مكان شئت اطلب ما شئت لكي نهيّيء لك لعله إذا كنا نحن وشاهدنا تلك القصور الجميلة ونعم الجنة والأطعمة والأشربة اللذيذة، لقلنا قدموا لنا من تلك الفواكه والنعم.

(في الجملة السابقة يطلب الله سبحانه من عبده أن يطلب ما يتمنى وما يحب لكي يجيبه الله إلى ما يريد: الطلب هو بالنسبة إلى الشيء الذي يكون حصوله حتمياً ويقينياً أو كان حصوله ظنياً أما الشيء الذي يصعب الحصول عليه يقال له التمني، فيقول الله اطلب ما تريد ثم يترقىٰ ويقول تمنَّ ما تريد حتى أعطيك إياه).

انظر إلى روح المؤمن المتيقن إلى أي مقام وصلت، وماذا تجيب: «فتقول الروح: إلهي عرّفتني نفسك فاستغنيت بها عن جميع خلقك». إلهي عندما عرفت عظمتك أريد الجنة لأي شيء؟ (أنا عندما عرفتك استغنيت عن كل شيء، وهل يوجد شيء قبالك يستحق أن يطرح ويذكر؟).

كرامة الإنسان المؤمن والتوفيق الإلهي والرشد

«وعزتك وجلالك لو كان رضاك في أن أُقطّع إرباً إرباً وأقتل سبعين قتلةً بأشد ما يُقتل به الناس لكان رضاك أحبّ إليّ».

عندما يذكر هذه الجمل مثل الشخص الذي يطمح إلى الأعلى والمدعي الكبير يدل على أنه لا يمكن أن يقوم به إنسان ضعيف، وكأنما هو متوهم، وهذا الادعاء جعله يغتر ولأجل أن يدل على أن عمله لأجل رضا الله وهو مقدم على كل شيء، وليس للعجب والغرور.

يقول: «كيف اعجب بنفسي؟ وأنا ذليلٌ إن لم تكرمني».

إذا قلت بأني لا أتوجه إلى سواك ورضاك أغلىٰ شيء عندي فكل ذلك بسبب إكرامك وتوفيقك إياي ولولا الكرامة التي حصلتها بسببك لكنت ذليلاً وما كنت أملك شيئاً أقدمه وأعرضه.

«وأنا مغلوبٌ إن لم تنصرنِ وأنا ضعيفٌ إن لم تقوني وأنا ميتٌ إن لم تحيني بذكرك».

ولولا نصرك إياي لخسرت وما كنت أقوىٰ على مبارزة النفس والشيطان. العبارة الأخيرة، عالية المضمون: «لولا إحياؤك إياي بذكرك لكنت ميتاً» مضافاً إلى ذلك. تدل هذه الجملة على أنك أحييتني وتدل أيضاً على قضية مهمة جداً وهي أن حياة المؤمن المتيقن الذي حصل على المراتب والدرجات العالية ليست من سنخ الحياة المادية التي نعرفها نحن والتي يعيش فيها الشخص على الأوكسجين والتنفس والتغذية، بل تلك الحياة التي هي قائمة على ذكر الله وكان قيامها ودوامها على ذكر الله.

حياة القلب متعلقة ومرتبطة بذكر الله، ولولا هذا الارتباط لكان عنده الحياة

الحيوانية، ولكان قلبه وروحه ميتان، وبالنتيجة ما يملك الحياة الإنسانية.

يقول الله في هذا الجواب: ﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا...﴾[1].

فإذا لم يملك الإنسان المسلم قلباً حياً، لا ينتفع بالمعارف الإلهية والتوجهات القلبية لله. أهل اليقين يحسون بأنهم حصلوا الحياة بارتباطهم بالله، تلك الحياة التي هي من أرقى وأسمىٰ درجاتها، يعني الحياة التي هي في محضر الله ويعتبرونها عطيةَ الله.

«لولا سترك لافتضحت أول مرة عصيتك».

أنت سدلت ستاراً على عملي القبيح وأجزتني أن أصلح نفسي ووفقتني لعبادتك.

«إلهي كيف لا أطلبُ رضاك وقد أكملت عقلي حتى عرفتك وعرفت الحق من الباطل، والأمر من النهي والعلم من الجهل والنور من الظلمة؟».

إلهي رضاك هو إرادتي الحقيقية وإلاّ الجنة ونعيم الجنة لا قيمة لهما أمامك وقيمتهما لأنهما هديتك، إلهي لولا إكمالك عقلي لم أعرفك وأدرك قيمة قربك، ولكنت مثل الحيوانات غارق في الشهوات واللذات، فبسبب توفيقك كمل عقلي وعرفتك وتركت الشهوات ولذات الدنيا فإذا كنت لا أطلب رضاك، فماذا أطلب؟ وهل يوجد شيء أفضل من رضاك حتى أطلبه؟

يقيناً هذه المحادثة أحلى وأجمل من أن تحويها الألفاظ وما أمكن وصفه بالكلمات. الشيء القليل منه تشير إلى حالات ذلك المقام الذي تملكه الروح، وعندما يصل الكلام إلى هنا يقول الله سبحانه:

«وعزتي وجلالي لا أحجب بيني وبينك في وقت من الأوقات كذلك أفعل بأحبائي».

---

(١) سورة يس، الآية ٧٠.

الدرس السابع عشر

خصائص الحياة الهنيئة الهانئة، السائغة الدائمة

أ ـ خصائص الحياة الهنيئة

ب ـ خصائص الحياة الدائمة

خصائص الحياة الهنيئة والباقية

«يا أحمد، هل تدري أي عيشٍ أهنأ وأي عيش أبقى؟

قال: اللهم لا. قال: أمّا العيش الهنيءُ فهو الذي لا يفترُّ صاحبه عن ذكري ولا ينسى نعمتي ولا يجهل حقي، يطلبُ رضايَ ليلهُ ونهاره، وأما الحياة الباقية فهي التي يعملُ لنفسه حتى تهون عليه الدنيا وتصغر في عينيه وتعظم الآخرةُ عنده ويُؤثِرُ هوايَ على هواهُ ويبتغي مرضاتي ويُعظم حق عظمتي ويذكر علمي به ويُراقبني بالليل والنهار عند كل سيئة ومعصيةٍ وينفي قلبه عن كل ما أكره ويبغض الشيطان ووساوسهُ ولا يجعل لإبليس على قلبه سلطاناً وسبيلاً».

أ ـ خصائص الحياة الهانئة:

في استمرار حديث المعراج يسأل نبيّه: يا أحمد. هل تعلم أيَّ عيشٍ أهنأ وأيَّ حياةٍ أبقىٰ؟ يجيبه النبي ﷺ: اللهم لا. فالجواب بالنفي للنبي ﷺ بسبب مقام العبودية التي عنده، لأن العبد لا يملك شيئاً من عنده وكأنما النبي ﷺ يُعلم الآخرين بأنه حتى النبي والإمام علمهم من الله فهو الذي علّمهم. يجب القول بأنَّ سؤال الله تعالى ذو قسمين:

١ ـ أيَّ عيشٍ أهنأ؟

٢ ـ أي حياةٍ أبقىٰ؟

فلسفتها هي يجب أن يذهب الإنسان وراء اللذة والسعادة الهانئة أن تكون من ناحية هانئة وسائغة ومن ناحية أخرى باقية ودائمة ومستمرة، لا فائدة من الحياة الخالية من اللذة، وإذا كانت فيها لذة فلحظات وليس فيها بقاء واستمرار فألم الفراق أكثر من اللذة التي يحصلها الإنسان منها. فطرة الإنسان تريد الحياة

التي فيها لذات وسعادة ولكنها ثابتةٌ وباقية (عادة تسمى حياة الشخص العادية عيشاً والحياة ككل بالحياة) بعد أن أجاب النبي ﷺ، حسب مقام العبودية وأظهر الجهل بالمسألة، قال الله سبحانه:

«أما العيش الهنيءُ فهو الذي لا يفتر صاحبه عن ذكري ولا ينسى نعمتي ولا يجهل حقي، يطلب رضاي ليلهُ نهاره».

حتى لو أننا نقبل هذا الكلام من الله عز وجل الذي عنده عيش هنيء هو الذي لم يفتر ولم ينس ذكر الله ويعمل بكل الواجبات ولكن يجب أن نوضح أن الحياة الهنيئة، أي ارتباط لها بذكر الله وعدم نسيان النعم الإلهية، يمكن القول بأن الإنسان على أساس فطرته، طالب الحقيقة الثابتة التي لها استقلال وجودي لكي يعتمد عليها لأنه يُحسُّ بفطرته وعن طريق الوجدان والعلم الحضوري بأن وجوده غير مستقل ومحتاج إلى الآخرين (من أكله ولبسه إلى تنفسه وكل ذلك ليس في اختياره). إذاً هذا الوجود المحتاج إذا أراد السعادة في الحياة يجب أن يتصل ويتعلق بالوجود الغني، هذا النهر الصغير يجب أن يتصل بالبحر لكي يبقى جارياً ولا يجف. هذا ما ندركه بفطرتنا، وطبعاً لهذا الإدراك مراحل: البعض يدركون ذلك بإبهام ولكن عندما تزداد معرفة الإنسان يدرك ذلك بشكل أكثر وأوضح حتى يصل إلى مقام «أولياء الله» فيدرك الحقائق بالشهود والعلم الحضوري بوضوح كثير، سائر الناس حتى لو كانوا في داخلهم يدركون ذلك بشكل مبهم بأن وجودهم وجود غير مستقل، وإذا أراد أن يبقون ويتكاملون يجب أن يتصلوا بالوجود المستقل، ولكن إذا عرفوا منابع الحياة والكمال وارتبطوا بها يحصلون على الطمأنينة والسكينة. الإنسان إذا تعرف على موجود وعرف أنه عندما يرتبط به يرفع عنه كل احتياجاته حتى الاحتياجات التي لم تخطر على قلبه، يطمئن قلبه ويسكن ويتفاءل للمستقبل ولم يصبه القلق والخوف لأنه يعلم أن بواسطته ترفع كل النقائص والاحتياجات وإذا كان غير ذلك لعاش الخوف

والقلق الدائمين. في عالم اليوم نجد مكاتب مثل «هيپيسم» «نيهليسم» وبعض شعب «اكزسيتانسياليسم» الذين لا يمكلون هدفاً للحياة ويعتقدون بأنها مليئة بالقلق والتشوش والخوف ويقولون بأن القلق واحد من علامات الحياة، القلق والخوف من وجهة نظر أشخاص مثل «سارتر» جزء من الحياة، إذا ما كان عند الإنسان قلق فهو غير حي، هؤلاء بعيدون عن الواقع والحق، ولا يمكنهم أن يعيشوا بدون قلق، يتصورون بأن القلق جزء من الحياة ومن لوازم الحياة، فهم غافلون عن أن القلق هو بسبب عدم معرفة الله وهذا الانحراف من الفطرة.

أما الذين عرفوا الله وارتبطوا به لا يقلقون خصوصاً إذا عرفوا أن الله يريد لهم الخير، والله سبحانه أجل من أن يسيء لشخص، ومن الطبيعي كلما صارت معرفة الله أكثر كلما قلّ القلق والتشويش، إلا أن ينسى الإنسان ربه فيرجع الخوف والقلق مرة ثانية فيجتاح حياته. إذاً ذكر الله يهنيء حياة الإنسان ويقلل القلق والتشويش لديه أو يذهبه بالكلية وهذه حقيقةٌ لا يمكن إنكارها كما جاء في القرآن الكريم ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾(١).

إذاً يجب أن ندرك هذا المعنى، وهو أن القلق والتشويش وفقدان الأمان والاطمئنان كل ذلك بسبب ضعف ارتباطنا بمنبع الكون والحياة وكلما صار ارتباطنا أقوى وتوجهنا إلى الله أكثر كلما ازداد الإنسان سكينة واطمئناناً. بعض الأوقات يتصور الإنسان بمجرد أن ذكره عدة ألفاظ مثل: «لا إله إلاّ الله» يطمئن قلبه ويحصل على السكنية في حين أن تأثير مثل هذه الأذكار إذا وجّه قلبه ونفسه إلى الله أي إذا كان ذكر الله قوياً وتوجه القلب واقعاً إلى الله لم يبق قلق ولا تشويش.

الإمام الخميني رضوان الله عليه دائماً كان يكرر «اقسم بالله إني ما خفت من شيء طيلة حياتي» هذا ادّعاء كبير، هو ما كان ممن يبالغ في كلامه، خصوصاً

---

(١) سورة الرعد، الآية ٢٨.

بالنسبة له، مضافاً على ذكر القسم، كيف يصل الإنسان إلى هذه الحالة؟ نحن في اليوم الواحد نقلق عدة مرات، أما هو فلم يخف في أحلك الظروف والأوضاع وعند مواجهته بالوقائع والحوادث الكثيرة والكبيرة مثل فاجعة ٧ تير التي فقد فيها ٧٣ من أنصاره وقد خاف عشاق الثورة على مستقبل البلد وانتشر الخبر في كل العالم نجده لم يقلق أبداً، نحن إذا فقدنا صديقاً نحتاجه لم تنم عيوننا ليلاً ونقلق، ولكن الإمام فقد سبعين من أفضل أنصاره ولم يضطرب أصلاً، بعض المسؤولين في البداية حاولوا أن يهيئوا ذهن الإمام لسماع خبر هذه الفاجعة الأليمة لكي لا يصيب الإمام شيء وعندما أرادوا فتح أفواههم قال لهم: أنا أدري ماذا وقع، اذهبوا واعقدوا جلسة[1] لمجلس الشورى الإسلامي! أيُّ روحية هذه؟ وكم يمكن للإنسان أن يتحمل إلى هذا الحد؟ ما هو سر ورمز هذه الروحية؟ غير الارتباط القلبي بالله. هذه صفات النفوس الكبيرة، أما النفوس الضعيفة فتنكسر بأقل خطر وحادثة.

ينقل أحد المقربين من الإمام والذي كان يقوم بخدمته ويلتقي به كل يوم أنه بعد وقوع حادثة الحزب الجمهوري لم يغير أي منهج من مناهجه وحسب المنهج والموعد المحدد أخذ يقرأ القرآن ويقوم بواجباته الخاصة وكأنما لم يقع شيء. إذاً الحياة الهادئة والهانئة والخالية من القلق وإيجاد السكنية والوقار لها لا تتم إلاّ عن طريق ذكر الله.

الموضوع الثاني الذي يلزم ذكره: نحن في زمان نستلذ من الحياة إذا علمنا بأن مطالبنا تُحل وإرادتنا تتحقق، ولكن الآن نحن نملك آلاف النعم ولم نتوجه إليها مثل نعمة الحياة وسلامة البدن، المعرفة والإيمان بالله، الإيمان بالقيامة، نعمة الإمامة والولاية والعلاقة بالإسلام والانقلاب والثورة الإسلامية. نحن نتمتع بكل هذه النعم، ولكن لأنه لم نلتفت إليها، لم نستلذ منها، فعندما يصيبنا مرض

---

(١) بمعنى اجتماع.

وبعد حصول السلامة نستلذ من نعمة السلامة ونعرف قيمتها، نهتم بها وبعدها مرة ثانية ننسىٰ هذه النعمة، إذن الشرط الثاني للاستفادة من لذة الحياة، أن نلتفت إلى النعم الإلهية، الإنسان غير ملتفت إلى نعم الله، أما إذا صار عنده نقص تراه يئن ويون ويشكو ويذكر ذلك النقص. إذا التفت الإنسان إلى النعم التي منحه الله إياها يستلذ لذة لا يوازيها النواقص الموجودة عنده على رغم من أن لهذه النواقص الموجودة عندنا حكمةً وسراً لا نعلمه، ومن الأفضل أن نجلس ونحسب النعم الإلهية التي أعطانا إياها فسوف نعرف أنها لا تعد ولا تحصى كما قال الله سبحانه: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[1].

إذاً لأجل أن نهنأ بالحياة، علينا أن نلتفت إلى نعم الله، ولكن مجرد الالتفات لا يكفي لأنه إن تعلق الإنسان بالنعم ونسي صاحب النعمة وكم له عليه من حق وما يجب أن يتمسك ويتعلق به، وهذه تكون مانعاً عن تكامله فيجب أن يشكر هذه النعم فعند ذلك تصبح الحياة هنيئة وجميلة.

ب ـ خصائص الحياة الباقية:

في القسم الثاني من الحديث يذكر الله سبحانه خصائص للحياة الباقية والمستمرة. في الواقع يجب القول بأنه يوجد في هذه الأسطر القليلة دورة كاملة من السير في السلوك والعرفان العملي، وإذا دققنا النظر جيداً واعتبرناها دروساً لحياتنا نصل إلى أعلى الكمالات المعنوية. يقول سبحانه:

«وأما الحياة الباقية فهي التي يعمل (صاحبها) لنفسه حتى تهون عليه الدنيا وتصغر في عينيه وتعظم الآخرة عنده».

إذا أراد شخص أن يخرج من مسير الحيوانية ويدخل في مسير الإنسانية ويطوي مراحل التكامل الإنساني، فأول شيء يجب أن يفعله هو مقايسته الدنيا

---

(١) سورة النحل، الآية ١٨.

والآخرة، ففي الشرع المقدس عينت تكاليف لكل الناس، مثل الصلاة والصوم والأعمال التي توجب التكامل للإنسان، ويحصّل ثمراتها في الآخرة. الإنسان ابتداءً يميل إلى الأعمال التي يستلذ بها في هذه الدنيا ويرى نتيجتها فوراً ويصعب عليه الأعمال غير الفورية النتيجة وليس فيها لذة، إذا عرف الإنسان بالتجربة وبان له أن هذا العمل فيه لذة فورية يقدم عليه ويستمر ولكنه يتعب ويمل من الإقدام على الأعمال التي لا يجد فيها لذة وشيئاً فشيئاً يتركها وقد اهتم القرآن كثيراً بهذا الموضوع وأعطاه أهمية بالغة فحول الصلاة يقول: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾[1].

الصلاة حمل ثقيل على كاهل الإنسان ومع أنها لا تأخذ وقتاً كثيراً مع ذلك تكون إقامتها على الإنسان صعبة. ولذلك في البداية وبدون الاستفادة من الطرق الصحيحة يكون ترغيب الشباب بالصلاة صعباً جداً، ودليله أنه هو يحصل لذة نقدية وآنية عندما يأكل الطعام أو يلعب أو يشاهد التلفزيون ولكنه عندما يتوضأ ويصلي و. . . لم يحصل على مثل هذه اللذة، إذا وصل يوماً إلى هذه القناعة بأن هذه الأفعال واقعاً مفيدة له ولذيذة يقوم بها بشوق ورغبة. طبعاً من الواضح أنه لا توجد فاصلة بين الأعمال العبادية ونتائجها الأُخروية ولذاتها، لأن كل حياة الدنيا بالنسبة إلى الآخرة أقل من لمح البصر بالنسبة إلى عمر المائة عام. في الحقيقة إن الحياة الحقيقية هي في عالم الآخرة التي هي باقية وأبدية، فإذا استطاع الإنسان أن يقيس بين هاتين الحياتين والنشأتين، سيعرف أن لذات الدنيا التي تعلق قلبه بها وأحبها ويسعىٰ كثيراً من أجلها في مقابل لذات الآخرة كم هي حقيرة وبلا قيمة.

لا شك أن لذة الدنيا لحظات ومشوبةٌ بتعب ونصب كثير، انظر عندما يريد الإنسان أن يأكل لقمة خبز كم يجب عليه أن يتعب. كل في حدود وسعه كم يجب

---

(١) سورة البقرة، الآية ٤٥.

أن يسعى حتى يحصّل حياة مرفهة ومريحة. يجب عليه أن يهيّيء وسائل للدفء لكي يسلم من برد الشتاء ويذهب راء تكييف الهواء للصيف، وطبعاً كل هذا التعب والسعي وصرف الأموال لأجل الوصول إلى اللذات المادية والدنيوية. كل هذه الاختراعات واستخدام العقول، الحروب والنزاعات وكل أتعاب البشر لأجل أن يعيش في هذه الدنيا أياماً معدودة فرحاً مسروراً، فإذا كانت لذات الدنيا الآنية والفانية لها هذا المقدار من القيمة والاعتبار وعليه أن يتحمل من أجلها كل هذه المشاكل والصعوبات فإنها في مقابل اللذات الدائمة والمستمرة للآخرة والتي ليس فيها تعب ولا نصب وخالية من كل مشوب آخر كم لها قيمة؟ ألا تستحق أن يصلي لها الإنسان ركعتين صحيحتين؟ عندما يقيس الإنسان لذات الدنيا مع لذات الآخرة تسهل عليه صعوبات العبادات والتكاليف ويسعىٰ ويجدّ بأن يعمل بوظائفه. صحيح أن هذا العمل في أوله صعب، ولكن بتلك المقايسة وبمعرفة وأهمية النعم الأخروية ودوامها تكبر الآخرة في نظر الإنسان وتصغر الدنيا في عينه فتلك الساعة تسهل على الإنسان أن يعمل بتكاليفه الإلهية. بالنسبة إلى الأعمال الدنيوية كذلك إذا كان الإنسان مطمئناً من النتيجة يتحمل المشاكل من أجلها. إذاً العمل الأول هو أنه يجب أن نسعى في معرفة الدنيا والآخرة ونجدَّ في تسهيل العبادة والطاعة لله سبحانه.

إذاً يجب أن نعرف ماهية الدنيا وأنها لا قيمة لها في مقابل الآخرة ويجب معرفة نفع كل منهما ونختار الأكثر نفعاً ونسعى للوصول إليها، وبالنتيجة تصبح الدنيا حقيرة في أعيننا والآخرة كبيرة وعظيمة. «أما الحياة الباقية فهي التي يعمل (صاحبها) لنفسه». إنّ الإنسان يحب نفسه أكثرمن أي شخص وأي شيء آخر وأحبّ شيء للإنسان نفسه هو في الواقع وبالأصل يحب نفسه وبالتبع يحب باقي الأشياء والأشخاص نحن مع حبنا لأنفسنا لكننا لم نفكر لنعرف مصلحتنا أين وفي أين؟ أنت تحب شخصاً تعمل له كل ما ينفعه وتدفع عنه كل ما يضره والحال لنفسك التي تحبها أكثر من أي شيء ماذا عملت لها؟ لماذا لم تفكر بنفعك

وضررك؟ حاول أن تعرف ماذا ينفعك حتى تكتسبه وماذا يضرك حتى تبتعد عنه. إذا كان الإنسان بهذا الفكر أن يشخص نفعه وضرره الواقعي، يسعى للحصول على منافعه ومصالحه ويصل إلى هنا: «تهون عليه الدنيا» لأنه يعرف قيمة الآخرة بأنها أفضل وأدوم! ﴿ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾[1].

بالنتيجة «تصغر في عينيه الدنيا».

أمير المؤمنين عليه السلام يقول في نهج البلاغة:

«كان لي فيما مضى أخ في الله وكان يُعظِّمه في عيني صغر الدينا في عينيه»[2].

في رأي أمير المؤمنين عليه السلام، الكبير هو الذي تكون في رأيه الدنيا صغيرة يعني أن يدرك أن لا قيمة للدنيا أمام الآخرة ولا تعد شيئاً.

نحن إذا كنا نفكر جيداً وكنا واقعاً نريد نفعنا ومصلحتنا لما نسينا الآخرة لأن الدنيا فانيةٌ وزائلة.

طبعاً لا نقنع بأن نفكر بأمر الدنيا والآخرة ونقيس بينهما، بل يجب أن نسعى ونتعب لنصل إلى أن نؤدي التكاليف الإلهية بكل سهولة، وبالنتيجة نرجّح منافع الآخرة ولذاتها على منافع الدنيا، وإذا دار الأمر بين عملين حسنين وكان أحدهما أحبَّ إلى الله نرجحه نحن، لا العمل الذي نحبه نحن.

«ويؤثر هواي على هواه ويبتغي مرضاتي ويعظم حقَّ عظمتي ويذكر علمي به ويراقبني بالليل والنهار عند كل سيئةٍ ومعصية».

المسير الذي يطويه الإنسان بتعبٍ وجدية وتمرين وممارسة ومقايسة بين الدنيا والآخرة يوصله إلى هذه المرحلة الروحية المتعالية، وهذه المرحلة تشمل

---

(١) سورة الأعلى، الآية ١٧.

(٢) نهج البلاغة (فيض الإسلام) حكمة ٢٨١.

نظامين أو بعدين: المراقبة العملية والسلوك الإنساني وبالنتيجة يجب على الإنسان أن ينظر لكل عملٍ يعمله هل أنّ الله يحبه أو لا يحبه؟ وهذه هي المراقبة التي يحصلها الإنسان بالتدريج. أما مرحلة السلوك فهي بالتفكير بالله وعظمته، لو يفكر الإنسان بأن الله سبحانه يعلم كل عملٍ يعمله عندها لا تصدر منه معصية، لو يفكر الإنسان بأنَّ الله حاضر وناظر إلى عمله لا يرتكب معصية أصلاً، عندما يبتعد الإنسان عن الذنب أمام طفل ولم يرتكبه فكيف يرتكب ذنباً ويعلم بأن الله حاضر وناظر على أعماله؟ وهذه مرتبطة بالأعمال الخارجية والمراقبة العملية مثل مراقبة اليد، الرجل، العين، و... والأهم من هذا هي المراقبات القلبية للإنسان والتي تكون على الفكر والأمور الباطنية.

«وينفي قلبه عن كل ما أكره».

مضافاً إلى مراقبة أعماله الخارجية والباطنية والعمل بالتكاليف الشرعية ويترك المعاصي والذنوب يراقب أحواله الداخلية والباطنية مراقبةً دقيقةً وكذلك يراقب قلبه وفكره أن لا يعمل عملاً خلافاً لرضا الله سبحانه.

(يُنقل أن المرحوم السيد المرتضى قال لأخيه السيد الرضي: الإمام هو الذي لم يرتكب معصية فأجابه السيدالرضي قائلاً: الإمام هوالذي حتى لم يفكر بالمعصية!).

في استمرار الحديث يقول الله سبحانه: «ويبغض الشيطان ووساوسه، لا يجعل لإبليس على قلبه سلطاناً وسبيلاً».

متى أحس أن وساوس الشيطان دخلت قلبه قام لمحاربتها، ولم يسمح لها أصلاً أن تلوث صفاء قلبه بتخيلات شيطانية، فإن المؤمن يعتقد أن التخيلات الشيطانية عدوة له تريد قتله، هي بمثابة العدو الذي يريد قتله، لذلك يحاربها دائماً ولا يسمح لها بالسيطرة حتى على قلبه فكيف بالبدن والجوارح والأعضاء الخارجية؟

الدرس الثامن عشر

النجاح في الامتحان الإلهي وعنايات الله الخاصة

التوجه إلى الله ونعمه هي محور أفكار المؤمنين وتفكيرهم

حقارة الدنيا في عين المؤمن الملكوتية والناظرة للآخرة

الخصال الثلاث للسائرين إلى رضا الله

النجاح في الامتحان الإلهي وعنايات الله الخاصة

«فإذا فعل ذلك، أسكنتُ في قلبه حباً حتى أجعل قلبه لي وفراغهُ واشتغاله وهمّه وحديثهُ من النعمة التي أنعمت بها على أهل محبتي من خلقي وأفتحُ عين قلبهِ وسمعه حتى يسمع بقلبه وينظُرَ بقلبه إلى جلالي وعظمتي وأضيّقُ عليه الدنيا وأُبغِّضُ إليه ما فيها من اللذات واحذره من الدنيا وما فيها كما يُحذّر الراعي غنمه من مراتع الهلكة. فإذا كان هكذا يفرّ من الناس فراراً ويُنقَلُ من دار الفناء إلى دار البقاء ومن دار الشيطان إلى دار الرحمن.

يا أحمد، لأزيّننهُ بالهيبة والعظمةِ فهذا هو العيش الهنيء والحياة الباقية وهذا مقام الراضين. فمن عمِل برضائي ألزِمهُ ثلاث خصال، اعرّفه شكراً لا يخالطُهُ الجهل وذكراً لا يخالطُهُ النسيان ومحبةً لا يُؤثِرُ على محبتي محبة المخلوقين. فإذا أحبّني أحببتُهُ وأفتحُ عين قلبِهِ إلى جلالي فلا أُخفي عليه خاصّة خلقي فأناجيهِ في ظُلَم الليل ونور النهار حتى ينقطع حديثُهُ من المخلوقين ومُجالسته معهم».

بحثنا سابقاً حول خصائص الحياة الهنيئة والباقية وأنه يجب على الإنسان أن يسعى لسعادة الآخرة وعمارة قصر الآخرة، ويذهب في طلب رضا الله، حتى تصغر الدينا في نظره، وبعد السعي والاجتهاد في تزكية النفس والنجاح في الامتحان الإلهي تصل النوبة إلى الانتفاع والاستفادة من العنايات الخاصة لله. يقول الله سبحانه في هذا المقام:

«فإذا فعل ذلك، أسكنتُ في قلبه حباً حتى أجعل قلبهُ لي وفراغه واشتغاله وهمّه وحديثهُ من النعمة التي أنعمت بها على أهل محبتي من خلقي».

بعد أن يجدّ الإنسان ما بوسعه من جدية تشمله العناية الإلهية وبهذه العناية واللطف الإلهي يحصل على مراحل ومقامات ما كان بوسعه هو أن يحصل عليها.

لحـد الآن كان يحسب لنفسه حساباً ويعتقد لوجوده حقيقة وواقعاً واستقلالاً، وبعد العبور من هذه المراحل والجهاد المرير الذي بذله حصل على الألطاف الخاصة الإلهية التي يعطيها لعباده الخُلّص، وبعد ذلك هو لا يتقدم بنفسه بل الله الذي يأخذ بيديه ويقدّمه ويوصله إلى أن يكون قلبه مليئاً بالحب والعشق الإلهي ويكون قلبه لله، لأن الإنسان لوحده لا يمكنه أن يسحق كل تمايلاته النفسية. طبعاً بعناية الله يمكنه أن يسير سيراً خفيفاً ولكن مع عناية الله العامة لا يمكنه أن يتقدّم بسرعة: بعد أن يتقـدم ويسير بأقدام قصيرةٍ تصل النوبة إلى أن يأخذ الله بيده ويرفعه درجات كبيرة.

التوجه إلى الله ونعمه هي محور أفكار المؤمنين وتفكيرهم

ما دام قلب الإنسان مشغولاً بالآخرين لا يمكنه أن يطير لأن رجله مقيدة ولكن عندما يصفّي ويخلص قلبه عن الآخرين بسبب اللطف الإلهي يسهل عليه الطيران، عادةً تكون أعمالنا على أساس الدنيا، وعندما ننشغل بها، نسعى أن تنجز على وفق مرادنا، ونهاية ما يمكننا عمله هو محاولتنا أن ننتفع من طريق شرعي، وعندما يتم عملنا ونجلس، نتحدث مع الأصدقاء، فحديثنا هو حول الدنيا: ذلك الشيء غلىٰ وسعر ارض فلان مناسب و. . . كل ذلك بسبب انشغال قلوبنا بالدنيا، إذا حل حب الله محل حب الدنيا، فعندما يفرغ الإنسان من العبادة، العمل، السعي وأداء الواجبات الإلهية وحصل على فرصة ليجلس مع إخوانه يكون محور كلامه الله سبحانه، يترك الدنيا وزخارفها ويكون كل توجهه إلى الله عند العمل والفراغ وخاصةً عند النوم، هناك أمور تجلب انتباه الإنسان والتي هي موجودة في عمق قلبه ولكن يغفل عنها عندما ينشغل أثناء النهار بأمور الدنيا. فإذا أراد الإنسان أن يعرف ماذا يجري في قلبه ومن هو محبوبه الواقعي والحقيقي فلينظر إلى قلبه وقت الفراغ والنوم إلى أين يتوجه. إن الذين أودعوا وسلموا قلوبهم لله وأحبوه وصار محور توجههم وأفكارهم الله ونعمُهُ التي أنعم بها عليهم سواء أكانوا في أثناء العمل أو في أثناء الفراغ والاستراحة فهؤلاء أولياء الله خصوا بنعم خاصة خفيت عن الآخرين، حتى أصبحت النعم التي حصل عليها أهل الدنيا حقيرة عندهم.

بين العـــاشـــق والمعشـــوق ســـر ورمـــز
مـــن أيـــن يعلـــم بـــه مـــن يـــرعـــى الجمـــال؟

«وافتح عين قلبه وسمعه حتى يسمع بقلبه وينظر بقلبه إلى جلالي وعظمتي».

الإنسان يملك عيناً وأذناً باطنتين غير العين والأذن الظاهرتين.

﴿... فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[١].

الأعمى الواقعي هو من كان أعمىٰ القلب ولا يدرك الحقائق، ولكن من كان من أهل محبة الله، فإن الله يفتح عينه وأذنه، ويرى عظمة وجلال الله بقلبه، وفي هذه الصورة تصبح عنده الدنيا حقيرة ويصعب عليه الاهتمام بأمور الدنيا، لأنه يشاهد أمامه العالم الواسع والرحب (عندما كان فاقداً للبصر كان يرىٰ ضميره وباطنه فقط ولكن عندما فتحت عيناه أخذ يرى العالم بأسره).

لمّا كانت عين قلبنا غير مفتوحة فلم نعرف عن حقائق ذلك العالم وحتى من باطننا وملكوت عالم الدنيا شيئاً، لأننا لم نرها!

عندما نشاهد بعيوننا أو بالمجهر (تلسكوب) الدنيا والسيارات والكواكب نتعجب من سعتها ونغفل من أن هذه مربوطة بالدنيا وإدراكنا مثل إدراك الأعمى ولم تفتح بعد عين قلبنا لكي تشاهد العظمة الإلهية اللامحدودة فحينئذٍ تضيق علينا الدنيا مع كل سعتها.

«وأضيّق عليه الدنيا وأبغّض إليه ما فيها من اللذات».

---

(١) سورة الحج، الآية ٤٦.

صغر الدنيا في العين الملكوتية للمؤمن والناظرة إلى الآخرة

نحن لأننا لم نشاهد مكاناً آخر، وليس لدينا خبر عن عالم الآخرة نتصور أن الدنيا وسيعة في حين عندما نقيسها بعظمة الله فهي لا شيء، ولكن عندما تفتح عين قلب الإنسان بعظمة الله يعرف حقارة الدنيا وصغرها ويعيش السرور والفرح واللذة والبهجة من إدراك عالم الآخرة وعظمة الله بشكل تصبح الدنيا عنده ضيّقة وحقيرة(١).

بل ينساها، مثل شخص أخذ يشاهد الكواكب وكيفية حركتها يبهت وينبهر فيها وينسى حياته العادية لأنه يدخل في الفضاء العجيب والواسع لهذه الكائنات.

إذا فتحت عين قلب الإنسان على العالم الآخر ـ لأن هذا العالم مع كل عظمته فهو لا شيء أمام ذلك العالم ـ تصبح عنده أمور الدنيا بدون لذة بل يعتبرها مانعة من الاهتمام بعالم الآخرة والوصول إليها، في أمور الدنيا كذلك إذا حصل الإنسان على لذة، ينشغل بها مدة، وعندما يحصّل أفضل منها، فإنه لا يريد فقط تلك اللذة بعدها، بل يصبح يكرهها ويعتبرها مانعة من الوصول إلى اللذة الكبرى والأولى، كذلك اولئك الذين فتحت عيون قلوبهم على عالم الآخرة يدركون لذة تصبح عندهم لذات الدنيا بدون لذة بل يكرهونها ويفرون منها لأنهم يعتبرونها مانعةً لهم من الوصول إلى اللذات الحقيقية والواقعية.

---

(١) هذه المفاهيم يصعب تقبّلها كما يصعب على الطفل في بطن أمه فهم الدنيا وسعتها، فيقول لهم دعوني في هذا المكان لأنه استأنس به وأحبه ولكن أخيراً يخرجونه بالقوة، فكذلك الإنسان يخرجونه يوماً من هذه الدنيا وسوف يشاهد كل شيء (المترجم).

أولياء الله والعظماء لا يستلذون من لذاتنا التي نستقبلها بفرح وسرور، لأنه من دخل حب الله قلبه لا تبقى للذات الدنيا عنده جاذبية بل يعتبرها مانعة له من الترقي والكمال، وفقط ينتفع منها بمقدار الضرورة وبعنوان الواجب الشرعي.

«وأحذّره من الدنيا وما فيها كما يحذّر الراعي غنمه من مراتع الهلكة».

عندما يترك الإنسان المراحل السابقة الذكر يصبح معلّمه هو الله سبحانه فينصره ويعينه في الأخطار والمزالق مثل الراعي الذي يبعّد غنمه من المراتع المسمومة والأمكنة الخطرة كذلك هو يبعده عن الدنيا.

«فإذا كان هكذا يفر من الناس فراراً ويُنقل من دار الفناء إلى دار البقاء ومن دار الشيطان إلى دار الرحمن».

نحن إذا لم نشاهد الناس وأمور الدنيا مدة قصيرة نكون كما لو كنا محبوسين في سجن، نحب مشاهدة الناس حتى وإن لم نكن نعرفهم، مشاهدة الناس ومشاهدة الحياة مسرة ومفرحة لنا ولكن من ملأ قلبه من محبة الله، وفتحت عينه على عالم الآخرة الخالد يفر من الدنيا وأهلها ولا يرغب أن يشاهدها ويشاهدهم فقط يحب مشاهدة أهل الله وأولياء الله والتكلم معهم ولا يحب غيرهم إلاّ ما أوجبه عليه التكليف الإلهي أن يكون معهم!

بعض الأوقات يقولون عن الشخص الذي ودّع الحياة بأنه ودّع الحياة الفانية وذهب إلى الدار الآخرة الباقية، ولكن الانتقال في بحثنا يختلف عن ذاك الانتقال لأن المؤمن عاشق لقاء ربه في الدنيا وهو يعيش مع الناس ويعمل بوظائفه حتى ولو كان في الدنيا، ولكن قلبه مقطوع عن عالم الفناء وعالم الدنيا ومتصل بعالم البقاء.

وقد أشرنا سابقاً إلى جملة أخرى من هذا الحديث بأن الدنيا والآخرة قد صارت واحدة في أعين أولياء الله.

«قد صارت الدنيا والآخرة عندهم واحدة».

في الواقع صارت الدنيا والآخرة مثل بيتين ينتقل الإنسان منهما من واحد إلى الثاني عندما ينظرِ الإنسان إلى جلال الله تنمحي الدنيا من عينه، وبعبارة أخرى ينتقل من هذه الدنيا إلى العالم الآخر، وبتعبير الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة: «صحبوا الدنيا بأبدانٍ أرواحها معلّقة بالمحل الأعلى»[1].

مثل هذا الإنسان ينتقل من بيت الشيطان إلى بيت الله. ما دامت العين مفتوحة على الدنيا ومظاهرها، والقلب متعلق بلذاتها، فالدنيا بيت الشيطان لأن الشيطان يوسوس، يحاول إضلال وإغواء الناس ولكن عندما يحلّق الإنسان وينتقل إلى «بيت الرحمن» لم تصل إليه يد الشيطان لأن الشيطان لا يمكنه دخول بيت الله.

«يا أحمد، لأزيننهُ بالهيبة والعظمةِ فهذا هو العيش الهنيء والحياة الباقية وهذا مقام الراضين»

المرتبطون بالله والذين قلوبهم معه أُعطوا هيبةً وعظمةً جعلت الآخرين يخضعون لهم ولا يدرون أنه لماذا عندما يلتقون بمثل هؤلاء الأشخاص يحسون بالصغر والانكسار؟ يمكن أن يكونوا نحيفين وضعيفين وليس فيهم شيء من الأمور التي تبعث على الهيبة، ولكن عندما يظهر شيء من حالاتهم الروحية يحس الإنسان في مقابلهم بالصغر فيعظمونهم. فهذه الحياة أهنأ وأجمل أو حياتنا المليئة بالتلوث؟ نحن دائماً نفكر ماذا نلبس وماذا نأكل وكيف نحتال على البعض؟ إذا فقدنا شيئاً من أموالنا لا تغمض عيوننا بسبب المصاب والحزن. فهل هذه الحياة التي عندنا ثمينة أو حياة الشخص الذي لم يعتن بالدنيا أبداً والدنيا عنده حقيرة وبلا قيمة، لأنه يعيش في عالم أعظم وأوسع، قطع علاقته بالأمور المحدودة وتعلق بالغنىٰ المطلق والعزة المطلقة والجمال والكمال المطلق، عندما يكون

---

(١) نهج البلاغة (فيض الإسلام) حكمة ١٣٩.

الدافع عند المؤمن الابتعاد عن لذات الدنيا وعن المحرمات وبالتالي عن كل ما لا يرضي الله طالباً بذلك رضا الله، طبيعي أن يرضى بكل ما يقسمه الله له أو ينعمه عليه، ولا شك بأنَّ هذا الرضا من كلا الطرفين يعني عندما يكون الإنسان طالباً رضا الله وراضياً عن عمله ويفرح به ومرتبطاً بالله بعد هذا لا يبقى بالنسبة له معنى للنواقص والاحتياجات المادية فيرضى الله عنه كذلك أي هو «راضٍ ومرضيٍ» معاً كما جاء في القرآن الكريم:

﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾[1].

وفي آية أخرى يقول تعالى:

﴿ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[2].

---

(١) سورة الفجر، الآيتان: ٢٧ ـ ٢٨.

(٢) سورة المائدة، الآية ١١٩.

الخصال الثلاث للذين رضوا بقضاء الله وحكمه

فالله سبحانه يعطي للذين حصّلوا الرضا ثلاث خصال:

«فمن عمل برضائي ألزِمه ثلاث خصالٍ: أُعرّفه شكراً لا يخالطه الجهل».

إذاً الميزة والخصلة الأولى هي الشكر لله، بوعي واعتقاد. فطبيعة الإنسان أنه كفور دائماً، يعيش في نعم الله ولكن لا يلتفت إليها، وعندما يفقد نعمة يصيح، يعربد، عنده ملايين النعم ولا يؤدي حقّها، ولكن إذا قلّت واحدة منها يصيح: واغوثاه! ويتجه إلى التوسل والبكاء والنذر والدعاء! وهذه حال أهل الإيمان والتوسل يتجهون إلى التوسل والدعاء وإلاّ فالآخرون تراهم يفقدون أملهم.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ﴾[1].

وفي آية أخرى يقول سبحانه:

﴿... وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾[2].

وأيضاً في مكان آخر يقول: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[3].

وفي مقابل هؤلاء، يعطي الله لعباده الراضين مقام معرفة الحق وشكر العطاء والنعم وأداء حق الشكر من المنعم لا يخالطه جهل بل يعرف جيداً نعم الله ويقوم بأداء شكرها كاملة. لأننا نحن لا نعرف كل النعم الإلهية[4] وعندما نشكر

---

(١) سورة هود، الآية ٩.

(٢) سورة فصلت، الآية ٤٩.

(٣) سورة ابراهيم، الآية ٣٤.

(٤) أكثر النعم نجهلها وبعضها غير مرئية مثلاً صلاح الأب والأم هل شكرنا الله عليه يوماً (المترجم).

يكون شكرنا محدوداً وناقصاً، وفي مقابلها يصدر كفر كثير، وفي نفس الوقت الذي عرفنا نعمةً وشكرنا الله عليها نحن غافلون عن نعم كثيرة، إذاً ذاك الشكر يرافقه جهل بالنسبة إلى بقية النعم الإلهية.

«وذكراً لا يخالطه النسيان ومحبة لا يؤثر على محبتي محبة المخلوقين».

نحن يصعب علينا أن نكون في ذكر الله، عندما نقف للصلاة كل يوم عدة دقائق ولو بحسب الظاهر، نحن في العبادة ولكن قلبنا ليس مع الله ونعيش الغفلة ولكن المؤمن الذي شمله اللطف الرباني والعناية الإلهية وملأ قلبه بالعشق والحب الإلهي لا يمكنه أن ينسى الله، فقد أعطاه الله توجهه والتفاته إليه لا يرافقه غفلة ولا نسيان؛ لذلك لا يغفل عن الله إطلاقاً، فهو عاشق لله والعاشق لا ينسى معشوقه أبداً، هذا الذكر والتوجه إلى الله هو الخصلة الثانية التي يعطيها الله لأولئك الذين عندهم الرضا بقضاء الله وحكمه وإرادته.

الخصلة الثالثة التي يعطيها الله لمن رضي بما يحب ويرضى[1] أن يجعل محبته في قلبه لا يرجح محبة أخرى عليها.

عندما يحب الإنسان شيئاً في الدنيا، يأتي يوم تصير عنده محبة أكبر لموجود آخر فتخرج تلك المحبة الأولى من قلبه وعلاقتنا تكون دائماً بالأشخاص والأشياء هكذا، اليوم محبتنا لهذا الكتاب وغداً لكتاب آخر وأفضل، اليوم أحببنا هذا البيت وغداً عندما هيأنا بيتاً أفضل فرحنا بذاك أكثر، اليوم عندنا هذا الصديق الطيب والحسن والذي أحببناه ولكن عندما نحصل على صديق أفضل، ننسى الصديق الأول، هذه المحبة الدنيوية كل يوم لها مصداق خاص وجديد، أما من كان قلبه متعلقاً بالله لا يرجّح أي محبةٍ على محبة الله، لأنه لا يحصل على محبوب أفضل من الله سبحانه.

---

(١) اللهم وفقنا لما تحب وترضى (المترجم).

«فإذا أحبني أحببتُهُ وأفتح عين قلبه إلى جلالي، فلا أخفي عليه خاصة خلقي».

لا يمكننا أن نصف محبة شخصٍ لله ومحبة الله لشخص واللسان عاجز عن بيان هذه الواقعية، هذا المقام الرفيع لا يدركه إلاّ أولياء الله وأحباؤه. إن الإنسان إذا أحب الله فهو مقام سامٍ ورفيع وتحصل للعبد هذه المعرفة والفهم والإدارك فيحب الله فقط وينسى محبةَ الآخرين وهذا مقام مهم.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾[1].

مضافاً إلى المحبة المتقابلة بين العاشق والمعشوق وبين العبد المؤمن وربه فإن الله سبحانه كذلك يحبب محبوبه إلى الخلق. طبعاً بالنسبة له غير مهم أن يكون محبوباً للناس، وإنما يعتبرها مهمةً ويقدرها لأنها لطف من الله عليه وإلا حبيب الله متوجه فقط إلى الله وبالنسبة له غير مهم إن أحبه الآخرون أو لا، لا فرق لديه أن يكون كل الناس أحبّاءه أو أعداءه ولكن لطف الله عليه جعله محبوب الملايين، يقول الله سبحانه في هذا الباب:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا ﴾[2].

كان الإمام الخميني رضوان الله عليه النموذج البارز للمؤمنين الصلحاء، ومحبو الله ليسوا فقط أحباءه ويحبونه بل حتى أعداؤه كانوا يحبونه حباً جماً وإذا عادوه لأنهم رأوا أنّ منافعهم صارت في خطر. كما أن معاوية كان أعدىٰ الأعداء لعلي عليه السلام وعندما يذهب إليه أحد أصحاب الإمام علي عليه السلام يقول له: اذكر لي شيئاً من فضائل الإمام علي، وعندما يذكر له شيئاً من فضائله سلام الله عليه يبكي! لأن فطرته طالبة للأمور الحسنة والطيبة ولكنه انحرف عنها بسبب تعلّقه بالدنيا

---

(١) سورة المائدة، الآية ٥٤.

(٢) سورة مريم، الآية ٩٦.

وإطاعته للشيطان ونسيان الله تعالى، ومن أجل أهوائه وميوله عادىٰ علياً وأولاده.

«فأناجيه في ظُلَم الليل ونور النهار حتي ينقطع حديثهُ من المخلوقين ومجالسته معهم».

لحد الآن كان محب الله يبحث عن فرصة حتى يناجي ربه ولكنه وصل الآن إلى مقامٍ يناجيه فيه الله سبحانه. العاشق الهائم دائماً يبحث عن لحظةٍ يلتقي فيها بمعشوقه ويجلس عنده ويناجيه، الآن صار المعشوق يناجيه، وهذا أكبر فرح وسرور وأي افتخار فوق هذا أن يحس بأن الله يتكلم معه باليقظة والمنام؟

الدرس التاسع عشر

مقام العُبّاد والرسل الإلهيين ودور التعقل وذكر الله والابتعاد عن الغفلة

أهمية التعقل وذكر الله والابتعاد عن الغفلة

ميزان وملاك أفضلية نبي الإسلام على سائر الأنبياء

تاثير قلة الكلام وقلة الطعام في معرفة وإدراك الإنسان

خصائص العباد

مقام العُباد والرسل الإلهيين

ودور التعقل وذكر الله والابتعاد عن الغفلة

«يا أحمد، اِجعل همك هماً واحداً، فاجعل لسانك لساناً واحداً واجعل بدنك حياً لا تغفل أبداً، من غفل لا أُبالي بأيّ وادٍ هلك. يا أحمد، استعمل عقلك قبل أن يذهب، فمن استعمل عقله لا يخطىء ولا يطغى. يا أحمد، أنت لا تغفل أبداً، من غفل عنّي لا ابالي بأي وادٍ هلك. يا أحمد، هل تدري لأيّ شيءٍ فضّلتك على سائر الأنبياء؟

قال: اللهم لا. قال: باليقين وحسنِ الخُلق وسخاوة النفس ورحمة بالخلق وكذلك أوتاد الأرض لم يكونوا أوتاداً إلا بهذا. يا أحمد، إنَّ العبد إذا جاع بطنُهُ وحفِظ لسانه علّمتُه الحكمة وإن كان كافراً تكون حكمته حجةً عليه ووبالاً. وإن كان مؤمناً تكون حكمته له نوراً وبرهاناً وشفاءً ورحمةً، فيعلم ما لم يكن يعلم ويبصر ما لم يكن يبصر، فأول ما أُبصرهُ عيوب نفسه حتى يشغل بها عن عيوب غيره وأُبصرهُ دقائق العلم حتى لا يدخل عليه الشيطان. يا أحمد، ليس شيء من العبادة أحبّ إليّ من الصمت والصوم فمن صام ولم يحفظ لسانه كمن كان قام ولم يقرأ في صلاته، فأعطيه أجر القيام ولم أُعطه أجر العابدين.

يا أحمد، هل تدري متى يكون لي العبد عابداً؟ قال: لا يا ربّ. قال إذا اجتمع فيه سبع خصالٍ: ورَعٌ يحجزه عن المحارم وصمت يكفُّه عما لا يعنيه وخوفٌ يزداد كلَّ يوم من بُكائهِ وحياءٌ يستحي مني في الخلاء وأكل ما لا بدّ منه ويبغض الدنيا لبغضي لها ويحب الأخيار لحبي لهم».

أهمية التعقل، ذكر الله والابتعاد عن الغفلة

المحادثة التي جاءت في «حديث المعراج» بين الله تعالى وبين نبيّه ﷺ أخذت أساليب متنوعة وهي تعتبر نوعاً من البلاغة في الكلام، لأنه لو كان الكلام من الأول إلى الأخير على نمط واحد لأصبح مملاً ومتعباً، ولكن إذا صار الكلام على أساليب متنوعة يجعل للبحث نشاطاً وحيوية، فقد بينا في البحثين الأخيرين فقرات من كلام الله سبحانه مخاطباً نبيه محمداً ﷺ وحاصل الكلام هو: أن بعض الصفات والخصوصيات تجعل الإنسان يعيش الهناء والحياة السعيدة والباقية، وتلك صفات الذين وصلوا إلى مقام الرضا، مضافاً إلى ذلك درسنا مقام المحبين لله وبعض صفاتهم. وفي هذا القسم تغير أسلوب الكلام، والله سبحانه يوصي نبيّه ﷺ بعدة وصايا ويقول:

«يا أحمد، اجعل همك هماً واحداً، فاجعل لسانك لساناً واحداً واجعل بدنك حياً لا تغفل أبداً، من غفل عني لا أُبالي بأيّ وادٍ هلك».

هنا يقول: اجعل همك هماً واحداً، ليس هذا الكلام بمعنى أن يجعل الإنسان في الدنيا هدفه شيئاً واحداً لا غير، بل القصد إن تزاحمت الأهداف لا يختار اليوم هذا الهدف وغداً يختار هدفاً آخر بعض الأوقات يختار الله وفي أوقات أخرى يختار الناس، بل دائماً يكون هدفه شيئاً واحداً وهو الله وفي جميع المجالات يجب أن يكون همنا هماً واحداً وهو طلب رضا الله. إذن «اجعل همك هماً واحداً» يعني لا تتزلزل وتتغير مرةً تريد الدنيا ومرة تريد الآخرة، مرة تريد الله ومرة تريد الخلق بل يجب أن يكون أقصى سعيك وهمك الله سبحانه. فالشرك مثلاً الذي يجعل الإنسان يريد الله ويريد غيره. له أثر في عمل الإنسان وفي قوله، لماذا؟ لأن الإنسان يحب نفسه، وكلامه تابع للظروف ومنافعه وفي الحقيقة هو

مصلحي، انتفاعي، يتكلم بشكل يجلب مستمعه إلى نفسه أو يحتال عليه، مثل هؤلاء لهم لسانان أما الذي هدفه الله ويطلب رضاه لسانه واحد ويتكلم بشكل واحد لذا يقول الله: «واجعل لسانك لساناً واحداً».

ووصية الله الثانية للنبي ﷺ هي، إذا لم يكن ذكر الله في قلبك يموت بدنك. حياتك الإنسانية متعلقة بذكر الله فإذا لم تكن متعلقة بذكر الله فإنها تحرم من الحياة الإنسانية وبذلك تصبح ميتاً، حتى لو كان عندك الحياة الحيوانية. في زمان يبقى البدن حياً إذا لم يغفل عن الله لحظة واحدة.

يذكر الله الآفة الأصلية للغفلة بهذا الشكل بأنه إذا غفل شخص «لا أُبالي بأيّ واد هلك» يعني الغفلة هي العامل الأصلي للهلكة. إذا نسي شخص الله وأدار بوجهه عنه، يمكن أن يبتلىٰ بأي نوع من البلاء. سُنة الله في هذا العالم هو أن يكون الإنسان مختاراً وكلام الله تهديد للإنسان كي يلتفت بأن الغفلة عن الله تصيبه بأنواع من الهلكات كما يقول الله سبحانه:

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾[1].

يعني تكون مقارنة الشيطان بسبب الغفلة عن ذكر الله وإلاّ لو كان الإنسان ذاكراً لله دائماً، لما تسلط الشيطان عليه.

﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾[2].

فهو يتصور أنه يخدم نفسه والآخرين، في حين هو ضال ويسير نحو الهاوية والسقوط.

«يا أحمد، استعمل عقلك قبل أن يذهب، فمن استعمل عقله لا يخطىء ولا يطغى».

---

(١) سورة الزخرف، الآية ٣٦.

(٢) سورة الزخرف، الآية ٣٧.

إن الإنسان ما دام يستخدم عقله، يعرف الحدود ويراعيها، وبالنتيجة يشخص الأمور ولا يخطئها ولا يطغى في العمل، ولكن إذا ترك العقل تتغلب عليه الشهوة أو الغضب ويتعدى الحدود «يا أحمد، أنت لا تغفل أبداً من غفل عنّي لا ابالي بأيّ واد هلك».

ملاك أفضلية النبي ﷺ على سائر الأنبياء

«يا أحمد، هل تدري لأي شيء فضّلتك على سائر الأنبياء؟ قال: اللهم لا».

طبعاً لأن النبي ﷺ بشر لا يعلم من نفسه شيئاً وعلمه يحصل عن طريق التعليم والإفاضة الإلهية، لذلك يقول النبي ﷺ في الجواب لا أعلم، يعني لا أعلم من نفسي شيئاً.

«قال: باليقين وحُسن الخُلق وسخاوةِ النفس ورحمة بالخلق».

(هذا الكلام يسبب أن يعرف الآخرون أهمية هذه الصفات ويسعوا أن يقوّوها عندهم).

الصفة الأولى التي اختص بها النبي ﷺ هي اليقين والتي يتصف بها كل الأنبياء وطبعاً لليقين درجات ولعل بعضه موجود بين الناس ولكنه بأعلى مراتبه موجود عند الأنبياء، وخصوصاً الأنبياء الذين عندهم مقام الإمامة أيضاً وأفضله وأولاه موجود في الوجود المقدس للنبي ﷺ الذي هو أكمل الأنبياء والذي هو سبب أفضلية النبي ﷺ على سائر الأنبياء.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾(١).

(ملاك الإمامة والقيادة خصيصتان، الأولى: الصبر في العمل والثانية: اليقين من ناحية الإدراك والمعرفة).

والصفات الأخرى التي أوجبت أفضلية النبي ﷺ على سائر الأنبياء حسنُ

---

(١) سورة السجدة، الآية ٢٤.

الخُلق وسخاوة النفس والرحمة والحنان للناس يقول الله في القرآن ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

بعد أن يبيّن الله دليل أفضلية النبي ﷺ يقول: «وكذلك أوتاد الأرض لم يكونوا أوتاداً إلاّ بهذا».

استعمال كلمة أوتاد في هذه الرواية وسائر الروايات تدل على أنه يوجد غير الأنبياء أشخاص لهم دور الوتد والمسمار في الأبواب والشبابيك للبناء: لأنه لولا هذه الأوتاد في الأبواب والشبابيك لتفككت أجزاؤها.

إن هؤلاء العظماء كذلك أوتاد الأرض وبسببهم ووجودهم يحفظ الله الأرض ويدفع البلاء، إذاً أوتاد الأرض إنما حصلوا على هذا المقام المناسب بسبب هذه الصفات.

---

(١) سورة التوبة، الآية ١٢٨.

تأثير قلة الكلام وقلة الطعام على معرفة الإنسان وإدراكه

«يا أحمد، إنّ العبد إذا جاع بطنُهُ وحفظ لسانه علّمتُهُ الحكمة وإن كان كافراً تكون حكمتهُ حجةً عليه ووبالاً، وإن كان مؤمناً تكون حكمتُهُ له نوراً وبرهاناً وشفاءً ورحمةً».

تكلمنا سابقاً حول أهمية (الصوم والصمت) وهنا كذلك يوصي الله سبحانه بوصيّتين ويقول: من كان عنده هاتان أعطيه الحكمة وهما (قلة الكلام وقلة الطعام)؛ فإذا كان مؤمناً تنفعه الحكمة وتفيده وتسبب تكامله، وحتى إذا كان كافراً وعمل بهذين الوصيتين يعطيه الله الحكمة ولكنها تصير عليه حجةً ولم تسعده، لأنه أخذ يخالف الله عن وعي وإدراك. والمؤمن تكون حكمته نوراً وبرهاناً وشفاءً معنوياً لأمراضه (على كل حال في هذه الفقرة تأكيد على دور الحكمة في إدراك ومعرفة الإنسان). ومضافاً يقول الله سبحانه:

«فيعلم ما لم يكن يعلم ويبصر ما لم يكن يبصر، فأول ما أُبصّره عيوب نفسه حتى يشغل بها عن عيوب غيره».

الإنسان الأكول والثرثار لا ينتبه إلى عيوب نفسه، لأنه إما هو مهتم بأكله أو كلامه. يريد أن يتكلم حتى يفرح الناس إذا أقبل ليجلب ويجذب الناس إلى حديثه، فكره مشغول بالآخرين ومن الطبيعي مثل هذا لا ينتبه إلى نفسه حتى يعرف عيوبه.

أما إذا كان الإنسان قليل الطعام والتزم الصوم والصمت يمكنه أن ينتبه إلى نفسه ويشاهد عيوبه ولا ينشغل بعيوب الآخرين والمعرفة بعيوبه من جملة آثار الحكمة، والحكمة لها آثار أُخرى، منها ما تسبب تنوير القلب والبصيرة ونتيجتها

مضافاً إلى تحصيل المفاهيم يحصل الإنسان على حقائق الأمور.

«وأُبصّره دقائق العلم حتى لا يدخُل عليه الشيطان».

هذه الجملة تشير إلى أكبر طريق لنفوذ الشيطان في داخل الإنسان وهو إيجاد الوسوسة والشك والشبهة، فإذا حصل للإنسان العلم القوي والمتقن لا يمكن للشيطان الدخول إليه والوسوسة له أو يلقي عليه الشك والشبهة، وفي المقابل كلما نقص علم الإنسان ووعيه يبتلى أكثر بوساوس الشيطان، أول نافذة تفتح أمام الشيطان ويدخـل منها هي نافـذة الفكر والمعرفة، إذا استطاع أن ينفذ من هذه النافذة واستطاع أن يوجد الشك والشبهة تفتح له بقية النوافذ. أما الذي عنده دقائق وحقائق العلم يسد طريق الشك والشبهة والوسوسة في وجه الشيطان وبالنتيجة لم يبق له طريق للنفوذ. إذاً لليقين أهمية كبيرة. إلى أن يقول الله سبحانه:

أول أفضلية النبي ﷺ على الآخرين هو اليقين، وفي المقابل أحقر شيء يسبب للإنسان الشقاوة والسقوط هو الشك وعدم وجود اليقين.

«يا احمد، ليس شيء من العبادات أحبُ إليّ من الصمت والصوم، فمن صام ولم يحفظ لسانه كمن قام ولم يقرأ في صلاته، فأعطيه أجر القيام ولم أعطه أجر العابدين».

قبل هذا قال الله سبحانه في فقرة أخرى: «أول العبادة الصمت والصوم» ولكن هنا يقول: ليس شيء من العبادة أحبّ إلي من الصمت والصوم، والصائم الذي لم يحفظ لسانه وكل ما جرى على لسانه يقوله مَثَلُهُ مثل الشخص الذي صلى بدون قراءة، كما أن الصلاة التي ليس فيها قراءة فإن فائدتها قليلة كذلك الصوم بدون حفظ اللسان فائدته قليلة ولم يجد نفعاً، هذا الصوم يختلف عن ذاك الصوم الكامل الذي يكون مضافاً إلى الصوم وحراسة اللسان أن يسيطر الإنسان على قلبه وأعماله وأفكاره.

خصائص العباد

بيّنا سابقاً مقام «الراضين» وأوليائه وخصائصهم وهنا نبيّن مقام العُبّاد وصفاتهم وخصوصياتهم. يقول عز وجل:

«يا أحمد، هل تدري متى يكون لي العبد عابداً؟ قال: لا يا رب. قال إذا اجتمع فيه سبع خصالٍ ورعٌ يحجزه عن المحارم».

لو جمعنا هذه التوصيات والأوامر العملية المذكورة في الرواية ورتبناها نحصل على مجموعة أوامر كاملة للسير والسلوك العرفاني، وكذلك إذا رتبنا الأوصـاف التي جاءت بالرواية للسالكين إلى الكمال أو الذين وصلوا إلى الكمال، لاتّضحت ولعرفنا أوصاف السالكين وحتى أوصاف الواصلين إلى الله سبحانه.

ولكن طريقة تعليم الأنبياء والأئمة الأطهار سلام الله عليهم أجمعين كطريقة الله سبحانه يبيّنها بدون أن يرتب هذه التعاليم وينظمها. وبالحقيقة طريقة الله وأنبياؤه أكثر تأثيراً وأرغب لأنه في طريقة وأسلوب التنظيم والفصول تلاحظ الجهة الظاهرية والشكلية، أما في الأسلوب الأول هناك مخاطبة للروح، وسعي في تقديم مفاهيم متنوعة لتنفذ إلى قلب المرء.

على كل حال فأول خصائص العُبّاد، هو الورع والتقوى الذي يحجزهم عن المحارم والذنوب. «وصمت يكفُّه عما لا يعنيه».

الصفة الثانية السكوت المانع من اللغو.

الكلام يفيد في أن يفكر الإنسان به ويترتب عليه فائدة وإلاّ إذا لم تكن فائدة للكلام ولا يوجب الكمال والقرب الإلهي فالسكوت يكون أفضل. «وخوفٌ يزداد كل يوم من بكائه»، وبشكل فطري إذا كان للإنسان خوف ورهبة يرتجف قلبه

وتجري دموعه عندما يقف للعبادة أو عندما يقرأ القرآن ويصل إلى الانذارات الإلهية لأنه في ذلك الحين يذكر ذنوبه ويخاف من عذاب ربه.

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾(١).

«وحياءٌ يستحيي مني في الخلاء».

الصفة الرابعة: الحياء الموجب أن يستحيي من الله في الخلوة.

يستحي الشخص أن يذنب أمام الآخرين، وعلة ذلك الحياء من الناس، وليس الحياء من الله. طبعاً هذا أيضاً جيد وأفضل من ذلك الذي لا يستحي من شخص وحتى أمام الناس يرتكب الذنوب. ولكن الحياء من الله أفضل وأحسن.

من هنا إن الله سبحانه ليس عنده خلوة وحاضر في كل مكان فإذا استحى من الله في الخلاء يعتبر حياؤه حقيقياً وواقعياً. جاء في الرواية أن سلمان كان يملك حياءً بشكل كان يخجل طيلة حياته أن ينظر إلى عورته.

«وأكل ما لا بدَّ منه ويبغض الدنيا لبغضي لها ويحب الأخيار لحبي لهم».

يعني يأكل بمقدار أن يقوى على العبادة وأداء الواجبات، لا أن يأكل كل ما يشتهي.

الصفة السادسة هي أن يبغض الدنيا لبغضي لها.

والصفة السابعة ويحب الأخيار لحبي لهم.

إذا أراد أن يعبدني يجب أن توافق مطالبه مطالبي يعني يقول: إلهي أنا عبدك أنا أعمل ما تقول وما تريد، وعندما يعلم أنا عدو الدنيا عليه هو كذلك أن يعاديها.

طبعاً كما قلنا سابقاً: إن عداوة الله وأوليائه للدنيا ليست بمعنى معاداة المظاهر والنعم الدنيوية بل عداوتهم للدنيا إذا اعتبرت هدفاً، وإلا ليس صحيحاً

---

(١) سورة الأنفال، الآية ٢.

أن يعادي المرء نعم الدنيا ونعم الحياة والتي تعتبر هي نعم الله سبحانه وتعالى. لولا هذه الحياة لما كانت الآخرة، يعني لم تتحقق الجنة ولم تحصل، إذاً ليست الحياة الدنيا ونعيمها شيئاً سيئاً بل طلب الدنيا شيء وطلب الدنيا واعتبارها أصلاً وهدفاً بالذات شيء آخر.

ولكن إذا صارت الدنيا وسيلة للآخرة، وبالحقيقة هو طالب للآخرة فالعابد مع عداوته للدنيا يحب الصالحين، يحب الأشخاص الذين يسيرون في خط الله والطالبين للكمال، هذا يدل على حقيقة بأن الإنسان إما أن يسير في طريق العبودية لله أو عبودية نفسه. إذا اجتمعت كل هذه الصفات في العابد فهو يعبد الله وإذا نقصت منها أي واحدة فتحل محلها عبادة النفس.

الدرس العشرون

كيفية محبة الله

ارتباط الزهد والعبادة بمحبة الله

ارتباط البكاء بمحبة الله

دور الصداقة ومحبة العلماء والفقراء

كيفية محبة الله

«يا أحمد، ليس كل من قال أحبُّ الله أحبني، حتى يأخذ قوتاً ويلبس دوناً وينام سجوداً ويطيل قياماً ويلزم صمتاً ويتوكل عليَّ ويبكي كثيراً ويقل ضحكاً ويخالف هواه ويتخذ المسجد بيتاً والعلم صاحباً والزهد جليساً والعلماء أحباء والفقراء رفقاء ويطلبُ رضاي ويفرَّ من العاصين فراراً ويشغل بذكري اشتغالاً ويكثر التسبيح دائماً ويكون بالعهد صادقاً وبالوعد وافياً ويكون قلبُهُ طاهراً وفي الصلاة ذاكياً وفي الفرائض مجتهداً وفيما عندي من الثواب راغباً ومن عذابي راهباً ولأحبائي قريباً وجليساً.

يا أحمد، لو صلّى العبد صلاة أهل السماء والأرض وصام صيام أهل السماء والأرض وطوى الطعام مثل الملائكة ولبس من لباس العاري ثم أرى في قلبه من حب الدنيا ذرةً أو سمعتها أو رياستها أو حليتها أو زينتها لا يجاورني في داري ولأنزعَنَّ من قلبه محبتي وعليك سلامي ومحبتي (ورحمتي) والحمد لله رب العالمين».

يمكن القول بأن حاصل ما ورد في حديث المعراج ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: يرتبط بحركة الإنسان إلى الله ومن البداية تبدأ هذه الحركة بجدية الإنسان وسعيه الكثيف حتى يصل إلى أن يكون قلبه مؤهلاً لاستقبال المحبة الإلهية. وأنه ماذا يعمل حتى يرفع الموانع عن طريقه ويصل إلى مقام المحبة الإلهية.

أما القسم الثاني: يرتبط بوصول الإنسان إلى محبة الله ورسوخها في القلب وكيفية هداية الله للإنسان وكيفية عاقبته ونهايته.

بعبارة أخرى يمكن القول بأن محور الكلام في هذا الحديث محبة الله : قسم منه يتكلم عن مقدمات تحصيل هذه المحبة ، والقسم الثاني يتكلم عن آثار ونتائج هذه المحبة . وأن محبة الله لا تجتمع مع محبة الدنيا .

وأخيراً تكلم عن كيفية محبة الله والأعمال التي تليق بالمحب لله جل وعلا .

ارتباط الزهد والعبادة بمحبة الله

«يا أحمد، ليس كل من قال أحبُّ الله أحبني، حتى يأخذ قوتاً ويلبس دوناً وينام سجوداً ويطيل قياماً ويلزم صمتاً».

المدّعون لمحبة الله كثيرون لأن كل بضاعة غالية ونفيسة لها طلاب كثيرون وأيُّ بضاعةٍ أغلى من محبة الله؟ كل أتباع الأديان يدّعون محبة الله، وليس كذلك بأن الجميع واقعاً يحبون الله وأولياءه. لمحبة الله آثار وعلائم خاصة وتظهر في أعمال وحالات الأشخاص فتدل على محبة الله ومن جملة هذه الآثار والتي جاءت في هذا الحديث: الاكتفاء بقلة الطعام. يقول الله سبحانه الذي يحبني يكتفي بالقوت الذي لا بد منه في حياته ولا يلتفت ويبالي بالأطعمة والأشربة اللذيذة للدنيا بل يكون فكره واهتمامه وظائفه وواجباته وكذلك يختار لنفسه ملابس زهيدة ورخيصة لا ملابس فاخرة وغالية. وكذلك يبقى في سجوده حتى ينام ويطوّل صلاته وعن هذا الطريق يلازم السكوت دائماً.

ارتباط بعض هذه الأعمال بمحبة الله واضحة، ولكن بعضها يحتاج إلى شرح إذ جاءت الوصايا بأنه على المحب لله أن يعيش عيشة بسيطة ويأكل بمقدار الضرورة ويعيش الاقتصاد بالملبس ولا يشتري ملابس فاخرة بسبب أن الحصول على ذلك يحتاج إلى وقت وقوة ومال لأنه لأجل تهيئة الأكل واللباس الأفضل يجب تحصيل مال أكثر، ولا شك أن طلب الزيادة في هذه الأمور تدل على الارتباط القلبي بالدنيا وأنه يحب الله ويحب أموراً أخرى أيضاً. وأنه يحب أن يظهر بالمظهر اللائق ويتناول الأغذية اللذيذة مما يدل على تعلّق قلبه بلذائذ الدنيا من الأكل واللبس وطبيعي مثل هذا القلب ليس محلاً مناسباً لحب الله.

ارتباط السجود والقيام الطويل بمحبة الله واضحة جداً، عندما يكون للإنسان حبيب، يجب أن يكون معه ويجلس عنده، ويحدثه وحب الله بالعبادة

والصلاة كلما أحب الإنسان ربه أكثر يسعىٰ أن يكون في حضوره أكثر ولم يمل ويتعب من الصلاة والمناجاة. إذا تعب الإنسان من تطويل الصلاة وأراد إتمامها بسرعة فإن هذا يدل بأن محبة الله لم تترسخ في قلبه ولم يستأنس بها، وإلاّ لما تعب ومل من الصلاة وهل العاشق يمل من معشوقه ويتضجر منه؟!

جاء في أحوال النبي ﷺ أنه كان يطوّل صلاته حتى تتورم قدماه ويطيل سجوده حتى يغشىٰ عليه.

وقد جاء في حالات الصحابي الجليل أويس القرني أنه كان يقضي بعض الليالي بالسجود ويقول هذه ليلة السجود وبعض الليالي يقضيها بالركوع ويقول هذه ليلة الركوع وكذلك بعض الليالي يقضيها بالقيام.

في الدرس الثالث عشر ذكرنا قصة المرحوم الشيخ حسن علي الاصفهاني رحمه الله كيف كان في الليالي جنب القبة الرضوية يناجي ربه حتى ينسىٰ نفسه ويغفل عنها ويجتمع الثلج على ظهره في ركوعه وهو لا يحس به وبعض العظماء والعلماء والمراجع كانوا يختمون القرآن في ليلة واحدة عند قبر الإمام الحسين عليه السلام والمشهد الرضوي وسائر المزارات الشريفة لأئمة المسلمين. إذن فلا مجال للتعب إذا كان عشق العبد لربه كثيراً ومحبته عميقة فكلما استأنس الإنسان بالله استلذ أكثر.

من جملة وصايا الله في هذا المقطع الأخير رعاية السكوت، فمن الطبيعي عندما يحب الإنسان شخصاً يريد أن يكون قلبه دائماً متمركزاً عنده وعند حضوره يحاول أن يمركز فكره وتوجهه عنده، وفي غيابه ذكره حاكم على قلبه، من البديهي جداً أن يسكت حتى يحصل على هذه الأمنية لأن الكلام أكبر عامل لتشتت أفكار الإنسان وذهنه.

ذكرنا سابقاً بأن أحد الفضلاء سأل المرحوم العلامة الطباطبائي رحمة الله عليه ماذا أفعل حتى يصير عندي حضور القلب في الصلاة؟

فأجابه: قلّل كلامك.

إذن إذا أراد الإنسان أن يحصل على التمركز في الفكر ويتوجه قلبه فقط إلى الله وإلى محبوبه يجب أن يقلل كلامه، فعندما يتكلم كثيراً يتوجه إلى هنا وهناك، ويتشتت فكره ولا يستطيع أن يجمع فكره ويمركزه. إذن أولياء الله ملازمون للسكوت، لأن قلوبهم متوجهة إليه.

«ويتوكل عليَّ ويبكي كثيراً ويقلَّ ضحكاً ويخالف هواه».

رابطة البكاء بمحبة الله

من كان في أول الطريق وأراد أن يسير إلى الله ويجلب محبته إليه يجب أن يبكي من خوف الله، لأنه لم يتطهر بعد وملوّث بالذنوب. ولولا بكاؤه من الله وتوبته الكاملة لم يتطهر قلبه من الذنوب والمعاصي، فالبكاء من خوف الله يغسل الذنوب كما يفعل الماء الزلال، وبعد التطهير من الذنوب والوصول إلى المحبوب، يبكي كثيراً من شوق الوصول إلى المحبوب.

ونقل عن النبي شعيب على نبينا وآله وعليه السلام أنه بكى مائة سنة حتى عمي، فأوحى الله إليه: يا شعيب لماذا تبكي هكذا؟ إذا كان بكاؤك من خوف العذاب أنا حرّمت جهنم عليك وإذا كان بكاؤك شوقاً إلى الجنة أنا وضعتها بين يديك فقال النبي شعيب: إلهي أنت تعـلم أن بكائي لا خوفاً من جهنم ولا طمعاً في الجنة بل من أجل شوق لقائك (إن الله يعلم ما في ضمير شعيب، لكن هذه المحادثة بين العاشق والمعشوق).

فقال الله سبحانه: صدقت. كما قلت، سوف أخدمك كليمي! من ناحية أخرى فإنَّ موسى بن عمران فر من مصر وذهب إلى مدين مدينة شعيب عليه السلام وتعاقدا أن يتزوج ابنة شعيب على أن يبقى هناك ويخدم شعيباً ويتعهد برعاية غنم شعيب. إذن بعد أن عمي شعيب وضعف عن العمل جعل الله كليمه موسى بن عمران عليه السلام يخدمه ـ حتى لو لم يكن نبياً في ذلك الزمان، ولكن بعدها صار أحد أنبياء أولي العزم ـ شعيب بسبب عشقه وحبه لله حصل هذه المنزلة أن يخدمه مثل موسى بن عمران عشر سنوات ولعل هذه الخدمة لموسى جعلته يحصل على مقام الرسالة فيما بعد.

إذن الذي يبكي كثيراً لم يبق عنده مجال للضحك لذلك ضحك أولياء الله قليل، خصوصاً من أجل إضحاك الآخرين. استولى على قلوبهم شوق لقاء الله

بشكل جعلهم لا يفرحون بأي شيء في هذه الدنيا وفرحهم من أجل أن يفرّحوا المحيطين بهم ومن أجل أن لا يحزن الآخرون وإلا فإن قلوبهم محزونة مغمومة بشكل لا ينمحي بكل أفراح الدنيا.

ويرتفع هذا الحزن فقط بلقاء الله سبحانه. كذلك من يحب الله يخالف هواه لأن محبة الله لا تجتمع مع الغرور وعبادة النفس. إذن لأجل الوصول إلى الله يجب سحق النفس وهوى النفس وما دام الإنسان تابعاً لأهواء نفسه ومطيعاً لها لا يمكنه أن يكون محباً لله.

أهمية محبة العلماء والفقراء ومصادقتهم

«ويتخذ المسجد بيتاً والعلم صاحباً والزهد جليساً والعلماء أحباء والفقراء رفقاء».

من الطبيعي أن من يحب الله يجعل المسجد بيتاً له وكلما فرغ ذهب إلى المسجد وأخذ يناجي ربه، وكذلك محب الله يجب أن يتعرف على محبوبه أكثر وكلما ازدادت معرفته بالله أكثر لم يشبع، فهو يسعى أن يكتسب معلومات أكثر عن محبوبه عن طريق الصفات والآثار والأفعال الإلهية، وكل ما يشاهد أمامه من آثار كونية يعتبرها مظهراً من مظاهر الجلال الإلهي وتوجهه إلى الكون من جهة أنه مظهر لمحبوبه، ومن هذه الجهة هو في صدد ازدياد علمه بآثار الله محبوبه.

من أحب الله أحب أولياءه، ومن أبرز أولياء الله هم العلماء، ويعادي أعداءه، طبعاً القصد من العلماء هم العلماء الربانيون الإلهيون والعارفون بالمعارف الإلهية. كذلك الذي هو محب الله وولي الله ويعيش عيشة متواضعة، عيشة الفقراء ولم يتعلق قلبه بأمور الدنيا يصادق ويرافق من كانت عيشته كذلك، ولم يتعلق بالدنيا ولا الأشخاص الذين عشقوا الدنيا وزخارفها، ويصادق من اختار العيش البسيط بوعي وعلم، لأن بعض الناس عنده أموال كثيرة ويصرفها في سبيل الله، لا في سبيل الأهواء النفسية واللذات الدنيوية.

كثير من الأنبياء وبعض الأئمة كان عندهم أموال كثيرة يصرفونها على الفقراء والمحتاجين ولم يبنوا بها قصوراً ولم يشتروا الذهب والفضة وغير ذلك.

«ويطلب رضاي ويفر من العاصين فراراً».

وليُّ الله يسعىٰ ويطلب رضا الله، ويجد في ذلك كل الاجتهاد مثل هذا لا يقترب من أعداء الله، بل يفر منهم فراراً، طبعاً لأجل إصلاح المذنب العاصي

يرافقه ليهديه لأن واجب أولياء الله ومحبي الله هداية المذنبين والعاصين، ولعله يتم هذا الأمر بمصادقتهم على الرغم من أنهم لا يريدون هذه الصداقة.

«ويشتغل بذكري اشتغالاً ويُكثر التسبيح دائماً ويكون بالعهد صادقاً وبالوعد وافياً».

ولي الله ومحبه يذكر الله ويسبّحه، لأنه أفضل شيء للعاشق أن يكون مفكراً بمعشوقه وذاكراً له.

أولياء الله ليسوا أهل حيلة ومكر وصادقون بالعهد. الصادقون بالعهد مع الله يكونون صادقين مع النـاس ومن كان غير صادق بالمحبة والصداقة يلاقي النفاق في حياته.

«ويكون قلبُهُ طاهراً وفي الصلاة ذاكياً وفي الفرائض مجتهداً».

القلب الإلهي والرباني طاهر وخالٍ من التلوث ولم يتعلق بغير الله لأن محبة الله استقرت به، فإذا كان القلب غير طاهر لم تترسخ فيه محبة الله. إذاً وجود محبة الله فيه علامة الطهر فيه.

«وفيما عندي من الثواب راغباً ومن عذابي راهباً ولأحبائي قريباً وجليساً».

بشكل كلي وليُّ الله يحب أن يترك الدنيا ويبتعد عنها لأن محبة الله لا تجتمع مع محبة الدنيا. طبعاً لمحبة الله أبعاد مختلفة وفي المجموع يمكن القول بأن كل مانع للتقرب إلى الله ومبغوض إلى الله يعد من الدنيا. من أحب الله محبةً خالصة لم يتعلق قلبه إلا بالله وما يتعلق بالله.

وإذا أحب شخصاً لأنه محب الله أحبه وارتبط به، وكما قلنا سابقاً: إن محبة الله لها درجات، ففي بادىء الأمر يحب الأمور الحلال وغير المبغوضة عند الله، وهذه المحبة لا تنافي محبة الله، فإذا صارت محبة الله خالصة لله فقط يتعلق القلب بالله وحتى محبة الأنبياء، الأولياء، الأئمة الأطهار فهي من جهة ارتباطهم بالله.

«يا أحمد، لو صلى العبد صلاة أهل السماء والأرض وصام صيام أهل السماء والأرض وطوىٰ من الطعام مثل الملائكة ولبس لباس العاري ثم أرى في قلبه من حب الدنيا ذرة أو سمعتها أو رياستها أو حليتها أو زينتها لا يجاورني في داري ولأنزعنَّ من قلبه محبتي».

هذا القسم الذي ينطوي عليه الحديث يهز الإنسان هزّاً يستحق الأخذ به، والعمل بوصاياه والاهتمام بها في حياتنا.

يقول الله سبحانه: لو عبد شخص عبادة أهل السماء والأرض ومثل الملائكة لم يأكل وكان مثل العراة فقط يستر عورته، وفي قلبه ذرة من حب الدنيا كأن يحب أن يشيع اسمه في الآفاق ويمدحه الناس ويحب الرياسة والذهب والفضة وزخارف الدنيا بمقدار ذرة مثل هذا لا يجاورني.

وعليك سلامي ومحبتي (ورحمتي) والحمد لله رب العالمين.

أحمد الحسيني

١٢ صفر ١٤٢٥هـ

فهرس المحتويات

الدرس الخامس

الدرس السادس

الدرس السابع

الدرس الثامن

الدرس التاسع

الدرس العاشر

الدرس الحادي عشر

الدرس الثاني عشر

الدرس الثالث عشر

الدرس الرابع عشر

الدرس الخامس عشر

الدرس السادس عشر

الدرس السابع عشر

الدرس الثامن عشر

الدرس التاسع عشر

الدرس العشرون